الجبتانا

أسفار التكوين المصرية

مانيتون السمنودي

تحقيق

علي علي الألفي



الأب أبيب النّقّادي والكَنْز المصري المفقود

"الجبتانا"

التقيتُ -أنا كاتب هذه السطور- في منتصف أربعينيات القرن العشرين بالأب أبيب النّقّادي معلمًا وعَرِيفًا لي.

كان الأب أبيب رائدًا لمجموعة من مثقفي المنصورة في ذلك الزمان: الأستاذ عبد الشهيد صادق بانوب (قداسة الأنبا ثاؤوفيلس بعد ذلك)، الأستاذ جودت (والد الشاعر صالح جودت)، الأستاذ بهجت ناظر طلخا الثانوية، الأستاذ سليم أنطون المحامي، والأستاذ محمود الألفي (مدير دار المعلمين بالمنصورة)، والأستاذ علي محمود طه (الشاعر والمهندس ببلدية المنصورة)، والخواجة باسيلي عبده (أحد مزارعي الريدانية الكبار)، والمهندس محمد أبو ريًّا إبراهيم (مهندس بالسكة الحديد أُوفِد مرات إلى إنجلترا... وكان مثقفًا موسوعيًا كالأب أبيب)، والأستاذ محمود سنّان (وكيل النائب العام).... وآخرون.

كان الراهب أبيب يقيم ببيت قديم بجوار كنيسة الريدانية، إلا أنه كان موجودًا مع والدي (علي الألفي ـــ عمدة الريدانية) معظم الوقت؛ حيث لم تكن للأب أبيب أسرة ترعاه، وكان الجميع يلتقون معظم أيام الخميس في المنصورة في شقة خاصة... وكان يلتحق بهم في المنصورة عدد كبير من المثقفين وهواة الموسيقا، منهم ناجي في فترة وجوده بالمنصورة، وصالح جودت في بعض الأحيان... وآخرون.

كان الراهبُ أبيبُ أكبر الجميع سنّا، فهو -بحسب قوله-من مواليد أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، كذلك كان الجميع يعترفون بأستاذيته لهم؛ ففضلاً عن سِنِّه، كان أكثر الجميع ثقافةً؛ إذ كان متمكنًا من لغات كثيرة، كما كان قارئًا نَهِمًا لكل ما يصل إلى يده من الكتب والدوريات والصحف...

كنتُ بمثابة الابن الوحيد للأب أبيب... في المرحلة الابتدائية القديمة، والمرحلة الثانوية قرأتُ بتوجيهٍ منه معظم ما في مكتبته التي كانت تحوي خليطًا عجيبًا من الكتب:

نسخة إنجليزية من كتاب "أصل الأنواع" لتشارلز دارون، بجوارها كتاب بعنوان "الردّ على أصل الأنواع التي عرّبها شبلي شميّل" بقلم الأب جرجس فرج صفير الماروني (وعلى النسخة إهداء من الأب اللبناني للأب أبيب).. مجموعات مسرحيات شكسبير، ترجمات إنجليزية لموليير وراسين وجان جاك روسو، ترجمات إنجليزية لكتابات ألمانية منسوبة لكارل ماركس أذكر منها الأيديولوجية الألمانية وأخرى لهيجل وغيره من الكتّاب الألمان... كما تجد دواوين أبي العلاء والمتنبي، و"في الأدب الجاهلي" للدكتور طه حسين، و"الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرازق، ومعظم المعاجم العربية والإنجليزية، وعدة نسخ من القرآن الكريم، بعضها نسخ خطية مهداة إليه من بعض السودانيين (يُلقِّبُ بعضهم الراهب أبيب بالخليفة!؟)، وعدة نسخ عربية وإنجليزية من الكتاب المقدس، والوسيط للسنهوري، وعدة كتب في "الدستوري" و"الدولي العام"، ومعظم كتب التاريخ التي كُتِبَتْ بالعربية والإنجليزية...

بعد أن قرأتُ كتابًا من مكتبته عن الأفلاطونية المحدثة وأفلوطين السكندري، وأثر الإسكندرية على فلسفة توماس أكويناس، وبعد عدة استفسارات منّي... قال:

– "أنا حالة "هيلينستية"، فأنا قبطي مصري من نقادة.. وأمي كاثرين من أسرة يونانية كانت تقيم في المنصورة... وأُرضي حبكَ للاستطلاع فأزيد: أنني نشأتُ شماسًا في كنيسة ما في الصعيد؛ حيث كان للأسرة مطعم صغير في إحدى محطات السكة الحديد... سافرت إلى اليونان، وإيطاليا، والشام، والسودان، والجبل الأسود بيوغسلافيا... اشتغلت بأعمال كثيرة وأجيد لغات كثيرة... واللغات التي أحب القراءة بها هي العربية، والإنجليزية، والقبطية (الديموطيقية).. وخَدَمْتُ في كنائس جنوب السودان، والحبشة، وأوجاندا.

بعد استقراري، خَدَمْتُ ببعض كنائس الصعيد... وأثناء تلك الفترة توثّقتْ صلتي بالآثاريين المصريين والإنجليز والأمريكان والهولنديين والألمان وغيرهم... كنت أساعدهم في التعاقد مع العمال وبالترجمة لهم... وكنت أساعدهم –كذلك– بتوثيق صلاتهم ببعض الأسر القبطية التي كانت تحتفظ ببعض أسرار الآثار والكنوز... وأذكر من هؤلاء الآثاريين أعلامًا بارزين: جيمس هنْري بِرِسْتِد وتلميذه جون ويلسون، كمال باشا، سامي جبرة بك، سليم حسن، خيري بك، ومختار بك، وآخرين لا أذكرهم الآن".



كنت معجبًا بقوة ذاكرته (حتى قبل وفاته في أواخر الخمسينيات عن بضعة وتسعين عامًا)؛ فقد كان يحفظ معظم أشعار المتنبي وأبي العلاء وابن الرومي، وجون كيتس، وشيلي، وبايْرُون، وملتون، و"ووردِث وُرْث".. وكان يحفظ ترجمة فيتزجيرالد لرباعيات الخيام، وترجمة السباعي العربية للرباعيات... كان في أحاديثه قادرًا على التلخيص والتعليق على "دون كيشوت"، وعلى "بيت الدُّمْيَة" لإبسن، وعلى شاهنامة الفردوسي، وعلى الحوار بين المذاهب المسيحية، والجديد في فكر البروتستانت... كما كان ضليعًا في الفكر الإسلامي، وكان منصفًا للمعتزلة، والشيعة، وبعض الخوارج...

كان الأب أبيب يحفظ متن "الجبتانا" (أسفار التكوين المصرية)... وكان كثيرًا ما يردّد أن لمانيتون السمنُّودي (المؤرخ المصري) متنين: أحدهما مشهور وهو "إيجبتياكا" EGYPTIAKA، وهو مشهور لكثرة اقتباس المؤرخين اللاحقين منه، واعتمادهم عليه في تحديد الأسرات الفرعونية الحاكمة... لهذا وُجِدَتْ أجزاء كبيرة من بردياته، والثاني EGYPTIANA وهو غير مشهور؛ لمصريته العريقة، ولأنه يُعطي الانطباعَ بأن الفكر العبراني والسامي مأخوذ عنه، بل هو يؤكد ذلك، وكان الأب أبيب ينطق المتن الثاني باسمه المشهور في القبطية "الجبتانا".

و"الجبتانا" متن مقدس؛ أي "سُوْرتا" (سورتا: كلمة مصرية قديمة انتقلت إلى الساميات بنفس الاستخدام المصري؛ بمعنى المتن المقدس، والكلمة المصرية وتعديلاتها السامية موجودة في كلمة "سورة"، وفي الساميات تقترب "سورتا" أو "سورة" من "سيِقْر" أو "سِفْر".. وفي فقه اللغة للدكتور لويس عوض إشارة لقانون التبادل بين الفاء والقِي والواو).. والجبتانا متن مقدس -كما قلنا- يروي قصة انبثاق الآلهة، وظهور الآلهة في مصر، وبداية تجمُّع السلالة المصرية حول وادي النيل، وبدء ظهور الحضارة المصرية: استنبات الحبوب، أدوات الزراعة، استئناس الحيوان، تجفيف المستنقعات وزراعتها... واستمرت الجبتانا تروي جذور الحضارة المصرية، حتى زمن مصرع "أوزيريس" الناسوتي وتحوُّله إلى صورة لاهوتية، ثم زوال الاتحاد الأول، وبداية الاتحاد الثاني على يد "مينا نارمر".

كانت "الجبتانا" -إذن- نصًّا مقدسًا حَفِظَهُ مانيتون عن الكهنة الذين حفظوه عن أسلافهم، وإمعانًا في قداسة "الجبتانا" فإن مانيتون يرى في المنام أن رب الأرباب يأمره بأن

يعيد تسجيل الجبتانا عن المتون القديمة التي كانت تحويها... وينصاع مانيتون لما رآه في سفر الرؤيا الخاص به.. ويعيد كتابة الجبتانا التي يعتبرها من وحي الآلهة أحيانًا، وأحيانًا أخرى يعتبرها متونًا قديمة سجلها قُدامى المصريين على الألواح وعلى الأُستراكا وعلى جُدُر المقابر القديمة.

كانت الجبتانا نصًا مقدسًا، وكان النص محفوظًا من قِبَل الكهنة يرددونه في المعابد، وتُتلى أجزاءٌ منه في القُدَّاسات.

ولمَّا استقرَّت المسيحية في مصر، بعد عصر الشهداء، حدث لونٌ من الاضطهاد لمن ظلّوا على العقائد القديمة؛ فلاذ المضطهَدُون بدروب الصحراء وكهوف الجبال، وعكفوا على ترديد "الجبتانا" كنص مقدس يربطهم بما يؤمنون به.

ودخل الإسلام واللغة العربية مصر، وشعر المصريون بالخوف على اللغة المصرية وما يرتبط بها من تراث؛ فعادت "الجبتانا" إلى الظهور، تُرَدَّدُ باعتبارها نَصًّا مقدسًا محسوبًا على القبطية (مثلما اعتبرت الكنائس والمجامع المسيحية الغربية أرسطو جزءًا من فكر المسيحية الغربيَّة)... وهكذا ظلت الجبتانا تُرَدَّدُ في المواسم والاحتفالات القبطية، ويستخدمها بعضُ الرهبان المعلمين كنص يدربون عليه الطلاب في الكتابة والقراءة حتى نهاية الزمن الفاطمي في مصر.

كان الراهب أبيب يحفظ "الجبتانا" عن ظهر قلب، بالصورة التي وصلت بها إليه، عبر خمسة وخمسين جيلاً (كما كان يقول)... كان يرددها بالقبطية الحبيبة إلى نفسه، والتي كان يُعْتَبَرُ أحد فقهائها. (كثيرًا ما ردد أن المترجمين الأجانب للخطوط المصريَّة، كانوا يلجئون إليه في بعض الأحيان)... وكان يترجم ما يردده لنا بالعربية... وحَفَظْتُ عنه الخط العام للحوادث، كما حَفَظْتُ بعض الأسفار، وسجَّلْتُ الكثير كتابةً.

بدأتُ -وأنا طالب في دار العلوم في الخمسينيات- جمع وكتابة متن "الجبتانا" كاملاً، وأطْلَعْتُ الراهب أبيب على عدة كراسات فوافق عليها... وكنت قد حرَّرتُها في ستة عشر سفرًا؛ كل سفر يحتوي على خمسة إصحاحات، وفق ما يحفظه الأب أبيب...

توفـــي الراهب أبيب في صيف ١٩٥٩.. وبعد أن تخرّجت في دار العلـــوم أعــدد الصياغة من واقع كراساتي، وكراسات الأب أبيب، وبرعاية الأنبا ثاؤوفيلس (عبــد الشــه صادق بانوب).

ثم جمعتني الظروف بالأستاذين إميل دوس ونصيف بطـــرس المحـــاميين؛ فأمــداد بسخاء بكل ما كُتِب عن العصر العتيق وما قبله باللغتين العربية والإنجليزية.. وكانت لديهم فكرة عامة عن "الجبتانا" من أحد المعمِّرين الأقباط من ببا في بني ســويف، وأمكنـــاني مــ الاتصال به عن طريق الأستاذ منير جرجس المحامي في بني سويف... وتبيّـــنت أن مــ يحفظه ذلك البباوي لا يختلف كثيرًا عما كان يحفظه الأب أبيب، وإن كانت رواية الأب أبيد أكثر دقـــة واتـــساقًا.

وأعدت صياغة الجبتانا عدّة مرات، بعد مراجعـــات للتـــاريخ القـــديم، ومراجعــاد لكراساتي وكراسات الأب أبيب، ولكل ما نُقِل عن الكتّـــاب الكلاسيكيين من أمثـــال: هيكاتـ المالطي (٥٥٠ ق.م)، هيرودوتس (٤٥٠ ق.م)، هيكاتـــا الأبـــدري (٣٠٠ ق.م)، مـــانيتو السمنودي (٢٧٠ ق.م)، ديودور الصقلي (٦٠ ق.م)، استرابون (٢٧. م)، جوزيفوس (٣٧.ـ بلوتارخ (١٢٠.م) وآخرين.

وبعدُ؛ فهذه هي الصورة الأخيرة من الجبتانا، انتهيت منها في السابع من هاتور سنة ١٧٠٥ قبطية الموافق للسادس عشر من نوفمبر سنة ١٩٨٨ م.

علي علي الألفـ

موجه عام في التعليـ



"مقدمة في الأنثروبولوجي وعلم النفس الاجتماعي"

تشكَّكُ كثيرون فيما نُسِب إلى "هيلين كِلر" الخرساء العمياء من أقوال تَنُمّ عن فكر عميق... ويعتقدون أن ما نُسِب إليها، إن هو إلا فكرُ صاحبتها المتحدثة باسمها... وسند هؤلاء المتشككين فيما ذهبوا إليه؛ أن "المخ البشري" الذي يعمل برموز محدودة لا يُنتج إلا فكرًا محدودًا ساذجًا؛ إذ إنه كلما اتسعت إمكانية المخ على التعامل برموز كثيرة فإن هذا يؤدي إلى عمليات عقلية كثيرة ومعقدة وعميقة... ولعلّ هذا يعلّل لعدم ظهور عباقرة من الخرس، بينما ظهرت أعداد كبيرة من العباقرة العميان.

كان "الحيوان البشري" فيما قبل العصر الحجري القديم (الباليوليتي) يعيش في أُسَر صغيرة كأسر الحيوانات الأخرى؛ وبالتالي كان يستخدم الإشارات، وقلّ استخدامه في ذلك العصر للرموز الصوتية، الأمر الذي أدى إلى تحجيم العمليات العقلية عنده؛ وذلك لأنه كالأخرس لا يستخدم رموزًا كثيرة.

ومن المفيد -في هذا السياق- أن نذكر واقعة مرّ بها بعض الأنثروبولوجيين؛ فقد عثرت بعثة علمية بريطانية بالقرب من جُزُر الكريسماس في المحيط الهادي، وفي العروض التاسعة الواقعة بين شمال أستراليا وجنوب شرق آسيا على جزيرة صغيرة، معزولة داخل أرخبيل مكوّن من جزر بركانية وعوائق من حواجز مرجانية، وكان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر... وعثرت البعثة في هذه الجزيرة على بشرٍ لا يزالون يعيشون حضارة العصر الحجري القديم.. كانوا في غاية السذاجة... يشيرون غالبًا، ولا يُصدِرون إلا عددًا محدودًا من الكلمات: الشجرة، الماء، السلحفاة، السمكة... ولا يعرفون من الأعداد إلا "واحد" و"اثنان"، فإن أرادوا ثلاثة قالوا: واحد واثنان، وإن أرادوا أربعة، قالوا اثنان واثنان... وهكذا... وكذلك كانوا بلا أسماء وبلا عقيدة من أي نوع.

وفي العصر الحجري القديم عاشت أصول الجنس المصري في السهوب الخضراء التي تصحّرت بعد ذلك، ونعرفها الآن باسم الصحراء الشرقية والغربية.. وكانت هذه الأصول

في حالة مشابهة لحالة الأسر الحيوانية ذات الميل الاجتماعي (كالقِرَدَةِ العليا)، وكانت هذه الأسر المصرية الأولى تعتمد على الإشارات (كالخُرس)، وتنطق ببعض الأصوات القليلة.

كان الذكر الأكبر والأقوى من هذه الأسر يطرد الذكور الصغيرة الضعيفة إذا ما كبرت وبدأت التحرش الجنسي بالأمهات (وهذا ما يعتبره فُرويْد جذر عقدة أوديب).. كذلك تطرد الأمهاتُ القويات الإناث الصغيرات حين يَبْلُغْنَ ويبدأن التحرُّش الجنسي بالذكور البالغين من الآباء (جذر عقدة إلكْترا).. فيُضْطَرُّ الصغار من الذكور والإناث إلى الفرار من الكبار... ولكن يظلون في الأجوار مدفوعين بحنين للكهف الذي خرجوا منه، ومدفوعين -أيضًا- برغبة الاحتماء بالجماعة؛ وهي رغبة غريزية في معظم الأنواع.. وهكذا تتجمع أجيال جديدة وتتعارك وتتزاوج؛ فتنشأ العشيرة.

ويزداد التصحـّر... ويقل الصيد... وتحدث معارك بين العشائر التي تتنازع البقاء... ويزداد تلاحم العشائر والقبائل ذات الأصول الإثنيّة المشتبكة... وتلجأ بعض العشائر والقبائل إلى وضع علامات مشتركة على الوجوه؛ للتمايز والتعارف (عادةً ما كان يحدث ذلك التّشريط على الوجوه بمخالب الطيور)، وتتعقد الأمور، وينمو عدد الرموز اللغوية، ويزداد نشاط العقل؛ وتتقدم الحياة.

ويأتي عصر غيرُ مطير، ويزداد الجفاف، وتهرب بعض العشائر في اتجاه مناقع النيل؛ حيث الماء والخضرة والفرائس والثمار، وكانت هذه العشائر تخشى الاقتراب من النيل؛ حيث تكثُرُ الحيوانات المفترسة المتربصة، فضلاً عن أخبار غامضة حول غيلان مُدمِّرة كأبي الهول ومسوخ الأوثان؛ وهي ذات وجوه بشرية على هياكل حيوانية... وبالرغم من ذلك، تتقدم بعض العشائر إلى مناقع النيل، يحدوها حب البقاء، وتحتاج تلك الجماعات، داخل بيئة النيل كثيفة الأدغال، إلى الأصوات؛ إذ لم تَعُدْ الإشارات والإيماءات تُغْني، وهكذا ابتكرت تلك العشائر بحناجرها نداءات التمايز والتعارف والاستغاثة، وهي -عادةً- من مقطعين مثل: GEP-TO جبْ_تو أو مثل: NE-LO ني لو... وهكذا تقدمت عشائر النّيلو NELO والجيبتو GEPTO لتستقر على شواطئ النيل.

ومع ازدياد التصحـّر والجفاف في السهوب الغربية والشرقية، قَدِمَتْ إلى مناقع النيل عشائرُ جديدة منتخبة انتخابًا طبيعيًا.. واصطدمت العشائر الجديدة بالقديمة، ثم انصهرت تلك

العشائر وتزاوَجَتْ.. وقابل الجميع مشاكل البيئة الجديدة: الأرض والأدغال، الماء، الحيوان، الإنسان... وأدّت هذه المشاكل إلى مزيد من التجمع والتعاون والتفاهم والحروب؛ فزاد نمو اللغة، وزاد نموّ الفكر.

وظهر المنظِّمون والمسيطرون... وظهر رجال السياسة والإدارة والحرب... وظهر متخصِّصون في إشارات القبائل وعلاماتها التي تُشَرّط بها الوجوه، وتُشرّط بها - أيضًا- الرموز التوتمية للعشائر، من سواري جذوع الأشجار، أو الأعمدة الصخرية التي كان يستند إليها الأجداد... ويتحول هؤلاء إلى رجال التوتم، ثم إلى رجال الآلهة التي تقف خلف التوتم، ثم يتحولون أخيرًا إلى "رجال الله" من الكهنة.

والمصري القديم -كغيره من البشر- يرفض الموت والفناء؛ لهذا -لمَّا ارتقى فكره في العصر الحجري الحديث (النيوليتي)- آمن بإله "مطلق خالد خالق" لأن ذلك "المطلق الخالد الخالق" يعطيه حياة أبديّة خالدة؛ لأنه قادر على بعثِهِ في الآخرة.

وتزداد حصيلة المصري من اللغة والفكر؛ فيفكر في المعنويات والجماليات، ينظر إلى سمائه الصافية وقبتها الزرقاء التي تجوبها الشمس من الصباح حتى المساء، ثم تعود من جديد، لتُؤْذِنَ بيومٍ جديد.. وينظر المصري إلى سماء ليلهِ فيجدها لا تقلّ بهاءً؛ إذ هي مرصعة بجواهر النجوم.. وتزدان بقمر منير، يبدأ هلالاً، ثم يكتمل فيصير بدرًا، ثم يعود هلالاً، ثم يختفي ليظهر في دورة جديدة.

ينظر المصري إلى هذا البهاء الذي في "الأعالي" فيؤمن بأن "المطلق الخالد الخالق" لا بد وأن يكون "مجده في الأعالي".. إن لله عرشه في الأعالي، كما أن للمتسلط الأرضي عرشه، وللمتسلط الأرضي حاشية ومعاونون؛ لهذا ينبغي أن يكون للمتسلط "الذي في الأعالي" تاسوعه أو ملائكته، ولا بد لهؤلاء الذين في الأعالي من أن تكون لهم أجنحة.

انتقلت فكرة تاسوع الملائكة والمعاونين من الفكر المصري إلى الفكر السامي... كما انتقلت معها فكرة أجنحة الملائكة والأرباب.

ارتقت مصر بفكرها اللاهوتي الذي غرس في المصري قلبًا آخر، هو الضمير، الذي يدفع الإنسان إلى الخير، والذي يزجره ويؤنبه إذا همَّ بالشر... وبالتدريج نقل المصريون

مبادئهم الأخلاقية والعرفية والقانونية، من كونها مجرد "بنية عليا" أدت إليها "بنية تحتية"، إلى قواعد لاهوتية مقدسة، ثم عادوا فجعلوها نصوصًا مقدسة إلهية كتبها تحوت (إله الحكمة) على الألواح ليلتزم بها كل من عاش على أرض مصر.

ومن خلال ملحمة إيزيس وأوزوريس، صوّر المصري الصراع بين الخير والشر، ولا بد وأن ينتصر الخير في النهاية.. كذلك أبدع المصري من خلال ملحمة "الجبتانا" -التي نقلها إلينا مانيتون السمنودي -مفردات لاهوتية راسخة أخذها اللاهوت العبراني والسامي: انبثاق الآلهة والعالم، اليوم الآخر، الثواب والعقاب، الجنة والنار (البارادويس: معناها الحرفي بيت النعمة، چي هنوم: معناها وادي العذاب = الفردوس وجهنم)، ساتان وأصلها سِتْ في القصة الأوزيرية، ثم نُوِّنَتْ فصارت ساتان، عوزير هو أوزير وهو عوزير إيل؛ أي عزرائيل في الفكر العبراني، آمين، هي نفسها "آمون" المصرية التي أُميلت إلى "آمين"، ونطق بها كل البشر، نيُو المصرية هي المبارك أو المقدس أو النبي، جابار: رسول التاسوع (ربما كان اسمًا وصفيًا لتحوت) هو نفسه "جبرائيل" ملاك الرب. هيلا هيلا.. كانت تُردَّدُ في المزامير المصرية المقدسة (راجع متن الجبتانا)، وكان الأب أبيب مُصِرًّا على أنها هي نفسها "هلّلويا" التي تُختَتَمُ بها بعض المزامير والفقرات في الكتاب المقدس، ميخانوت: يؤكد الأب أبيب أن وضع البادئة "ميخا" في صدر بعض الأسماء المصرية مثل: ميخانوت (شبيهة الآلهة نوت) قد انتقل إلى الساميات في مثل "ميخائيل" (شبيه الله) بل إن لفظة ميخا المصرية (ميخا . ميشا . ميشو) قريبة صوتيًا من "مثيل" العبرانية.

إن تأثر الفكر العبراني السامي بمصر أمر متفق عليه بين جميع المؤرخين، ويشهد به العهد القديم: "... تأثر موسى بكل حكمة المصريين؛ فكان مقتدرًا في الأقوال والأفعال" -آية ٢٢ من الإصحاح ٧ من أعمال الرُسل، ".. فاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وحكمة مصر"- إصحاح ٤ ملوك أول.

وتتراكم اجتهادات الكهنة، وتزداد رغبتهم في توسيع سلطاتهم وتحكّمهم في مصائر الموتى بفرض إتاوات باهظة على أولياء الموتى، ويبالغون في أسعار التوابيت ومواد التحنيط، وتعقّدت المراسم والطقوس الدينية، وزادت أسعار متون التوابيت التي تُنقش داخل التوابيت، وكذلك تماثيل الشوباشي (تماثيل صغيرة في حجم الإبهام توضع كميات كبيرة منها

مع الميت في تابوته؛ لتتضرع إلى التاسوع من أجل الميت، وكلمة شوباشي تعني المـرتِّدين، وهي لا تزال موجودة في العامية المصرية: شُوبَش)، وكذلك الأبواب الوهمية (التـي تـدخل منها الكاوالبا للاتصال بالجسد) والأقنعة التي ترشد الكاوالبا.. ثم ابتكر الكهنة فكرة التماثيـل الشبيهة بالميت، والتي توضع أمامها موائد القربان من أجل روح الميـت... وبـدأت فكـرة الأوقاف من أجل موائد القربان وخدمة قبر الميت وحراسته، واختـلّ النظـام الاقتصـادي الاجتماعي، واضطربت الأمور في مصر، كما كانت مضطربة في كـل مكـان؛ إذ كانـت البشرية كلها تنتظر مُخلّصًا...

وظهرت بشارة المسيح... ودخل الجبتوس (الأقباط أو المصريون) في العقيدة الجديدة التي تفتح أبواب السماء "لأنقياء القلوب" والفقراء، لا لأصحاب التوابيت الفخمـة وأصـحاب السلطان من عشّارين ومكّاسين، وأُعجب المصريون بالكهنة الجدد (الرهبان)؛ فهم يتحـدثون نفس اللغة المصرية، بل إن متونهم المقدسة تُتلى بنفس اللغة (ولا يضيرهم أنها تكتب بحروف يونانية؛ فهم أميون يسمعون ولا يقرأون).

ويجاهد المصريون، منذ القديس أنطوان والقديس بولس ضد بطـش الرومـان، ثـم يجاهدون من جديد لاحتواء الخلاف حول طبيعة السيد المسيح بـين آريـوس وإثناسـيوس، ويستقر الفكر القبطي في النهاية باستقرار فكر مَجْمَع الإسكندرية المقـدس، بـل إن القبطيـة المصرية أثّرت تأثيرًا لا يُنكر في الفكر المسيحي العالمي.

وتنزوي العبادة المصرية القديمة أمام تقدم النصرانية، لكن يظل الجميـع يتحـدثون المصرية.. ويُرَدِّد المصريون متن "الجبتانا" ويقدسونه؛ خوفًا على لغتهم التي كانوا يعتبرونها "توتم" مصريتهم.

ثم يأتي الإسلام.. وتأتي معه اللغة العربية... وتحاول اللغة المصرية المقاومة.. لكن بدخول المصريين في الإسلام، تحتل اللغة الجديدة الساحة، وتنزوي اللغـة المصـرية فـي الكنائس والقداسات وبين العائلات القبطية (حتى العصر الفاطمي).. وظل المصريون الأقباط يرددون "الجبتانا" كمتن مقدس يربطهم باللغة كما يربطهم بالتاريخ.

وحين وصل نابليون إلى مصر، فكَّر في بعث اللغة المصرية (الديموطيقية = القبطية) "حتى تكون مصر جزءًا من عالم البحر المتوسط كفرنسا أو إيطاليا أو اليونان" ولكن فكرة نابليون باءت بالفشل؛ لأن اللغات -كالأديان- تتسللُ إلى عقول الناس وضمائرهم بدوافع مختلفةٍ، منها العادة، والمصلحة، وضغط السلطة والمجتمع...

إن كثرة تعاقب الأديان على المصريين قد علَّمتهم التسامح، وأن هناك طرقًا كثيرة تؤدي إلى الله... كان وزير الملك الناصر الأيوبي مصريًا قبطيًا، كما كان يوسف العبراني وزيرًا لفرعون، ويشهد المؤرخون بأن الأقباط (المسيحيين) كانوا يستعيرون -في أعيادهم- البُسط والشمعدانات من المساجد، وبأن الأقباط (المسلمين) كانوا يستعيرون نفس الأشياء من الكنائس في أعيادهم، وكانت الأديان الثلاثة تنظِّم موكبًا مقدسًا على نيل القاهرة إذا ما تأخر الفيضان، يتقدمه السلطان، ثم الخليفة وقاضي القضاة وشيخ الأزهر وشيوخ الكنيسة المصرية، ثم أحبار اليهود... يأتي بعدهم حَمَلةُ الكتب المقدسة الثلاثة.. وتُرتَّلُ التراتيل وتُقام الصلواتُ باللغات الثلاث.. ويضرع الجميع إلى الله، باسم الأنبياء الثلاثة الغرباء؛ كي يفيض النيل وتزدهر البلاد.

ويُصِر جيمس هنري برستد، وكثيرون من دارسي الحضارات، على أن مصر هي "صانعةُ ضمير العالم المتمدن"، وأن المتون المصرية هي جذر المتون العبرانية والسامية... ومن المقطوع به -بين المؤرخين- أن نصائح المصري الحكيم المعمَّر "بتاحْ حُتِبْ" هي أصل سفر المزامير، كما أن حِكَم "أمين مُوبى" هي أصل سفر الأمثال. وحين ضعفت الدولة العثمانية، وصارت "رجلَ أوربا المريض" حاولَتْ أن تغرس في الأرض المصرية بذور الشقاق بين الأقباط المسلمين والأقباط المسيحيين؛ فأصدرتْ قانونًا صاغه "همايون كبير"، يُضيِّق على الأقباط المسيحيين في بناء الكنائس وتجديدها وإقامة أسوارها وأبراجها ونواقيسها، إلا أن "عُنصري الأمة المصرية" فوَّتوا على الأتراك فرصة زرع الشقاق... بل صار اسم "همايون" والخط الهمايوني مصدرًا للسخرية وإشاعة الفوضى على لسان عامة المصريين.

إن مصر هي التي أدخلت الحياة الأبدية والبعث والخلود إلى الفكر العبراني السامي، فأقدم أسفار العهد القديم يعبِّر عن الأمل في استمرار حياة القبيلة استمرارًا عضويًا بدائيًا، كما

في مملكة النمل أو النحل أو غيرها، دون ما اهتمام بعالم آخر...". وأما أنت (يا إبراهيم) فتمضي إلى آبائك بسلام، وتُدفنُ بشيبة صالحة" (آية ١٥ إصحاح ١٥ تكوين)، "... لأكون إلهًا لك (يا إبراهيم) ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك من بعدك، أرض غربتك" (٧ -٩ إصحاح ١٧ تكوين) ".. أكرم أباك وأمك لتطول أيامك على الأرض" (١٣ إصحاح ٢٠ خروج) "فإن سلَكْتَ في طريقي (يا سليمان) وحفَظْتَ فرائضي ووصاياي، كما سلك داود أبوك فإني أطيل أيامك" (١٤ إصحاح ٣ ملوك أول) "ليس للإنسان مزيّة على البهيمة؛ لأن كليهما باطل، يذهب كلاهما إلى مكان واحد، كان كلاهما من التراب، وإلى التراب يعود" (٢٠ إصحاح ٣ جامعة). "أسْلَمتْ جميعًا إلى الموت... إلى الأرض السفلى مع الهابطين في الجب" (١٤ -١٧ إصحاح ٣١ حزقيال) وواضح أنه لا توجد إشارة لعالم آخر أو لحساب أو جنة ونار.

إن دوام اختلاط العبرانيين بالفكر المصري فتح لهم باب البعث والخلود... ولعل أول إشارة واضحة للبعث والآخرة نجدها في سفر دانيال، وهو متأخر زمنيًا؛ فقد ورد في الإصحاح الثاني عشر: "وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار والازدراء الأبدي" (ونلحظ أنه يستخدم "كثيرون" ولم يستخدم "جميع")... كان العبرانيون أقرب إلى الحياة الوحْشيّة الغريزية، فعبّروا عن استمرار النوع بطريقة مباشرة... أما المصريون -الذين ارتقوا في معراج الحضارة- فقد صاغوا الأمور صياغة أخلاقية مثالية، من خلال الإيمان بالبعث، وتعلم العبرانيّون -بعد ذلك- من المصريين قيمة الإيمان بالبعث والخلود.

ولعل هذه الفقرة من "جوزيف وودْ كِراتْش" في كتابه "الإنسان الحديث ومزاجه" توضّح الأمر "إن كون الإيمان باليوم الآخر مرافقًا للجنس البشري... يثبت أن الرغبة في حياة بعد هذه الحياة رغبة عامة؛ فالرغبة في الخلود هي احتجاج أو اعتراض على قوانين الطبيعة التي لا تُدخِلُ مطالب وغايات الإنسان في حسابها... ففي لحظة ما يتبين للإنسان أن الغاية من وجوده منحصرة في "استمرار النوع"؛ إذ لا غاية من وجوده كفرد... فالخلود - الذي هو أساس الدين -له وظيفة أساسية، وهي أنه صيغة تُمكّن الإنسان وتؤهله أخلاقيًا لحمل فضائل، هي في الأصل غرائز حيوانية، كإيثار الأبناء والتضحية في سبيلهم أو في سبيل الوطن (النحلة تموت دفاعًا عن الخلية التي تنتمي إليها.. أليس هذا استشهادًا في سبيل

الوطن؟!!).. إن ازدياد وعي الإنسان بفرديته وتميزه عن بقية الكائنات هو الذي يجعله يبحث عن دافع أخلاقي يقوم مقام الغريزة التي يكتفي بها الحيوان..".

ويتضح من تحليل "جوزيف وود كِراتْش" أن الشعوب الأقرب إلى البداوة والوحشية تكون أقرب في دوافعها إلى الغرائز الحيوانية المباشرة (استمرار النوع)، أما الشعوب المتمدنة فإنها تؤمن بالبعث والخلود لتربط بهما قيمًا معنوية (كالتضحية للأبناء والوطن) تُحِلُّها مَحَلَّ الغرائز البدائية... وهكذا سَبَقَتْ مصر حضاريًا... وهكذا لَقَّنَتْ العالم الإيمان بالبعث في عالم آخر.

ويَرِدُ سؤال، من وحي الموضوع: هل تختلف الفلسفة الدينية الشرقية عن الفلسفة الدينية الغربية؟ وهل لذلك أثره على الحقل المعرفي (الإبستمولوجي) هنا وهناك؟ وهل لهذا أثره -حاليًا- على التقدم الغربي والتخلف الشرقي؟

ونجيب فنقول: "إن "الإيمان الشرقي" كان حريصًا على "المزج بين الله والعالم"؛ وبالتالي فإن "العالم إلهي"، وإن "حركات الطبيعة إلهية"، وإن رتابة حركات الطبيعة لا يعود لكونها تخضع لقوانين أزليّة، بل يعود لصيرورة الإرادة الإلهية ودوامها... .

وبالتالي، فلا مبرر للسؤال عن العلّة؛ لأن الإجابة معروفة سلفًا، وهي أن "الله قد أراد ذلك"... فإذا فكر العقل الشرقي في السؤال الخالد: "لماذا تسقط التفاحة إلى الأرض"؟ تكون الإجابة: "لأن الله يريد ذلك".

أما العقل الغربي، المرتكز على العقل اليوناني النقدي، فقد حرر الطبيعة وجعلها في أسرِ قوانينها (التي هي وصف لما يقع)... ومن هنا آمن العقل الغربي بالعِلِّيَّة (السبب والنتيجة)؛ ومن هنا آمن العقل الغربي بأن الكون ظاهرة طبيعية تخضع لقوانين يسعى للكشف عنها وترويضها في خدمة الإنسان... ومن هنا كانت إجابة العقل الغربي عن السؤال: لماذا تسقط التفاحة! هو الوصول لقوانين الجاذبية".

ويجيب الأستاذ سلامة موسى في كتابه عن "حرية الفكر" إجابة مشابهة: "الإغريق أول أمة نَزَعَتْ نزعة علمية لسببين: الأول: أنها لم تدمج الله في العالم، فالعالم قديم، بل إن الآلهة عندهم قد يعجزون عن تحقيق ما يريدون (كالبشر)... والثاني أن ديانة الإغريق لم

تتحول إلى شريعة، بل كان هناك –دائمًا– فصل بين الدين والقانون.. ولعل عبارة المسيح "د ما لقيصر لقيصر، وما لله لله" تأثر منه –عليه السلام– وإقرار بالاتجاه الإغريقي الروماني ف الفصل بين الله والعالم".

وبعد:

فإن مصر هي "فجر ضمير العالم" وهي مَعْبَرُ التواصل الفكري والحضاري، و توجد أمة أولى منها بذلك: ففي معابدها صيغت المتون المقدسة الأولى، التي أخذت منه المتون العبرانية والسامية... وإلى أرضها لجأ إبراهيم أبو الأنبياء، ولجأ إليها يعقود والأسباط، ونشأ موسى على شواطئ نيلها، وتربى وتعلم في معابدها، بل من لغتها أخذ اسمه "موسى" (مُسْ أو موسى: تعني "وليد" أو ابن، وتجدها في مثل "تُحوتْمسُ أي وليد أو ابـ تحوت إله الحكمة، أو في مثل رامسيس أي "رع موس" أي ابن الإله "رع")... وإلى مصـ لجأت العائلة المقدسة (العذراء مريم، والطفل يسوع الناصري، ويوسف النجار)... وعاش فيها، ودُفن في ترابها الإمام الشافعي، الذي يتبع مذهبَه قرابة نصف مسلمي العالم... وفيها أيضًا– الأزهر الشريف أهم قلاع الإسلام ومدارسه في العصر الحديث.

علي الألفم

"الجبتانا" وإغفال الآثاريين للكنوز الديموطيقية والقبطية

"الجبتانا" متن يضم "أسفار التكوين المصرية"، جمعه مانيتون السمنودي (٢٧٠ ق.م)، وكُتِبتْ نُسخ منه بالديموطيقية أولاً، ثم بالقبطية بعد ذلك... وكان الأب أبيب النقادي (راهب في كنيسة الريدانية بجوار المنصورة) يحفظ الجبتانا عن ظهر قلب، ويرددها لتلاميذه ومريديه مع ترجمتها إلى العربية.

المؤرخون الكلاسيكيون يذكرون أنّ لمانيتون متنين: "إجبتياكا" وهو تاريخ للأسر والملوك الفراعنة، والثاني "إجبتانا" وهو متن جمعه مانيتون من محفوظات المعابد المصرية عن "أسفار التكوين المصرية"؛ أو ربما كان مدونه شعبية دينية تحكي قصة الشعب المصري.. وكان الراهب أبيب يشبِّه الجبتانا بشاهنامة الفردوسي وبالعهد القديم، وكان الأب أبيب يلحُ على أن العبرانيين قد اقتبسوا الأجزاء الأولى من "الجبتانا" في أسفار موسى وبدايات العهد القديم، ونسجوا تاريخهم الخاص على منوال الأجزاء المتأخرة من "الجبتانا"... والذي بقي مشهورًا من مانيتون هو "إيجبتياكا" (تاريخ الأسر والملوك)؛ وذلك بسبب اعتماد المؤرخين الكلاسيكيين عليه... أما "الجبتانا" (أسفار التكوين المصرية) فقد تناساها الكتَّاب الكلاسيكيون؛ لأنها لا تتحدث عن الأسرات الحاكمة والملوك، والتاريخ القديم تاريخ للحكام والملوك، كما أن السيطرة اليهودية على مكتبة الإسكندرية القديمة، أغفلت الجبتانا عن عمد؛ لإبعاد المتخصصين عن المتن الذي اُقْتُبِستْ منه التوراة...

كان الأب أبيب -رحمه الله- دائم الإشادة بالأستاذ جيمس هِنْرِي برِستد؛ حيث يشاركه الاعتقاد بأن العبرانيين سلبوا الأفكار المصرية ونسبوها لأنبيائهم... كما كان الراهب أبيب دائم التنديد بالأستاذ جون ولسون (أحد تلاميذ برِستد) الذي كان يساند الاتجاهات الخرافية الشعبية لدى الأمريكيين الإنجيليين، والذين يؤمنون بعودة المسيح من أرض الميعاد؛ ومن ثم يساندون اليهود الإسرائيليين ويطمسون كل ما يثبت أو يشير إلى سلب اليهود للفكر المصري، وكذلك الفكر البابلي الآشوري.

قسّم هيجل وماركس وأسايا بيرلِن الحضارة إلى بنية دنيا Infra Structure أي الأساس المادي للحضارة من زراعة وصناعة وأدوات وعلاقات إنتاج... وهذا الأساس

المادي يُفرز بنية عليا Super Structure ثقافية وقانونية ودينية تناسب البنية الدنيا... وكثيرًا ما ردّد الأب أبيب هذا التقسيم مشيرًا إلى أن البنية الدنيا للمجتمع المصري القديم أفرزت البنية العليا من قوانين ودين وثقافة... أما الرعاة العبرانيون -الذين كانوا يترددون على مصر- فإنهم أخذوا منها البنية العليا وبخاصة الدين والقانون، ولمّا لم تكن للعبرانيين بنية دنيا تفرض تلك الشرائع والأديان؛ لهذا لجأ زعماء العبرانيين إلى نسبة الدين والشرائع إلى القوى العلوية، لكي يستطيعوا فرضها على قبائلهم... ولهذا كان اعتقاد العبرانيين "ببدعة الرب الواحد المصرية" اعتقادًا هشًا، سريعًا ما تركوه بعد غياب موسى؛ حيث أعادهم السامري إلى عبادة العجل، باعتبارها عبادة لتوتم الرعاة.

أجاد الأب أبيب لغات كثيرة، منها الديموطيقية والقبطية، وعمل لفترة طويلة في وسط أوربا (غالبًا في مناطق الجبل الأسود والبوسنة والهرسك...) وزار معظم معالم العالم ومتاحفه، وكان يؤكد أن هناك تلالاً من البرديات المصرية (وبخاصة الديموطيقية والقبطية) في كافة متاحف العالم، وبأن معظم هذه البرديات -وخصوصًا القبطية- خضعت للإغفال والتناسي، وبخاصة البرديات التي يُحتمل أن تكشف أن التراث اليهودي كان عبئًا على التراث المصري، وكان ناقلاً للكثير منه.

وهناك مشكلة أخرى؛ وهي صعوبة الرسم وصعوبة الفهم للديموطيقية والقبطية، فمنذ الأسرة السادسة والعشرين (الدولة الحديثة) التي تبدأ بالملك بَسْمَاتيك، ومنذ الملك نِكاوْ رَعْ، بدأ التسلل الإغريقي والحوري (الأوربي أو الشمالي) لمصر... من خلال الجنود المرتزقة الذين استعان بهم نِكاوْ رَعْ... والأسرى والمجلوبين لصناعة السفن وغيرهم... ثم جاءت حملة الإسكندر المقدوني، ثم جاء خلفاؤه من البطالمة، ثم الرومان... وانحطت الحياة في مصر، وبدأت المتون المصرية تُكْتَب بالعامية (الديموطيقية).. ومثلما يحدث في عصور الضعف، مال الكتّاب من الكهنة إلى الصعوبة والإلغاز والإغراب، حتى لا تتسرب كهانتهم وأسرارهم وسحرهم وطبِّهم إلى الغرباء.

روى الأب أبيب أنه عاني في فهم أحد المتون (عُثر عليه في جرّة في خرابات بني حسن في أوائل الأربعينيات).. وفجأة انحلت طلاسم المتن؛ حيث إن الكاتب القديم تعمّد أن يضع مكان الحرف الأول من كل كلمة حرف السين (أو السيجما)، ثم يأتي بكلمة زائدة بعد

الكلمة الأصلية التي بدأت بالسين، ويكون الحرف الأول من الكلمة الزائدة هو نفسه الحرف الذي حلّت محله السين...

ومثّل لنا الأب أبيب بعبارة تقول: "أنتَ لستَ كاهنًا يخدم آمون رع، أنت كاهن ناووس" (ربما كانت كاهن الناووس تعني الدّجال) كُتِبَتْ هذه العبارة بهذه الصورة:

"سَنْت (أرنب) سِنت (لبن) ساهنا (كمون) سخدم (ينسون) سامون رع (أوز) سِنت (أرنب) ساهن (كمون) ساووس (نبق)..." هل هذه هي لغة السيم أو السين؟؟! ربما... إذ كان الأب أبيب يعتقد ذلك.

أمام مثل هذه الصعوبات، فضلاً عن الإغفال المتعمد، لم يكد يترجم عن الديموطيقية والقبطية شيء... بالرغم من أكداس البرديات التي تملأ متاحف العالم.

يقول الأستاذ سليم حسن في طبعة كتابه عن الحضارة المصرية في الخمسينيات: "مرَت مائة سنة على طبع أول بردية إغريقية (وُجِدت في مصر)، وانتظرنا حتى عام ١٩٤١ حتى تُرْجِمَت بعض البرديات الديموطيقية والقبطية، ولا تزال في المتحف البريطاني ومتحف فيلادلفيا، وغيرهما، برديات ديموطيقية وقبطية كثيرة لم تُقْرَأ... ونحن لا ننكر جهود بِرْكش، جرافْت ريخ، سبيبلبرج، وهربرت طومسون في محاولة الترجمة عن الديموطيقية والقبطية... ولعل أول مؤلَّف علمي يحوي متونًا مترجمة عن الديموطيقية والقبطية هو مؤلَّف العالم الإنجليزي "جلانفيل"... ولكن هذه الجهود قطرة من بحر ما تحتويه البرديات الديموطيقية والقبطية من كنوز مصرية، شاعت بين عامة المصريين والكهنة المتأخرين".

كان الأب أبيب يؤمن بإنسانية الأديان، وكان يبرهن على ذلك بأنها جميعًا أقرّت الرّق (لاعتبارات اقتصادية)... وبأنها ردت الكثرة في الكون إلى سبب وحيد، هو نفسه في حاجة إلى التعليل... كذلك كان يردد أن الشيعة والخوارج هم البروتستانت المسلمون (ومعهم المعتزلة).. وكان يؤكد على أن فلاسفة الإغريق يرون العالم قديمًا، أقدم من الآلهة؛ لهذا لم يحدث أي اهتمام إغريقي بالفكر العبراني... وعلى العكس اعتبر الإغريق مصر مدرسة العالم واعتبروا أنفسهم ورثة الحضارة المصرية...

كان الراهب أبيب معتزًا بالجبتانا، يقدِّمها إلى محبي التراث المصري والإنساني، وللذين يريدون أن يفهموا -فهمًا علميًا- حقيقة المتون الدينية؛ كذلك كان دائم الإشارة إلى تلك الموازنات التي قام بها جيمس هِنري بـرِستَد بين المتون المصرية وبين نصوص العهد القديم، ليثبت الأب أبيب (كما أثبت بـرِستَد وجلانفيل من قبل) أن المتون المقدسة السامية استقت معظم إلهامها من المتون المصرية... حتى أن المتون السامية استخدمت نفس الكلمة المصرية القديمة التي تعني المتن أو النص المقدس وهي "سُوَرتا" مع تطويعها للسان السامي في "سيفِـر" و"سِفْر" و"سورة" و"سوَارا" كما هو واضح في المتون العبرانية والعربية والآرامية... وأساتذة فقه اللغة يعرفون قاعدة التبادل بين الفاء والڤي والواو ("دَبِـلْ يُـو" الإنجليزية هي "دُبْل ڤي" الفرنسية) (لويس عوض في "مقدمة في فقه اللغة العربية").

ويشير ألبـرت شْوايتـسْزَر في تقديمه للطبعة الإنجليزية من "فلسفة الحضارة" (كما يشير آخرون من ثقاة المؤرخين) إلى الدور الهام الذي لعبته مصر بفلسفتها ومتونها الدينية والأخلاقية في تقدُّم سلطة الضمير والأخلاق في ثقافات العالم القديم، ويشير إلى أن: "حُب الإنسان للسلطة والسيطرة أمر غريزي طبيعي، ولكن التقدُّم المصري الديني والأخلاقي وتأثيراته العميقة في الفكر العبراني والسامي ألْجَمَ منطق القوّة، وأقام التوازن المطلوب بين القوّة والأخلاق".

ومن الغريب ألا يلتفت أحد إلى ما ذكره المقدسي في "مروج الذهب ومعادن الجوهر" (القسم الخاص بالتاريخ القديم) من شيوع متون بين الأقباط (سكان مصر مسيحيون ومسلمون) تتحدث عن تاريخ مصر القديم وعن معابدها وآثارها وأديانها وكتبها المقدسة (٢٨٧ هـ - ٩٠٠ م).

قضى الأب أبيب عمره كله حريصًا ومدافعًا عن الجبتانا... باعتبارها خلاصة الحضارة المصرية في بنيتها العليا... وكان دائم الشعور بأن هناك من يحاربون انتشار متن الجبتانا؛ حرصًا على بريق المتون العبرانية والسامية التي يؤمن بها معظم البشر... والجبتانا تحوي تفاصيل أدقّ في التاريخ المصري القديم لم يتطرَّق إليها بلوتارخ أو غيره من المؤرخين الكلاسيكيين.

ومن العبارات الكاشفة التي كان يرددها الأستاذ سلامة موسى: "إن ضـــعفنا الحـــالي يؤدي إلى ضياع كنوزنا الفكرية... فالأمم -كالأفراد -تعجز -في حالة ضعفها -عن إزالــ الصدأ عن جواهرها فإن أزالته فقد تعجز عن تقديمه للآخرين الذين يصيبهم التفوق بالغطرسة والاستعلاء".

إن التنقيب في تلال البرديات الديموطيقية والقبطية في متاحف العــالم يــؤدي إلــى الكشف عن كنوز مصرية مذهلة... ولعل الكشف عُن هذه الكنوز (ومنها الجبتانا) يعيــد لنــا ثقتنا بأنفسنا، ويجعلنا نؤمن بأن هذه الأمة تستحق حياةً أفضل وحرية حقيقية فتستقيم الأمور.

علي الألفي

سفر "رؤيا مانيتون السمنودي

الإصحاح الأول

أنا مانيتون السمنودي. لا أعرف عن طفولتي إلا ما سمعته من معلمي وأبي بالروح كاهن معبد مدينة منديس[1].. قصّ ذلك الكاهن الأب عليَّ قصة طفولتي فقال: "سلّمك لي -وأنت في الخامسة من عمرك- فلاح من منطقة البحيرات الشمالية في أرض النحلة. وكانت تبدو عليك ملامح الذكاء والنجابة. ولمّا سألْنا ذلك الفلاح عنك. روى لنا أن الإله حورس زاره وسلّمك له. وأوصاه أن يرعاك حتى الخامسة. ثم يُسلّمك لنا في المعبد... أصبحْتَ -يا مانيتون- ابنًا لي بالروح. وعلّمتك القراءة والكتابة بعدة لغات. كما علّمتك -وأنت تعرف- الكهانة والطبّ والسحر...

عرفْتُ أنك ابنٌ من أبناء الآلهة.. كنتُ -أحيانًا- أصحو من نومي على أصوات وترنيمات تأتيني من حجرتك. واكتشفت أن حورس وإيزيس وأوزوريس ورع وآمون وبقية التاسوع المقدس. كانوا يزورونك. ويضعون في قلبك الأسرار المقدسة. والأسماء السحرية التي تجعلك قادرًا على تجاوز عالمنا إلى عالم الآلهة... ولمّا بدأ لسانك ينطق بالأسرار. خِفْتُ عليك. فأرسلْتُكَ إلى معبد الأسوار السبعة. معبد سمنود التي هي سبيتيتوس في لغة الإغريق".

عشت -أنا مانيتون- في معبد سمنود ذي الأسوار السبعة. وتعلّمت وعلّمت. وأتقنت لغاتٍ كثيرة. وعرفتُ جميع الآلهة. وقرأت جميع الألواح المرسلة من الآلهة.. صِرْتُ كاهنًا وأنا ابن ثماني عشرة. وكاهنًا أكبر وأنا ابن ثمانٍ وعشرين.. لم أذق سمكًا في حياتي ولا لحم خنزير.. كما أنني ولدت مختونًا بلا غُرْلة.. عشتُ زمن الإسكندر الكبير وفي زمن خلفائه من المقدونيين المسمَّيْن بالبطالمة... تعلمتُ وعلمْتُ في معبد الإسكندرية وجامعتها ومكتبتها... أتقنت كل الخطوط المصرية. كما أتقنت الإغريقية والفينيقية والعبرية والآرامية والسريانية... طوّفت على مراكز الآلهة في العالم: زرت معابد الإغريق. ومعابد العبريين. والأدوميين. ومعابد فينيقيا وببلوس وهاران... اطّلعْتُ على كتابات وألواح الكثير من الشعوب. وعلى كافة المتون التي أرسَلْتها الآلهة.. وجمعتُ -أنا وتلاميذي- كل المتون المصرية. وكل ما كتبته الآلهة المصرية بأصابعها على الأحجار المقدسة والجدران

والتوابيت… وهأنذا أعيش أيامي الأخيرة ما بين الإسكندرية وجامعتها ومكتبتها ومعبدها، وبين سمنود ومعبدها الهادئ؛ ذي الأسوار السبعة.

كتبتُ بأمر من الملوك البطالمة تلخيصًا كاملاً لحكام مصر وآلهتها وأسراتها، منذ عَحَا المحارب والملقّب أيضًا بنَعَرْمَر… حتى وصل الإسكندر… إن تلك القوائم للآلهة والملوك المصريين العظام التي لخصْتُها، قد انتشرت من الإسكندرية [٢] وهليوبوليس وطيبا، فصارت توجد نسخ منها في هاران وببلوس وفينيقيا ومعابد الأدوميين والعبريين والفلسطينيين…

الإصحاح الثاني

زرتُ جميع معابد الجنوب: زرتُ معبد "طيبا"، و"طينا"، و"الفونتين"، و"ميتيت"، و"الكرنك"، و"هيراكونبوليس"، و"أبيدوس" و"بانوبوليس" وغيرها.. اشتركْتُ مع كهنة طيبة في وضع القوائم الشهيرة لملوك الأرضين [٣] الذين حكموا أرض الآلهة [٤] بعد أن كانت الآلهة تحكم بنفسها أرض مصر، ثم ترك الآلهة الأرض ورحلوا إلى السماء.. حيث استقل الآلهة بحكم السماء، واستقل أبناء الآلهة بحكم الأرض.

وسلسلة أبناء الآلهة تبدأ عندنا بإيزيس وأوزوريس وحورس، ثم تبدأ سلسلة أبناءُ أبناءِ الآلهة بالملك الإله عحا المحارب [٥] الذي هو نَعَرمَر.. والملوك المصريون (آلهة - وأبناء آلهة - وأبناء أبناء آلهة) ثلاثمائة وأربعون ملكًا، سيطروا على ثلاثمائة وواحد وأربعين جيلاً من الناس، وبما أن كل ثلاثة أجيال تكوّن قرنًا من الزمان؛ إذن فالتاريخ المصري كله (آلهة - وأبناء آلهة - وأبناء أبناء آلهة) يبلغ أحد عشر ألف عام وثلاثمائة وأربعين عامًا [*]... وأول ملك (من أبناء أبناء الآلهة) وهو عحا المحارب أو نَعَرمَرْ يعود تاريخه إلى سنة أربعة آلاف قبل الإسكندر[٦]، وقبل ذلك كان حكم أبناء الآلهة، وحكم الآلهة.

هذا المختصر لحكام مصر، وُضِعَتْ منه نسخ في جامعة الإسكندرية وفي معبدها وفي الأروقة الملحقة بعمود بومبي [٧]؛ حيث يتم التكريس للإله سيرابيس المصري الإغريقي الذي يُعبَدُ وتُقدَّم له القرابين والطقوس الآن في كاتاكوم[٨]...

هذا المختصر معروف بلسان الإغريق باسم إجيبتياكا [٩] وقد ضمّنْتُه رسالة بأنواع الأخشاب، والعطور المقدَّسة، والبخور، واللبان والمرّ التي تُقدَّم للمعابد في مصر، ورسالة أخرى عن الأحجار والمعادن والأسلحة والمكتشفات..

الإصحاح الثالث

قضيتُ -أنا مانيتون السمنودي- عبد الإله أوزيريس في العام الأول من حكم ثاني البطالمة ضيفًا على معبد سيرابيس القريب من عمود بومبي.. وبعد قدّاس المساء، وصلاة أول الليل، دعاني المقربون من أتباع الملك، والمبجلون من كهنة المعبد إلى وليمة القرابين المقدسة، وشربنا -مع الوليمة- أباريق من نبيذ البلح والعنب، مقدّمة إلى المعبد سكائب قربان [١٠] وما إن وضعتُ رأسي على الوسادة، في حجرة نوم كبير الكهنة -والتي تركها لي حيث سافر إلى عين شمس- حتى انتبهت من نومي مذعورًا.. أيقظني الإله حورس في هيئة الصقر، مستخدمًا أجنحته المصوغة من الذهب والياقوت والزُّمُرّد، وكانت ترافقه الأم الإلهة إيزيس التي كانت تلبس رداءً أرجوانيًا أبهى من زنابق الحقول ومن زهور اللوتس، وابتسمتْ لي الربة الإلهة وربّتَتْ على كتفي، كذلك ابتسم لي الإله أوزير وطمأنني بأنه لم يأتِ ليأخذني معه إلى الغرب.. وقدّم لي "جَبَّار" أحد معاوني "رع" رب الأرباب؛ الذي يسميه الكنعانيون والأدوميون "لا"، والذي تسميه القبائل العبرانية والسامية "الوهيم"..

اختفى الثالوث المقدس، وحملني "جبار" على ظهره الذي يشبه ظهر الحصان، وطار بي، مستخدمًا أجنحته الذهبية صاعدًا إلى السماء.. وتوقف جبار عند الجميزتين السماويتين المقدستين، اللتين تقفان شامختين عند مدخل طريق النور المؤدي إلى العرش السماوي، وخلع "جبار" أجنحته الذهبية وركّبها في كَتِفَيَّ، وأشار لي أن أواصل الطريق إلى عرش رب الأرباب، وفهمتُ منه أنه لا يستطيع تجاوز الجميزتين المقدستين وإلا احترق...

وجدتني أطير بأجنحة جبار دون إرادة مني، واقتربتُ من قدس الأقداس، فُفتِحَتْ الأبواب النحاسية السبعة بابًا بعد باب، ثم فُتِحَتْ الأبواب الذهبية، وأخيرًا فُتِحَ الباب الزمردي الذي يقع خلفه سر الأسرار؛ فإذا عرش عظيم مصنوع من النور والياقوت والعقيق، وتفيض عنه، بين لحظة وأخرى أضواءٌ وألوان تشبه قوس المطر، فيضاء قدس الأقداس وعرش الجالس على الكروبيم... وكلما أشرقت الأنوار وكلما فاض عن كل بِنْبِنْ BenBen أضواؤه وأنواره، يظهر الجالس على عرش الكون وكأنه الذهب ممزوجًا بالياقوت واليشب والزبرجد... ساعتئذٍ لم تجد عيناي

ـقدرة على النظر إلى الجالس على العرش؛ ووجـدتني سـاجدًا أمـام عـرش سيد
لأكوان.

حول العرش العظيم، رأيت تاسوع الأرباب والملائكة متسربلين بثياب بيض
ـلسون على عروش صغيرة تكوّن دائرة حول العرش العظيم، ويردّد تاسوع الأرباب
الملائكة رافعين أياديهم إلى رب الأرباب: المجد لرع رب الأربـاب، والـذي كـان أتـوم أول
لخلق والآلهة، والذي صار آتون وآمون، والذي تحوّل إلى توت، والأب بـالروح لأوزيـريس
حورس وإيزيس... المجد لرع الـذي سـمـح لـنـا بـأن نكـون معـه في الأعـالي... والـذي
لكلمة -التي هي ذاته- خلق نفسـه بنفسـه، وخلـق كـل الأشـياء والموجـودات
لدبّابات.

أمام عرش رع وعروش الأرباب والملائكة الذين يكوّنون التاسـوع، رأيـت سـبـ
ـموس "تتلألأ أنوارها تنطق وتسبح بعظمة رع... في كل زاوية مـن الزوايـا الأربـ
ـحيطة بقدس الأقداس يقف حيوان ضخم في حجم جبل مهـول: فبـدت هـذه
ـحيوانات محيطة بالمكان، حتى أن عينيّ عجزتا عن الإحاطـة التامـة بـأجرام تلك
ـحيوانات... لكن بدا لي الحيوان الأول كأنه أسد عملاق... في وجهه عيون كثيرة تبرق
ـلمع، والحيوان الثاني في شكل قريب من فرس النهر، والحيوان الثالث هو أبو الهول
ـسمه الحيواني ووجهه الإنساني وتلمع في وجهه أعـداد مـن العيـون لا تُحصـى
لحيوان الرابع هو نسر الكروبيم المجنّح.

في وجوه تلك الحيوانات عيون كثيرة تبرق وتلمع، ومـن أفـواه تلـك الحيوانات
ـردّدُ تمجيدات وترنيمات لرع قائلة: "قُـدُّوسٌ قُـدُّوسٌ قُـدُّوسٌ... قُـدُّوسٌ هـو الرب
لإله الأزلي القادر على كل شيء... قُدُّوسٌ هو الرب الإله ذو الصيرورة الدائمة منذ
لأزل وإلى الأبد.. قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ هو الرب الإله الذي خلق نفسـه بنفسـه، منـذ أ
ـان هو أتوم الذي خرج من البيضة الطافية على سطح المياه الأزلية "نون"، ومنه
ـان "تشو" و"تفنوت" اللذان أنجبا "نـوت" سـيدة السـماء، و"جـب" "جسـد الأرض
ـسجد الأرباب وملائكة التاسوع ويطرحون أكاليلهم ويقولون لرع: "لـك المجـد في
لأعالي لأنك تستحق المجد، فأنت القدرة التي تقف خلف كل ما كان: وما هو كائن
ما سوف يكون".

الإصحاح الرابع

فجأة صَدَرَ صوتٌ عميق عن صاحب العرش الأعظم.. وكأنّ السموات والأرضين تردّد ذلك الصوت القدسي وسمعتُ -وسمع معي كل من في الأرض والسماء -صوت قُدّوسِ الكون يهتف بي: "أي مانيتون.. أيها الكاهن العارف بالأسرار.. أيها الكاتب الذي يكتب بكل لسان.. شاءت إرادتي أن يكون هناك في الأرض نهر عظيم، هو حابي أو النيل.. وحول ذلك النهر ينمو شعب عظيم، هم الجبتيون أبناء جبتو مِصْرايِم.. والجبتيون هم أقرب الشعوب إليّ [11]. كما أنهم أقرب إلى الدماء الإلهية؛ ولهذا طرحوا عنهم حياة الغاب والحيوان وصاروا يقودون جنس البشر في مضمار الحضارة.. إن أرض مصر هي أرض الآلهة، فقد عشنا -نحن التاسوع المقدس- على أرض مصر؛ حين كانت جنّة التاسوع جنّةً أرضيّة..

أي مانيتون: إن آثار الآلهة قد اندثرت.. كذلك فإن الكثير من آثار وكتابات الأقدمين قد عفّى عليها الزمان.. لقد فُتِحت القبور ونُهِبت وطُمِست مسلات كثيرة، ومعابد عظيمة دُمِّرتْ وسُوِّيتْ بالأرض ومُحِيت الكُتب والبرديات.. بل إن كثيرين من الهمج الذين احتلوا مصر قد سرقوا الأهرامات والقبور ونهبوا كنوزها، وأكلوا مياواتها، بزعم أن أكل الجثث المحنطة يطيل العمر أو لعلّه يَهَبُ الخلود.. وبعض مَنْ احتلوا مصر أذابوا البرديات وشربوها كأدوية شافية من الأمراض والسحر.. لهذا اخترتك يا مانيتون وأكلّفك أن تكتب الجبتانا.. إنك -يا مانيتون- مُكَلَّفٌ من قِبَلِي أن تكتب الجبتانا؛ بحيث تدوّن فيها كل أسفار التكوين المصرية.

الإصحاح الخامس

عُدْتُ -أنا مانيتون- من الرؤيا... ولكن ظلّت تلك الرؤيا بقلبي... وتأكد اعتقادي بأن ما يقوله الإغريق عنا -نحن المصريين- حق... فنحن عند الإغريق مدرسة العالم ومعبده ومنشأ القيم والضمير[11]... صحوت من نومي... وعجبت إذ رأيت بجواري على الفراش مجموعةً من الرّيشات المشذّبة المُعدّة للكتابة، ووعائين: أحدهما للمداد الأسود والآخر للمداد الأحمر، وعدة إضمامات من البردي... وتذكّرت أن "رع" في آخر "الرؤيا" كلّف أحد معاونيه من التاسوع بأن يعطيني الأدوات الكافية لكتابة "الجبتانا" [12].

رجعْتُ -أنا مانيتون- إلى معبدي الهادئ، ذي الأسوار السبعة، معبد "سبينيتوس" في لغة الإغريق، والتي هي "سمنود" في لغتنا المصرية، ونَظّمْتُ ورتّبْتُ ما تجمع لديّ من قطع الأستراكا [14] ومن برديات نَسخْتُ فيها أوراقًا كثيرة من متون الأهرام ومتون التوابيت، ومن برديات سجّل فيها تلاميذي نماذج مختلفة من كتاب الموتى (كتاب المتجهين للغرب) وبرديات تحكي حكمًا موروثة وبعض سجلات المعابد القديمة، ومتون العقائد الموروثة، وأسفار الآلهة، والألواح القديمة المسجّل عليها شرائع شعوب غابرة.

بدأت كتابة "الجبتانا" ملتزمًا بتوجيهات رع، ومسجلاً أسفار "التكوين المصرية" باللغة المصرية، بخطوطها الثلاثة الشائعة بعد الإسكندر: الخط الهيراطيقي، والديموطيقي، والجبتي مع عدّة نسخ بالإغريقية.

كتبت أسفار التكوين المصرية "الجبتانا" وكلّفْت تلاميذي في معبد سمنود كتابةُ عدّة نسخ، بعضها سنرسله إلى هليوبوليس، وإلى معبد الإله سيرابيس في الإسكندرية، وإلى معبد مدينة اللّه الأولى في طيبة، وإلى معابد "ببلوس" و"فينيقيا" و"مجدو" و"بائيروت" و"أورشاليم" و"هاران"...

أنا -مانيتون- أقرّر بأن "الجبتانا" هي التاريخ الحقيقي للسلالة المصرية آلهةً وأبناءَ آلهةٍ وملوكًا... ابتداءً من بدء التكوين وظهور "أتُم" أول الآلهة... وانتهاء بالملك عحا المحارب نَعَرْمَرْ، ومرورًا بالتوحيد الأول للأرضين على يد

أ

أوزيريس الناسوتي، الذي تحوّل بعد أن فداه حورس بعينه إلى أوزيريس اللاهوتي باعث الخضرة في مصر والمشرف على طريق الراحلين إلى الغرب.

انتهيت اليوم، الحادي عشر من توت، من السنة الثالثة من حكم ثاني خلفاء الإسكندر من كتابة "الجبتانا" أسفار التكوين المصرية.. في ثلاث عشرة إضمامة من بردي أرض النحلة، وثلاثين إضمامة من بردي تانيس.

هوامش سِفْر "رؤيا مانيتون السمنودي"

"هامش عام"

- بن بِن (Ben Ben) كلمة مصرية قديمة تشير إلى قمم الأهرامات والمسلات (لعلّها كانت تصاغ من الذهب) حيث كانت تنعكس عليها أشعة رع.. والبن بن جذر الشكل الهرمي، ولعل "البن بن" أساس توتمي مقدّس لدى المصريين في العصر الباليوليتي (الحجري القديم).
- نصوص التلمود والعهدين القديم والجديد تعيد بداية العالم إلى نفس التاريخ المصري؟؟!!!
- التاسوع المصري والتسعة عشر المصرية (أيضًا) انتشرت في الفكر السامي كله.
- التصويرات الإسلامية للبراق الذي حمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء مأخوذة عن الشرّاح للعهدين القديم والجديد، وبخاصة شرّاح سِفر "رؤيا يوحنا اللاهوتي" ويكثر لدى الشرّاح المسلمين اعتبار هذه التصويرات من "الإسرائيليات"... وسِفْر "رؤيا مانيتون السمنودي" يكاد يكون الأصل الميثولوجي لكل هذه التصويرات، وكذلك يوجد صدى للجميزتين السماويتين (في الجبتانا) في "رؤيا يوحنا" وفي حديث القرآن الكريم عن "سدرة المنتهى"، والسدرة شجرة النبق وهي شجرة صحراوية، والجميزة شجرة مصرية عريقة؛ احتفظت اللغة العربية باسمها المصري، الذي لا يزال عالقًا ببعض أسماء القرى مثل: الجميزة. جميزة بلجاي.

١- منديس: من مدن شرق الدلتا في العصور القديمة.. لعلها بهبيت الحجارة... عاش فيها مانيتون لفترة من الوقت.

٢- مانيتون السمنودي (نسبة إلى سمنود سبينيتوس) أخذ عنه المؤرخون الذين جاءوا بعد مثل: يوسيفوس، وهيرودوتس، وأفريكانوس وبلوتارخ... ويتردد اسمه في الوثائق المصرية، كان يعيش زمن الإسكندر والبطالمة، وُلِدَ حوالي ٢٧٠ ق.م.

٣- الأرضان: أرض الشمال وأرض الجنوب... والأرضان ترد كتسمية لأرض مصر.

٤- أرض الآلهة: مصر هي أرض الآلهة في أدبيات المصريين وغير المصريين -راجع: سليم حسن: مصر القديمة- عدة أجزاء، فوستي دي كولنج "مصر في العصر العتيق"، جيمس هنري برستد "فجر الضمير"، جون ولسون "الحضارة المصرية".

٥- عحا المحارب: لعله هو نفسه مينا العقرب أول ملوك الأسرة الثينيـــة الأولى.

٦- راجع: سليم حسن، جيمس هنري، جون ولسون... وكذلك نجيب ميخائيـــل: "مصـ والشرق الأدنى في العصور القديمة" عدة أجزاء ـ دار المعارف.

٧- عمود بومبي، هو عمود السواري، أحد معالم الإسكندرية الهيلينستية.. حيث كان مـ الإله سيرابيس الذي يجمع بين صفات آلهة مصر وآلهة اليونان. راجع سليم حسن.

٨- كاتاكوم: حُرِّفت في العامية العربية إلى كوم الشقافة... وهي بقايا معبد قديم.

٩- AEGYPTIACA راجع معاجم الحضارة المصرية، وكذلك جون ولسون بترجمـ أحمد فخري.

١٠- القرابين والولائم المقدسة، واشتراك الكهنة في الأكل من القرابين سمة بارزة في كـ الأديان القديمة.. وكذلك السكائب: جمع "سكيبة"؛ وهي كمية من الخمـــر تُـسْكَـــ كتضحية على مائدة أو مذبح القربان.

١١- تحاول كل أمة أن تنسب لنفسها خصوصية شعب الله المختار... والمصريون أول مـ فعل ذلك.

١٢- فجر الضمير = يُصِرُّ جيمس هنري برستد على أن مصر هي صانعة فجـــر ضـــمـ البشر، بل يومئ جيمس هنري إلى أن الأديان كلها -خصوصًا أديان السامية- تأثر بمصر.

١٣- الملائكة كمعاونين لله، فكرة مصرية قديمة، وهي تثبت المقولة الأنثروبولوجيـــة: "إ إله كل أمة صورة من حاكمها"، وبما أن للملك معاونين، فكذلك الملائكة مع الله.

١٤- الأستراكا ــ قطع من الفخار تُـــسجَّـــل عليها بعض الكتابات.

(*) تاريخ مصر هو تاريخ العالم عند مانيتون، والذي يعود إلى أحد عشر ألف عام وثلاثة وأربعين عامًا، والغريب أن شُـــرَّاح التلمود والكتاب المقدس يذكرون رقمًا مقاربًا (وكـــذا شُـــرَّاح المشنا).

سِفْر "انبثاق الآلهة والعالم"

الإصحاح الأول

في البدء لم يكن إلا ماءٌ وضباب... ولم تكن حياة... ولم تكن نباتات ولا ديابات... طبقتان متلاصقتان من المياه، بينهما فاصل فضي من النور... الجزء الأسفل من المياه هو "نون" المحيط الأزلي.. مياهٌ وضبابٌ وظلمة؛ فالشمس لم تكن قد تكوّنت بعد.

على سطح المحيط الأزلي "نون"، طفت بيضة ذهبية، في حجم ألف بيضة من بيض النعام، ثم حدث انفجارٌ هزّ الكون كله... وانفجرت معه تلك البيضة التي طفت على سطح "نون"... وخرج "أتوم" أول الآلهة، من تلك البيضة، ودفع الطبقة العليا فارتفعت، وانفتقت عن الطبقة السفلى التي هي البحار...

كانت الظلمة لا تزال مسيطرة. فعطس أتوم قائلاً: "تشو"؛ فظهر الربُّ "تشو" (*) رب الفضاء، وتفل (بصق) أتوم؛ فكانت "تفنوت" ربة الندى... إذن كان أتوم هو الكلمة.. وكان أتوم هو الخالق، بإرادته خلق نفسه بنفسه... وبالكلمة "تشو" خلق "تشو" رب الفضاء، وبالكلمة "تِف نوت" خلق "تفنوت" ربة الندى.

ظلّ "أتوم" في الظلمة يراقب "تشو" و"تفنوت"، ثم بدا لأتوم القادر على الخلق بالكلمة أن يزوّج "تفنوت" "لتشو"... فقال: ليكن زواج بين الاثنين؛ فتزوجا، وحملت تفنوت ألف عام، ثم أنجبت ابنتها "نوت" سيدةُ السماء، وابنها "جب" الذي هو جسد الأرض.

وأُعجب "أتوم" بقدرته على التزويج، وجعل المتزوجين يتَنْسلُون... وأمر "أتوم" "نوت" سيدة السماء أن ترفع السماء بعيدًا عن سطح نون... ولمّا رأى أتوم زرقة السماء وقتامَتها، حيث لم يكن ليل ولا نهار.. قال لنوت: "عليك -أيتها الربّة- أن تزيّني السماء؛ فتجعلي فيها مصابيح بالليل ونورًا في النهار"؛ فاستجابت نوت لكلمات أتوم، فكان صباح، وكان مساء (**)... ولكي يكون صباح صَنَعَتْ نوت قرصًا كبيرًا من ذهب؛ لينير النهار، وقرصًا أصغر من الفضة تعاونه مصابيح صغيرة؛ لإنارة الليل... وفجأة تحرَّك قرص النهار الذهبي وصارت له الكلمة فقال: "أنا رع رب الأرباب.. صارت لي الكلمة، ولم تعد الكلمة لأتوم..." وفي الليل اهتزَّ

الفرص الفضي. ونطق بالكلمة قائلاً: "لم أعد مجرّد مصباح بل أنا "خنصو" إله القمر الشجاع المقامر".

صارت الكلمة إذن لرع... وتوارى أتوم... وظهرت قدرة رع الخالقة: كان جب جسد الأرض. متواريًا أسفل محيط المياه نون: فأمر رع جب أن يظهر للوجود. فتلوّى جب بحركاتٍ اهتزّ لها الكون. وكانت انفجارات ونيران وزلازل. وساعده رع حيث اقترب من جب وأمده بنار... فارتفعت أجزاء على سطح جب: فكانت القارات وانخفضت أجزاء: فكانت البحار والمحيطات.

ولما تأمّل رع كلَّ ذلك. وجده حسنًا: أرضٌ تحوي جبالاً ومرتفعات وبحارًا ووديانًا وسماءٌ تزيّنها شمس بالنهار. وقمرٌ ونجوم بالليل... وفكّر رع قائلاً: "وماذا بعد؟! إنني محتاج "للحكمة". ولمّا كانت كلمات رع كلماتٍ خالقة وُجِد "تحوت" إله الحكمة.

الإصحاح الثاني

قال رع لتحوت إله الحكمة: "إن منظر السماء صار جميلاً بالنهار وبالليل. وإن البحر جميل" بحركته واضطراب أمواجه.. لكن منظر الأرض الجدباء لا يَسُرُّنِي. أين حكمتك يا تحوت؟!" فقال تحوت: "أي رع ربَّ الأرباب، بما أنك فوّضتني بالكلمة... وبما أن الأرباب تَخْلِقُ بالكلمة... فلتكن "حتحور" ربَّة للأنوثة. وليكن أبيس ربًّا للذكورة. وليكن ذكر وأنثى في كل شيء... نباتات تنبت من جسد الأرض، ذكر وأنثى. وأسماك في البحر، ذكر وأنثى. ودبابات على الأرض، ذكر وأنثى. وطيور في السماء، ذكر وأنثى.

وظل رع والآلهة يستمتعون بجنات الأرض، ويتأملون مياهَها ووديانَها وأنهارَها ونباتَها وحيوانَها... كل شيء أرضي يموت ويتجدَّد بالميلاد: النبات والأسماك والطير والحيوان... وكل شيء إلهي لا يموت، كل شيء إلهي خالد؛ ولهذا لا يتجدد الآلهة بالميلاد، بل يوجدون بالانبثاق. فالآلهة: كل واحدٍ منهم أول؛ إذ لم يكن قبله شيء، ولن يكون بعد الآلهة شيء.

عاش رع وتاسوع الآلهة في الأرضين، أرض جبتانا. وذات مرة رأى رع أسدًا ولبؤة يتناسلان، ثم تلد اللبؤة أشبالاً صغيرة... فقرَّر رع أن يجعل الآلهة ذكورًا وإناثًا يتزاوجون... وعرض رع إرادته على تاسوع الآلهة... ولكن التاسوع السماوي رفض إرادة رع؛ خوفًا من تحوّل الآلهة إلى كائنات تلد وتموت...

استاء رع من رفض إرادته... وقال في نفسه: "كيف أكونُ ربَّ الأرباب وتُرْفَضُ إرادتي؟!"... وفكر رع في خلق ربة جميلة على صورة أنثى. وأطلق رع كلمة الخلق، فظهرت "قمَّة الغرب"، عروسًا سماوية جميلة تعشقها عيون الآلهة وقلوبهم.

كان رع قد سلب معظم القدرة الإلهية من "أتوم" أول من انبثق من الآلهة... وبالرغم من هذا، كان أتوم لا يزال يحتفظ ببعض إرادته الإلهية وببعض كلمات الخلق... وعشق أتوم "قمة الغرب". وأراد أتوم الذي لا يرتاح لرع، أن ينسل عددًا من الآلهة ينصرونه على رع... لهذا تقدم أتوم، يعرض حبه المقدس على قمة الغرب"... وطلبت منه "قمة الغرب" أن يعطيها بائنة أو مهرًا... فأمر أتوم

جب إله الأرض: فأطلق جب من جوفه كل زهور الأرضين: من نرجس ولوتس وو
وآس ورياحين... فلما تنسّمت "قمة الغرب" رائحة الزهور: انتعشت ورضيت أ
يضاجعها أتوم.. وحملت قمة الغرب فأنجبت التوأم "خِنم" و"بتاح"... ثم راود أتو
قمة الغرب مرة ثانية: فطلبت منه بائنة أو مهرًا... فأمر جب. فأطلق جب من
جوفه كل فواكه الأرضين من رمان وعنب وبلح وجميز وتفاح... فلمّا أكلت قمة
الغرب من فواكه الأرض. انتعشت ورضيت أن يضاجعها أتوم... وحملت قمة
الغرب. وأنجبت التوأم آمون وآتون...

احتدم الصراع بين الآلهة. رع ومعه مجموعة من الآلهة... وأتوم ومع
آلهة أخرى. بالإضافة إلى زوجته قمة الغرب وأبنائه الأربعة: "خنم وبتاح وآمو
وآتون... وحارب الآلهة بعضهم بعضًا... واستثاروا البراكين والزلازل والنيران... وبما أ
الآلهة قادرة على الخلق بالكلمة. استغل الآلهة هذه القدرة: فمنهم من خلق
الشياطين لتحارب معه. ومنهم من خلق الجن. ومنهم من خلق المسوخ والتنانين
والمردة.

وأراد أتوم أن يقوّي معسكره بعدد آخر من آلهة الميلاد. لا الانبثاق: فراو
"قمة الغرب". فطلبت منه بائنة أو مهرًا. فقال لها: "بقي معي من إرادتي الإلهية
ومن الكلمات الخالقة. ما سوف يمكنني من خلق السحاب والمطر... وهكذا تزدهر
الأرض دون ما حاجة إلى جب... وكان سحاب وكان مطر. وانتعشت "قمة الغرب"
ورضيت أن يضاجعها أتوم. وحملت "قمة الغرب" ولكنها هذه المرة شعرت
بضعف في إرادتها. كذلك شعرت بنقصٍ في إرادة أتوم... وأنجبت "قمة الغرب"
توأمًا عجيبًا هما جبتو وجبتانا... وكانا متلاصقين: ظهراهما متلاصقين. ولكل
منهما رأسه ورجلاه وذراعاه. ولكل منهما أعضاؤه التناسلية. جبتو ذكر. وجبتانا
أنثى. ولكنهما جسد واحد متلاصق. لا يستطيع أحدهما أن ينظر عورة الآخر.

الإصحاح الثالث

زادت ضراوة الصراع بين الآلهة. يتزعم "رع" مجموعة منهم، ويتزعم "أتوم" مجموعة أخرى.. واشترك الشياطين والجن والعفاريت والمسوخ والتنانين في هذا الصراع. كل يتبع أحد المعسكرين المتقاتلين.. وبدأت حيل الآلهة والشياطين تُستَخدم في الصراع.. وبُتِرَت أعضاء بعض الآلهة والشياطين أثناء الصراع.. ولكن أعضاء الآلهة والشياطين إذا بُتِرَت ينمو مكانها عضو جديد أكثر قوة؛ الأمر الذي يؤدي إلى تفاقم الصراع.

الآلهة لا يأكلون..

لكنَّ الآلهة يشربون. والخمر شراب الآلهة. تصنعه وتقدمه لهم الجنيات والحوريات.. والآلهة لا يسكرون.. ولكنهم، لأنهم آلهة، يعلمون قدرة الخمر على الإسكار.. وكان "خِنم". إذا أراد اللهو، حوّل غدران الأرضين. فصارت مياهها خمورًا؛ فترقص الأسماك في الخمر، وتترنَّح الأسود واللبؤات والأشبال. وتترنّح كافة فصائل الحيوان.

عشق "خِنم" "جبتانا". أنثى التوأم جبتو، الملتصقة به ظهرًا لظهر. كلَّف "خنم" حوريات الخمر أن يقدمن كمية كبيرة من الخمر الإلهية لجبتو؛ فضربت الخمر رأس جبتو فنام.. تقدَّم خِنم فغازل جبتانا.. وضاجع جبتانا.. حملت جبتانا من خنم، وولدت توأمًا مزدوجًا متلاصقًا ظهرًا لظهر.. كثرت التوائم المتلاصقة.. توالدت التوائم المتلاصقة. بالرغم من صعوبة التناسل بين الذكور والإناث المتلاصقة.. وكانت هذه التوائم لا تموت، حيث إن ازدواجها قوَّى الجانب الإلهي فيها.. وانضمت هذه التوائم المتزايدة يومًا بعد يوم إلى أتوم؛ فزادت قوة أتوم في صراعه المقدس مع رع.. فكر رع: "ماذا أفعل في هذه الكائنات المزدوجة بالالتصاق، والتي تناصر أتوم؟ إن ما يقربها من الآلهة والخلود أنها ملتصقة.. لو فصلتها ذكورًا وإناثًا؛ فسوف تفقد قدرتها الإلهية وتتحوَّل إلى حيوان بشري يلد ويموت. فلا يتزايد بهذه الصورة الكبيرة التي تساعد أتوم.."

شاءت إرادة "رع" أن يُشَق نهر عظيم في الأرضين. وأمر رع ذلك النهر أن يتحول ماؤه إلى خمر.. وشربت التوائم المتلاصقة من خمر النهر فسكرت. فأمر

رع ملائكته ومعاونيه من الأرباب والآلهة. أن يأخذ كل واحد منهم شعرة من رأ
رع. وأن تستخدم الشعرة المقدسة لفصل تلك التوائم المتلاصقة... فَصِل
جبنانا عن جبتو... وكذلك فُصِلت الذكور عن الإناث من كل تلك التوائم... ونش
شعب عظيم هم الجبتوس أو النّيلوس: ومن النيلوس كانت تسمية ذلك النه
المقدس بالنيل...

وما أنْ فُصِلت تلك التوائم حتى ضَعُفَتْ إلاهيتها. وظهرت حيوانيتو
فعرفت الموت والزواج والميلاد... وانتصرت إرادة رع... ولكن الجن والشياطين والأبالس
بدأت تكوّن جبهة ثالثة... سيطرت هذه الجبهة الشيطانية على الجبتوس
النّيلوس... واتحدت جبهتنا الآلهة. وصارتا جبهة واحدة ضد الشياطين والأبالس
والمردة... وبدأ الحيوان البشري يناصر الآلهة أحيانًا... ويناصر الأبالسة والشياط
والمردة أحيانًا أخرى... وبدأ القتل... ورأى رع سائل الحياة. السائل الأحمر الذي مدّ ب
البشر لكي يعيشوا... رأى رع ذلك السائل يُسفك ويروي ثرى الأرض... عندئذٍ ق
رع: "لم تعد جنة الأرض تصلح للآلهة... علينا -معشر الآلهة- أن نترك جن
الأرض لنعيش في جنة السماء".

هجر الآلهة الأرضين إلى السماء. واهتم الآلهة بجنة السماء وبالني
"الذي في السماء"... وابتدأ النيل "الذي في الأرض" يفيض مرة واحدة في العام. ب
أن كان يفيض في كل شهر... وقل ماؤه الذي كان يفيض فيصل إلى جميع أر
الجبتوس. وانحصر ماؤه في مجرى النيل الأصلي... وبدأت جنة الآلهة الأولى. وه
جبتانا. أرض الجبتوس. تصبح أرضًا تقل فيها المياه... وبالتدريج... تحوّل الجبتو
فصاروا حيواناتٍ بشرية متصارعة...

الإصحاح الرابع

هجر الآلهة الأرضين، أرض جبنانا، إلى جنة الآلهة في السماء.. وحكم رع على الشياطين والأبالسة والجن، بأن تتحول إلى كائنات لا يراها الحيوان البشري.. وتستطيع هذه الكائنات أن تهمس للبشر؛ فتقترب في أفعالها من الشياطين.. وربما تستطيع هذه الكائنات البشرية أن تتجه إلى الخير فتقترب في أفعالها من الآلهة.

في أدغال ومستنقعات النيل، عاشت حيوانات وزواحف الأدغال، كما عاشت المسوخ، والتنانين، والمردة، والأوتان ومسوخ أبي الهول؛ ذات الوجوه البشرية والأجساد الحيوانية.

أما الحيوانات البشرية، التي تفرّعت عن سلالة الآلهة، وهم الجبنيون، فقد عاشوا إلى الغرب، وإلى الشرق، بعيدًا عن أهوال أدغال النيل، وكانت معظم أنسال الآلهة من الحيوانات البشرية تقطن الغرب..

بعد أن هجر الآلهة الأرضَ إلى السماء، كانت جنة الأرض لا تزال يانعة.. لكن رويدًا رويدًا.. وجيلاً بعد جيل، بدأت المياه تقل في الشرق والغرب.. وبدأت الحيوانات البشرية تتصارع فيما بينها على ثمار الأرض ومناطق الصيد والنفوذ [1] وتحوّلت العائلات البشرية إلى قبائل متصارعة يأكل بعضها بعضًا.

وأصبحت جنات النيل المعروشة مطمحًا لأسر الحيوان الإنساني، إلا أن الإشارات والشائعات المبهمة، بين أسر الحيوان البشري، عن أدغال النيل، وما تحويه من مردة وتنانين ومسوخ وتماسيح وأسود ونمور وفيلة متوحشة، وزحافات طائرة، وطيور جارحة قادرة على اختطاف الرجال والحيوانات.. كل هذه الإشارات والشائعات، جعلت الأسر البشرية المتصارعة من أجل البقاء، تُحجِم -أول الأمر -عن الاتجاه إلى أدغال النيل سعيًا إلى الرزق.. فلا جدوى من وفرة الرزق، إن كانت تعرّض حياة الكائن للخطر.. ناهيك عن أنها تعرِّض الجنس كله للانقراض.

الإصحاح الخامس

سألني "خِمِنْتُو" أحد تلاميذي النساخين في معبد سمنود، -وهو أيضًا أحد شباب شمامسة الرهبان- قائلاً: أيها المبجّل مانيتون.. ما اللغة التي يتحدّث بها الآلهة؟ وما اللغة التي يتحدث بها النّيلوس أي الجبتيون، الذين هم من نسل الآلهة؟!" ولمّا طرح "خِمِنْتُو" سؤاله، وجدت أن جميع الحضور من الشمامسة والكهنة، صغارًا وكبارًا، متشوّقون لسماع إجابتي فقلت (وسجّل التلاميذ عنّي): "إذا وُجِد القلب المفكّر[٢] فلا بدّ من لسان ينقل فكر القلب للآخرين.. كان، ولا يزال، للآلهة جميعًا لغة واحدة يتحاورون بها في مجمعهم.. وبدهي أن الربّة المقدسة "قمة الغرب" عشيقة الإله الأول "أتوم" كانت تتقن لسان الآلهة.. وإلا.. فكيف كان يغازلها أتوم؟! وكيف كان يحاورها؟! وكذلك الربة جبتانا أنثى التوأم جبتو، التي عشقها الرب "خِنم".. ما كان لها أن تحاوره إلا باللغة، وما كان له أن يغازلها ويراودها عن نفسها إلا باللغة.. وهكذا كانت التوائم المزدوجة تتكلم لغة الآلهة؛ لأنها هي نفسها من نسل الآلهة.... ولمّا احتال رع وفصل التوائم، وفقدت إلاهيتها، لم تفقد لغتها.. وتناسل النّيلوس الجبتيون، الذين هم من نسل التوائم المزدوجة.. والتي هي من نسل الآلهة.. وظل لسان النّيلوس الجبتيون هو نفسه لسان الآلهة.. وليشكر الجبتيون الآلهة مرتين: الأولى؛ لأنهم قادرون بلغتهم الإلهية على الحوار أمام محكمة أوزوريس في الآخرة.. والثانية: لأن لغتهم الجبتية - لغة الآلهة -تمكّنهم من معرفة أسرار الآلهة، كما تمكّنهم من الطب والسحر القائم على لغة الآلهة.. ولْيَعْلَم الجميع، خصوصًا الرهبان والإكليروس، أنه لولا معرفتنا بلغة الآلهة، لما كانت لنا صلة بالسماء، وما كان للشعب أن يستعين بنا في الطب والسحر والطقوس.. يكفينا فخرًا -نحن المصريين- أننا نتكلّم لغة السماء، وأن لساننا، هو نفسه لسان الآلهة" [٣].

هوامش سِفْــر "انبثاق الآلهة والعالم"

١- كان المصريون يعتقدون أن العالم هو مصر، بل لا يزال بعض عوام المصريين في القرن العشرين، يستخدمون عبارات مثل: "الدنيا التي رواها النيل".. ويرى دارسو الأنثروبولوجيا والجغرافيا السياسية أن التصحـــُّر في الصحراوات المصرية، هـو الذي دفع بالمصريين، الذين كانوا يسكنون كهوف الفيافي الشرقية والغربيـــة، إلـى الاتجاه لأدغال النيل... ونما المصريون في منعزل وادي النيل، وكوّنوا حضارتهم الخاصة... واندفع المصريون في تكوين حضارتهم، خارجين بسرعة مدهشة مـن العصور الحجرية قبل التاريخ، إلى العصور التاريخية الأولى التي شهدت مولد أول الحضارات البشرية.

٢- القلب المفكـــِّر: من الأخطاء الشهيرة عند الأقدمين تصوُّرهم أن القلب هو مركـز التفكير... ومن عجب أن هذا الأمر تبنـــَّاه أرسطو، ورفض غيـــره؛ حيـــث كـــان يتصور أن "المخ" ليس إلا جهازًا لضبط حرارة الجسم.

٣- كان المصريون يعتقدون أن مصر هي مهد الآلهة، بل إن متون الشعوب المجـاورة لمصر، تتحدث عن مصر دائمًا باعتبارها "أرض الآلهة" وترتــَّب علـــى ذلـك، أن المصريين آمنوا بأن لغتهم المصرية (الجبتية) هي لغة الآلهة... (ونفــس الاعتقـاد كان عند كافة الشعوب؛ فالهنود القدماء اعتقـدوا أن الآلهـــة لســانها سنســكريت، والعبريون اعتقدوا أن أدوناي أو إلوهيم لا يعرف إلا اللسان الســامي العبـــري... وهكذا...).

(*) يبقى في كل اللغات أثر النحت القديم من الأصوات الطبيعية، والذي يطلق عليه أســاتذة فقه اللغة "الأنتوماتوبيا" مثل Cough الإنجليزية بمعنى "يكح أو يسعل"، ويكح العربية المولَّدة هي نفسها أنتوماتوبيا... وواضح نحت الإله "تشو" من صوت عطس الإله "أتــوم"، ونحـت الإلهة "تف نوت" من صوت البصق المصري القديم وهو "تف"، والذي لا يزال موجودًا فـي العامية المصرية... هذا النحت اللغوي يقطع بأن المصريين عرفوا الآلهة، ووضعوا قصصًا لتسميتها منذ العصور الحجرية (والإله الأول "أتوم" يحكي صوت ا لانفجار).

(**) "كان صباح.. وكان مساء" "أبهى من زنابق الحقول" "الأشياء والنباتات والـــدبابات"... ألفاظ كثيرة في المتن المصري يظهر صداها في العهدين القديم والجديد، والنطق باسم الإلـــه الأول المصري "أتوم" يذكـــِّرنا باسم الإنسان الأول في العهد القديم "آدم".

سـفـر "المـهـد"

الإصحاح الأول

سكنت سلالات التّيلوس، أي الجبتوس، في البراري المصرية شرقًا وغربًا، وكانت أكثر هذه السلالات تسكن في براري غرب النيل... هذه الأقوام "الجبتية" كانت من نسل إلهي؛ لأنها تَمُتُّ بدمها إلى التوائم المزدوجة، التي كانت نتاج زواج "أتوم" بالربة السماوية "قمة الغرب"، أو نتاج زواج "خنم" بالربة جبتانا، أنثى التوأم المقدس جبتو.

بعد أن أمر رع معاونيه من الأرباب والملائكة، بفصل التوائم المزدوجة، والتي كان كل توأم منها عبارة عن ذكر وأنثى متلاصقين ظهرًا لظهر... فقدت تلك التوائم أبديتها الإلهية، وأصبحت حيوانات بشرية تتوالد وتموت، وتوالدت تلك الأنسال وزادت في البراري الغربيّة.

كانت البراري الغربية، وكذلك الشرقية، في زمن وجود الآلهة على أرض مصر، جنات معروشة، مليئة بالثمار والفاكهة، والورود والرياحين، كما كانت مليئة بالفرائس التي تصلح للحيوان البشري المقدس.

لكن بعد أن زادت الشرور والآثام على الأرض، وسُفِكَتْ الدماء، وتحوّل الإنسان فصار كوحوش الغاب، وبعد أن علا صوت الأبالسة والشياطين والجن والمردة والتنانين والمسوخ... حاول رع وبقية التاسوع المقدس التصدي لهذه الشرور... وبالفعل قضوا على الكثير منها... لكنْ... في النهاية قرر رع والتاسوع المقدس أن يهجروا الأرض إلى السماء.

بمجرد أن هجرت الآلهة أرض مصر، تصحّرت الفيافي الغربية [1] والشرقية، ونضبت مياهها، وجفت غدرانها... ترتّب على ذلك صراع رهيب بين عائلات التّيلوس الجبتية، التي كانت تقيم في كهوف الفيافي والبراري الغربية... قبيلة تُغِيْر على قبيلة، يحدوها قانون البقاء، والقبيلة المنتصرة ربما تبيد القبيلة المنهزمة إبادة كاملة... بل ربما كانت "أمخاخ المهزومين وأكبادهم وقلوبهم" وليمة أولى للمنتصرين.

ولهذا بدأ الزحف البطيء في اتجاه النيل.

فروع النيل في ذلك الزمان السحيق. كانت تنتشر شرقًا وغربًا، وتمر ببحيرات وبرك ومستنقعات وأدغال... وربوع النيل كلها مليئة بالجنات المعروشة. والظلال الكثيفة. وأسراب الحيوان البري والفرائس. والحيوانات المتوحشة والطيور والزواحف.. مخاطر الوحوش والزواحف يمكن التصدي لها بالأسلحة الحجرية وبتجمُّعات الحيوان البشري...

لكن... كانت هناك مخاطر أشد جسامة... كانت الشائعات والأساطير تتحدث عن المسوخ والتنانين ووحوش الأوتان وأبي الهول. التي تسكن في الهضاب البيضاء المطلة على النيل؛ ومن ثَمَّ تتسلل في الأدغال النيلية.. وتصف الأساطير القديمة تلك المسوخ. بأنها كانت كائنات نصف بشرية: الأوتان مسخ مولَّد من القردة والإنسان... وأبو الهول مسخ آخر مولَّد من نوع منقرض من السباع والإنسان... هذه المسوخ لم تكن تتوالد فيما بينها؛ إذ ليس فيها إناث. بل تُغِيْر على الأطراف في ظلمة الليل. وتخطف بنات الإنسان. ويغتصبون بنات الإنسان وينجبون منهن مسوخًا أخرى... وتروي الأساطير. أن تلك المسوخ الليلية كانت أقرب إلى الخفافيش في طبيعتها؛ فهي لا تظهر في النور. بل تخشاه. وتختفي في أوكارها بالنهار. وتخرج في ظلمة الليل. فتعيث فسادًا في أماكن وجود البشر؛ فتخطف النساء وتقتل الذكور... ولا يستطيع البشر التصدي لها.

الإصحاح الثاني

ويزداد التصحُّر عامًا بعد عام في البراري غرب النيل.. وتقل المياه، وتقل الثمار والفرائس، ويحتدم الصراع من أجل البقاء، وبالرغم من مخاطر وأهوال المسوخ، التي يشاع أنها مسيطرة على أدغال النيل، فكّرت قبيلة "جبتو" في الاتجاه شرقًا إلى أدغال النيل ومياهه، وإلا تعرَّضت للفناء على أيدي المتوحشين المتخلِّفين من "المشوش" [٢].

"جبتو.. جبتو.. جبتو".. صوت من مقطعين تردِّده قبيلة جبتو المنحدرة عن الآلهة، والمتجهة إلى الشرق في اتجاه أدغال النيل، حتى لا تفنى بيد المشوش المتخلِّفين، آكلة لحوم البشر.. "جبتو" صوت تستخدمه القبيلة "كشِفرة خاصة بها، يتنادون به للتعرُّف والتمييز أثناء إقامتهم في البراري الغربية.. وهم يتنادون به الآن أثناء زحفهم المتأنِّي إلى أدغال النيل.. إن هذا الصوت "جبتو" تستخدمه القبيلة للتعارف والتمييز، تمامًا كما تستخدم عائلات النمل والنحل الرائحة والتلامس للتعارف والتمييز.

عائلة جبتو المنحدرة من نسل الآلهة، واحدة من عائلات الحيوان البشري المتجهة شرقًا إلى وادي النيل، تحدوها الرغبة في البقاء.. حاولت عائلات أخرى من الهمج المتخلِّفين، الذين ليسوا من نسل الآلهة الإقامة في أدغال النيل، ولكن هذه القبائل والعائلات فنيت عن آخرها، وأكلتها الوحوش والمسوخ؛ إذ لم تكن تحظى بتوفيق الآلهة [٣].

تزداد كثافة الأدغال، وتزداد الغدران والمستنقعات، كلَّما اقتربت عائلة جبتو من النيل.. وكذلك كثرت الثمرات والفرائس.. وبالرغم من حرارة الصيف، إلا أن الظلال والمياه قلَّلت الحرارة كلَّما اتجهوا شرقًا.. كان "جبتو مصرايم" زعيم هذه القبيلة، وأكبر الجميع سنًا وخبرة، لهذا كانوا يأتمرون بأمره، وينفذون كلماته القليلة الحاسمة.. وكان "جبتو مصرايم" قد سمع الكثير عن أهوال أدغال النيل وعن المسوخ والتنانين؛ لهذا كان يسير بحذر هو ومن معه، وإن أقاموا للراحة والصيد، كان يختار تلة عالية تكشف ما حولها، ولمَّا اقتربوا من مياه النيل كان يحذر الجميع من النّيلوس أو المياه الهادرة الحمراء، حتى صار "النّيلو" أو النيل علَمًا على ذلك النهر العظيم.

وجد "جبتو مصرايم" نفسه وقبيلته بالقرب من مساحة ضخمة من "النيلو" أو المياه الهادرة المتدفقة الحمراء... واختار تلّة مرتفعة من الحصى والرمال، تخيط بها الأدغال ليقيم عليها معسكر القبيلة.

اشترك الجميع فحفروا أضلاعًا أربعة، تكوّن مربعًا يقترب من مساحة فدان، عُمِّقت الأضلاع المحفورة... ثم اتجه الجميع بأدواتهم الحجرية إلى الأشجار، وأخذوا يقطعون الأغصان، ويضعونها متلاصقة على هيئة سور داخل الأضلاع المحفورة، ثم يهيلون التراب والحصى على أصولها فتقف ثابتة... وهكذا تكوّن حائط نباتي حول المعسكر... وفي الجنوب الغربي تركوا مدخلاً مموهًا، مُغطّى بحزم النباتات والأغصان، ولا يستطيع الداخل أن يمر به، إلا إذا سار على يديه وركبتيه... وهو أثناء ذلك، لا بد وأن يُحْدِث خشخشة بين الأغصان والحزم النباتية يشعر بها حراس المعسكر.

في مركز المعسكر يقع مقر جبتو الأكبر، جبتو الزعيم، أو "جبتو مِصْرايم" كما كانوا ينادونه... ومن "جبتو" جاء اسم أرض الآلهة "جبتو" أو "جبتانا" في لغتنا الجبتّية... ومن الاسم الثاني "مصرايم" كانت "مصر" عند العبرانيين والساميين والأدوميين.

مقر "جبتو مصرايم" عبارة عن خصٍّ صغير مكعّب، مع ميل للاستدارة، مؤسس على ثلاثة أضلاع، أقيمت بنفس الطريقة التي أقيمت بها الجُدُر الخارجية للمعسكر، والضلع الناقص لذلك الخصّ يمثّل الباب... ووضعت أغصان أفقية وحِزم من اللوتس والبردي والبامبو والبوص لتكوّن سقف ذلك الخص.

في هذا الخص، يقيم "جبتو مصرايم" الآمر الناهي بإشاراته وكلماته القليلة، إنه رأس هذه الجماعة من الحيوان البشري، وإنّه -في مركزه من هذه الجماعة- يشبه -إلى حد كبير- الملكة في عالم الحشرات الاجتماعية كالنمل والنحل... وعلينا ألا ننسى أن جبتو مصرايم، والجبتيين، من نسل الآلهة.

الإصحاح الثالث

اجتمع الجبتيون قبل الغروب على طعامهم بالقرب من خصِّ جبتو مصرايم. وكان طعامهم، في ذلك اليوم، بعض الجذور الدرنّية، وكمية كبيرة من الموز الأخضر جمعوها من شواطئ البحيرة. وعدّة أوزّات وبطّات اصطادها فتيان القبيلة.. ولفرط الجهود والتعب نام الجميع بالرغم من البعوض والحشرات الليلية.

في الصباح نهض الجميع على شقشقة الطيور، وأصوات القردة على الأشجار، وأصوات فرس النهر في البحيرة والنيل... وكان الفتيان والغلمان قد عادوا من الصيد والالتقاط... خرج جبتو مصرايم من خصّه يتوكأ على عصاه ذات الرأس الحجرية؛ فوجد حشدًا من الفتيان والفتيات والغلمان والأطفال... أحدُهم يقدم للجدّ جبتو مصرايم قطعة من كبد الصيد لا تزال تدمي، فيلتهمها جبتو، ويقدم آخر قطعة من مخ الصيد. وقد وضعها على ورقة كبيرة من أوراق الشجر.. وصَبيّة صغيرة قدّمت لجبتو عدّة بُيَضات من بيض أوز البحيرة، فأخذ جبتو يكسر البيض ويبتلع ما فيه... ثم جلس الجميع للطعام بعد أن سجدوا لرع عندما أشرق عليهم بنوره.

كان الجميع سعداء بهذا الرخاء والطعام الوفير.. وكذلك كان الجدّ جبتو، إلاّ أنّ سعادته كان يؤرقها شعور غامضٌ بالخطر؛ لما تحويه الأدغال النيلية من مخاطر، وكان جبتو مصرايم يشعر في أعماقه بأن العدد الكبير قادرٌ على مواجهة الخطر[٤]؛ لهذا كان يشعر بالسعادة كلما حملت فتاة أو امرأة من القبيلة وولدت طفلاً أو طفلة.. بل إنّه شعر بالتفاؤل، حين وضعت صبية في الرابعة عشرة توأمًا من ذكر وأنثى... وقال جبتو في نفسه: "شكرًا لرع، الذي يرعانا -نحن نسلُ الآلهة- وسوف يحمينا من الخطر، ويجعلنا كثيرين كنجوم السماء وكرمل الصحراء".

تحرّكت الأغْصان في المدخل المموّه للمعسكر، وخرج من تحتها مجموعة من الشبان والغلمان ناهضين، بعد أن كانوا يسيرون على ركبهم.. وكانوا يحملون أوراق الموز تقطر ماءً، وبداخلها صيدٌ جديد.. وضعوا صيدهم على بعض الغصون والأعشاب أمام جبتو.. دُهشَتْ القبيلة كلها لمنظر تلك الكائنات المبللة بالماء، والتي لا تزال تضطرب فيها الحياة والحركة... بعض هذه الكائنات عليها قشور فضّية لامعة، وبعضها ذو جلد أملس يصعب الإمساك به.

كان الشبان والصغار والرجال ينظرون بعجب إلى الجد جبتو؛ حيث بدا عليه أنه يرى هذه الكائنات لأول مرّة. في حين أن الجميع يتصورون دائمًا أن جبتو يعرف كل شيء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض أو في السماء.

بإشارة من جبتو، تقدَّمتْ مجموعة من الفتيات بسكاكينهن الحجرية، وأخذن يمزِّقن الأسماك قطعًا صغيرة... وأكل الجميع من ذلك اللحم الطريْ الطازج، واستمتعت العائلة بهذا الصيد الجديد الذي يتميّز بسهولة مضغه وطعمه اللذيذ.

خرج جبتو من المعسكر ومعه حشد من الجبتيين، واتجهوا إلى مكان عند شاطئ البحيرة... وحين رأوا عددًا كبيرًا من الأسماك محصورًا في جدول صغير؛ نزل الغلمان والفتيان فاصطادوا كمِّيَّة أخرى من الأسماك.أخذوا يرمون بها إلى الشاطئ، ويتضاحك الصغار وهم يجمعونها ويمسكون بها وهي تتحرك بحركاتها الراقصة.

وفجأةً يتحرك في الماء زاحف ضخم، ويتجه إلى الغلمان فاغرًا فاه المليء بالأسنان .. أسرع الواقفون على الشاطئ وأخذوا يقذفون ذلك الزاحف بالأحجار والصخور، بينما أسرع الغلمان في الخروج من الماء.. وارتد الزاحف على أعقابه؛ لأن الفرائس هربت، ولأنّ وابلا من الحجارة أُطلِق عليه... وعاد الجميع سالمين إلى المعسكر، ومعهم صيدهم، وظل الجدّ جبتو مُوَزَّعا بين الشعور بالسعادة بهذه الخيرات الكثيرة، والشعور بالخطر الذي يتهدّد القبيلة في أدغال النيل.

الإصحاح الرابع

استقرّت القبيلة الجبتية في هذا المكان المطل على طرف بحيرة تتصل بالنيل. وطاب المقام للقبيلة في معسكرها الجديد: رزق كثير وطعام وفير. ولا صراعَ مع عائلات بشرية أخرى... الصغار من البنين والبنات يجمعون الثمار والجذور الدرنيّة المنتشرة في كل مكان. كما يجمعون بعض الطيور والبيْض... والشبان يجمعون الأسماك والطيور من البحيرة وأجوار النيل وشطآنه والمستنقعات. وبعض الرجال يشتركون في صيد الفرائس من الأدغال.

مضت شهور. ودار رع في السماء ما يزيد على مائتي دورة. وتوالت وجوه خنصو إله القمر المتعددة مراتٍ ومرات. ونحن الآن على مشارف بشنس من شهور الفيضان... لا مشاكلُ تواجه الجبتيين في معسكرهم... صحيح أن الجميع يعانون من حشرات الليل القارصة. خصوصًا وأن الأجساد تكاد تكون عارية إلا من بعض القطع من جلود الحيوان أو ألياف الشجر تدور حول الحقوين. وتنسدل بين الرّجلين من أمام ومن خلف... لكنّ الجمّاعة احتالت على ذلك بطلاء الأجسام بالطين إذا ما أقبل الليل.

مات غلام: فقد لدغته أفعى أثناء الصيد. حفروا له حفرة خارج المعسكر. وأجلسوه القرفصاء داخل الحفرة. ثم أهالوا عليه التراب والحصى. وجمعوا كمية من الصخور والحجارة وضعوها فوق قبره: حتى لا تصل إلى جسده حيوانات الليل النابشة... وتذكّر الكِبار من الجماعة حياتهم في براري الغرب وكهوفه. ودارت في رءوسهم تلك الحوادث القديمة؛ حين كانت القبيلة تتخلص من المرضى وكبار السن برميهم من فوق المرتفعات. أو بتركهم فريسة لوحوش البراري.

الموت إذن حدثٌ عابر. والمهم أن يكون عدد المواليد أكبر من عدد الوَفَيَات: حتى تنمو قبيلة جبتو وتشعر بالأمان. فالنّساء يلدن. والأطفال ينتمون للرمز الإشاري للقبيلة "جبتو". كما ينتمون لأمهاتهم... ولم يكن العرف في ذلك الزمن السحيق يهتم بتنظيم دقيق للعلاقة بين الذكور والإناث: فالذكور كلّهم للقبيلة. والإناث كلّهن لها. وكذلك النّسل الجديد.

"جبتو الصغير"... ابن 'جبتانا" إحدى نساء "جبتو مصرايم"... الجميع ينادونه "جبتو جبتانا' صبيّ صغير في الخامسة عشرة. صافي البشرة. واضح الحيويّة سريع الحركة.

وبرغم صغر سنه. إلاّ أن "جبتو جبتانا". كان يتسلل وحيدًا خارج المعسكر. غيرَ مبالٍ بتحذيرات "جبتو مصرايم" التي تنهى عن سير الأفراد منفردين... يخرج من المعسكر خلسةً. ويمشي على حواف البحيرة وشواطئ النيل. يلهو -أحيانًا -بإلقاء الأحجار على سطح الماء. ويتابع تلك الدوائر المتعاقبة على سطح الماء... ويلهو أحيانًا أخرى بمتابعة الأسماك الطافية "أو مجموعات الأوز والبط... وكان جبتو الصغير إذا شعر بخطر ما؛ فإنه يسرع إلى تسلّق أقرب شجرة له. وكان مشهورًا له بأنه أقوى وأسرع متسلّقي الأشجار. ولم يكن يخشى قردة الأشجار بل كان يداعبها ويعابثها. فهي مثله تحبّ اللهو.

في ذلك اليوم من شهر بشنس. كان جبتو الصغير يسير كعادته قريبًا من البحيرة. وشعر بأقدام تدوس الأوارق الجافة على أرض الغابة؛ لهذا أسرع إلى الصعود على إحدى الأشجار... بخفه وسرعة. وصل إلى قمة عالية من قمم تلك الشجرة... اتضح المنظر أمامه على أرض الغابة والبحيرة؛ فهذه مجموعة من فتيان وغلمان العائلة. تخوض جزءًا ضحلاً من البحيرة لاصطياد الأسماك.. وتابع جبتو الصغير. من مقرّه العلوي. الغلمان وهم يتصايحون ويتضاحكون أثناء صيدهم للسمك. كما تابع "تينو" و"رامو" وهم يتعقبون مجموعات الأوز والبط... وبدا لجبتو الصغير أن ينزل ليشترك مع الغلمان والفتيان. إلا أنّه لمح من مكمنه فوق الأشجار. اثنين من ذلك الزاحف الضخم. ذي الفم الواسع المليء بالأسنان. وهما يتّجهان نحو الغلمان. مستترين بالماء وبالظلال الكثيفة للأحراش قبل مغيب رع... أطلق جبتو صيحات التحذير؛ فأسرع الفتيان بالخروج من الماء. إلا صبيًا صغيرًا. تعثّر في بعض النباتات. ولم تسعفه حركته فابتلعه أحد التمساحين [٥].

أدار "جبتو جبتانا" وجهه إلى الاتجاه الآخر؛ حتى لا يرى منظر افتراس الصبيّ. وخُيّل لجبتو الصغير أنه سمع أسنان التمساح وهي تمزق عظام الصبيّ. فأسند جبتو جبهته على مؤخرة قبضته الممسكة بغصن من أغصان الشجرة... ومرّت دقائق شعر بعدها جبتو بتكاثف الظلمة على أرض الغابة... وشم جبتو

رائحة خبيثة.. وكان ينوي التسلق هابطًا. إلا أنّه ثبت مكانه؛ فقد رأى على أرض الغابة مسوخًا بشعة من أشباه البشر، تسعى متلفعة بالظلمة في اتجاه المعسكر.. وتذكّر جبتو الصغير تلك القصص الغامضة عن المسوخ والتنانين وأبي الهول؛ فأطلق صيحات التحذير.

الإصحاح الخامس

كانت القردة فوق الأشجار، تشارك جبتو الصغير قلقه لرؤية هذه الكائنات البشعة وشم رائحتها الخبيثة، إذ أخذت القردة تُحدِث أصواتًا عالية بأفواهها أشبه بالطقطقة، وكأنها تشارك جبتو في إطلاق أصوات التحذير.

ولبث جبتو الصغير في مكانه، وتذكّر حديث جبتو الكبير عن هذه التنانين المسوخ واختطافها للنساء وأكلها للرجال... مرّ ذلك كله، وهي تسير بخطوها الثقيل في اتجاه المعسكر... ومرةً ومرات، يرسل جبتو صيحات التحذير.

وسمع جبتو أصوات الصراخ والاستغاثة، والكرّ والفرّ، وبالرغم من عدم وضوح الرؤية مع مقدم الليل، إلاّ أن جبتو من مكمنه بين الأشجار، رأى صورة عامة للتدمير والخراب... وانكمش جبتو بين الأغصان حتى انتهى الفزع والأنين والصراخ، وحتى هدأت الحركة تمامًا في المعسكر... ورأى المسوخ وهي تنصرف بخطوها الثقيل حاملة النساء والبنات... وخفّت الرائحة الكريهة، ثم تلاشت تمامًا.

نزل جبتو الصغير، ودخل المعسكر، ورأى هول ما حدث: النساء والبنات جميعًا اختطفهن المسوخ... والذكور من الرجال والغلمان والصبية قُتلوا أبشع قتلة، وشُدِخت رءوسهم بالأحجار لاستخراج الأمخاخ. كما بُقِرتْ البطون والصدور لاستخراج الأكباد والقلوب... والدماء تنزف في كل مكان، والموت مُخيّمٌ على المعسكر.

سمع جبتو الصغير صوت أنين وألم بين أغصان المعسكر، فتقدم بحذر ليفتّش عن مصدر الصوت، ففوجئ بجبتو مصرايم، ينزف دمًا من رأسه إلى قدميه، فأقبل عليه يحاول إيقاف الدم النازف، إلا أن جبتو الكبير أشار إليه حتى ينتبه لما يقول: "اسمع يا بني: إن هذه المسوخ سلالة كائنات مدمّرة قديمة، توالدت زمن صراع الآلهة مع الأبالسة والشياطين والتنانين، وبعد أن هجرت الآلهة أرض جناننا إلى السماء، حكمت على المسوخ بألاّ يكون لها نسل، إلا أن المسوخ التي حُرِمت من أن يكون بينها إناث تلد، استعاضت عن ذلك بأسر نساء سلالة الآلهة واستيلادهن... إن هذه المسوخ من بقايا آكلات لحم الآلهة وأنسال الآلهة... يابني: إن رع وعدني بأن يستمر نسل الجبتيين أبد الآبدين... إن هذه المسوخ كالخفافيش

تخشى النور، كما تخشى نار الإلهة نوت... لا شأن لهذه المسوخ بالشجر؛ فالجأ ب
بني دائمًا للأشجار، ولتصنع لنفسك ملجأ فوق الشجر تقضي الليل فيه.

هدأ صوت جبتو الكبير ثم خَفُتَ، وأخيرًا صَمَتَ وهدأت حركته، وصار جثة
هامدة، وسقط جزعه المرتكن على شجيرة أمالتها أرجل المسوخ الثقيلة.

ومع التعب والإرهاق والإحساس بالعجز والخوف: تكوّر جبتو الصغير على
نفسه بين حزم نباتات السور... وشعر جبتو ببرودة الجو، ربما لفرط خوفه وضياعه
فدفن نفسه بين حزم البردي واللوتس، بالقرب من جثة جبتو الكبير... وراح جبتو
الصغير في سباتٍ عميق.

هوامش سِفـْر "المهد"

١- كانت صحراوات مصر جنات معروشة في العصر الجليدي.. ولمـّا جاء عصر الجفاف تصحـّرت البراري المصرية، واتجهت سلالة ما (ربما النيلوس) إلى حوض النيل في العصر الحجري القديم والحديث. (جون ويلسون: الحضارة المصرية. جيمس هنري برستد: فجر الضمير. سليم حسن: مصر القديمة.).

٢- المشوش: قبائل أكثر عنفًا وأقل ذكاء... ربما تكسب في جولات أولى ولكنها تخسر في النهاية بحكم بقاء الأصلح، ولعلها آخر إنسان نياندرتال.

٣- توفيق الآلهة: تعبير مألوف لعلّه يعبّر عن أن الأكثر ذكاء هو الذي يكسب في صراع البقاء، أما الأغبياء فينقرضون.

٤- العدد الكبير يقوّي فرص الكائنات في صراع البقاء؛ ولهذا كان الميل للتكاثر صفة غريزية جـُبـِلـَت عليها كلُّ الكائنات وفصائل الحيوان، بما في ذلك الحيوان البشري.

٥- سرعة الحركة والذكاء تؤدي إلى استمرار الجنس. التمساح في اسمه العربي، قريب من "أمسوح" باللغة المصرية؛ وبدهي أن العرب ليست في بيئتهم تماسيح. (راجع: لويس عوض: مقدّمة في فقة اللغة العربية).

سِفْر "النار والعالم الآخر"

الإصحاح الأول

استيقظ جبتو الصغير من نومه، وقد نبّهته حرارة الشمس غير المعهودة في هذا الوقت من الصباح؛ أخرج جبتو الصغير نفسه من بين حزم اللوتس والبردي، وتذكّر كلَّ ما حدث في ليلة الرعب الماضية... اتّجه جبتو الصغير إلى حيث ترقد جثة جبتو مصرايم؛ فاكتشف أن الجثّة ازدادت تصلّبًا وتشنّجًا... وفي الحقيقة، كان جبتو يشعر برغبة في التخلّص من منظر الجثة ووَجْه جبتو مصرايم الميت، ولكنّه أقنع نفسه بضرورة دفن الجثة حتى لا تعتدي عليها وحوش الليل... أخذ بسحب الجثة من قدميها العاريتين، حتى وصل إلى الخندق الذي يمثِّل الضلع الجنوبي للمعسكر؛ فاقتلع الأغصان والحزم، ودفع بجثة جبتو الكبير إلى الخندق، وظل يهيل التراب والحصى حتى واراه... وشعر جبتو الصغير بالرضا عن نفسه، بعد أن توارى عنه ذلك الوجه الميّت لجبتو مصرايم.

ترك جبتو المعسكر، واتّجه لأطراف البحيرة بحثًا عن الغذاء، وكان شديد الحذر في حركته عند أطراف البحيرة؛ خوفًا من الوحوش، وخصوصًا ذلك الزاحف الضخم "التمساح".. جمع جبتو كمية من الموز والجذور وبعض الأسماك، ثم اتجه إلى شجرته المفضّلة، فصعد إلى شعبتها وبدأ يستعدّ لوجبة الصباح.. ونظر جبتو أسفل الشجرة؛ فوجد اثنين من تلك الكلاب الذئبية من نوع الأنوبيس، وهي تتشمّمُ المكان أسفل الشجرة وكم كانت سعادته لظهور تلك الكلاب، التي تعوّدت أن تكون في أجوار القبيلة، حينما كانت القبيلة تقيم في منطقة التلال الغربيّة.

وضع جبتو طعامه فوق شعبه الشجرة، التي قرّر أن تكون ملجأه، ثم أخرج سكينه الحجرية ليقطع الأسماك، وفجأةً سمع صوت الاستغاثة برمز القبيلة: جبتو"؛ فاتّجَه إلى مصدر الصوت بعينيه، وكم كانت سعادته!! إذ كانت الاستغاثة صادرة عن "جبنانا" الصغيرة؛ وهي واحدة من بنات القبيلة في مثل سنّه، رآها تقف على شعبه شجرة ليست بالبعيدة، فأشار إليها بكلتايديه ورفع صوته مجاوبًا إياها بالرمز الإشاري الصوتي للقبيلة: جبتو.. جبتو... فتهلّل وجه جبنانا الصغيرة، وبدا البِشرُ على وجهها وحركاتها بالرغم من بُعْد المسافة بينها وبين جبتو.

جمع جبتو الصغير طعامه كلّه في أوراق الموز، وأخذ يتسلل بين أغصان الشجر المتشابكة، حتى وصل إلى جبتانا، التي بدأت تلمس كتفه ورأسه، وكأنها تتأكّد من حقيقة وجود جبتو... ووجد جبتو أن جبتانا قد صنعت لنفسها فراشًا فوق إحدى شعب الشجرة، مستخدمة في ذلك بعض الغصون وبعض حزم البردي واللوتس التي انتزعتها من سور المعسكر. جلست جبتانا أمام جبتو الذي وضع طعامه على الفراش... وأكلا طعامهما، وشربا الماء من وعاء صُنِع من عُقْلة واحدة من عُقَلِ نبات البامبو. وبدأت جبتانا تقصّ على جبتو ما حدث لها في يوم المسوخ الرهيب: "... حين سَمِعْتُ أصوات الإنذار، شَمَمْتُ تلك الرائحة الخبيثة للمسوخ، ووجدت المسوخَ تجري هنا وهناك بأقدامها الثقيلة، وتقتل الذكور، وتأسر النساء... فجَرَيْتُ بأقصى سرعتي، وسَقَطْتُ في حفرة من خندق السور وسقَطتْ عليّ وأنا في مكاني بعضُ حزم البردي واللوتس، فلم أتحرّك من مكاني خوفًا من أن تشعر بي المسوخ، واستمرّت المذبحة وأصوات الاستغاثة والأنين والكرّ والفرّ وصراخ الإناث... وابتدأت المسوخ تترك المعسكر، حيث ساد الهدوء، كما تلاشت رائحة المسوخ؛ عندئذٍ، خرجْتُ من مكمني، فتسلقْتُ الشجرة، وصنعْتُ الفراش الذي ترى، وقَضَيْتُ الليل فيه".

ارتفع قرص رع الذهبي أكثر وأكثر، وتلاشت سحب الصباح؛ فقامت جبتانا، شاعرةً بالدفء والأمن في وجود جبتو... وأراح جبتو رأسه مستندًا إلى غصن قريب، ونظر جبتو إلى صدر جبتانا العاري وكأنّه يراه لأول مرة... ثم نظر إلى الكلاب أسفل الشجرة، وقد هدأت بعد قتالها مع القردة بسبب بقايا الطعام التي كان قد رمى بها أسفل الشجرة... وسرح جبتو بفكره ونظره إلى المعسكر، فرأى ما حدث من تخريب، وأخذته سِنةٌ من نوم.

الإصحاح الثاني

نبحت الكلاب بشدّة؛ فانتبه جبتو من غفوته، فوجد الكلاب تطارد صغيرًا من أفراس النهر قد ضلّ طريقه بعيدًا عن أمّه التي جاءت لنجدته... وعجب جبتو إذ تذكّر أنه كان مع جبتو الكبير في غفوته، وأخذ جبتو الكبير يحذّره، من جديد، من المسوخ، وينصحه بالتزام الحذر، ونظر جبتو الصغير من مكمنه فوق الشجرة إلى حيث قبر جبتو الكبير.. فاحتار فكّر جبتو الصغير بين تعدّد صور جبتو الكبير: جبتو الكبير الحقيقي الذي قتلته المسوخ ودفنه هو في أصل السور، وجبتو الكبير الذي طاف به هو نائم، وجبتو الكبير الذي يتخيّله كلّما نظر إلى خصّه في مركز المعسكر.. من خلال هذه الحيرة، بدأ جبتو الصغير يدرك أنّ هناك عالمًا آخرَ أثيريا خالدًا، يقف وراء هذا العالم الخُشِن الذي يعاني فيه... إن ذلك العالم الأثيري هو عالم رع والآلهة التي أرسلت كلاب الأنوبيس.. وقال جبتو الصغير لنفسه: "ما أعظم رع الذي وهبنا كلاب الأنوبيس لحراستنا، أنا وجبتانا، وما أعظم رع ونوت اللذين جعلا للمسوخ رائحة خاصة، وكأنّ هذه الرائحة نذير من الآلهة لنا حتى نحترس من المسوخ... إننا نحن أبناء جبتو مصرايم من سلالة الآلهة... ولهذا فإنّها ترعانا".

انتبهت جبتانا من غفوتها، سعيدة بوجود جبتو بجوارها، بالرّغم من ملاحظتها لنظرات جبتو المتلصصة إلى أجزاء من جسدها... ولمّا كان جبتو وجبتانا يشعران بالأمن والانتعاش، نزلاً من مرقبهما فوق الأشجار، وتجوّلا في المعسكر أوّلاً، حيث رأيا بشاعة ما حدث، واشترك الفتى والفتاة في جر بقايا الجثث وإلقائها بعيدًا عند أطراف البحيرة قريبًا من النيل.

بعد مجهود العمل شعر جبتو وجبتانا بالجوع؛ فتجوّلا معًا حول البحيرة وفي الأدغال القريبة من النيل، وجمعا بعضًا من الموز والثمار والدرنيات، واستطاع جبتو، بعصاه ذات الرأس الحجرية أن يصطاد سمكتين كبيرتين من أحد الجداول... أخذا طعامهما، وارتقيا إلى مقرّهما العلويّ فوق الاشجار، وأعمل جبتو سكينه الحجرية في السمكتين وأعدّهما للأكل، وأخذا يتناولان طعامهما... وبعد الطعام تشاغلاً في متابعة العراك بين الكلاب والقردة على بقايا الطعام.

كان الوقت قرب المساء، في شهر الخريف هاتور، وتقدّم المغيب سريعًا، وغاب قرص رع الذهبيّ، وبدأت الظلمة تخيّم على الأحراش، وشعر جبتو وجبتانا بالبرودة فنزلا وأخذا بعض حزم البردي واللوتس الجافة، وصعدا بها إلى الشجرة ليستخدماها فراشًا وغطاءً.. وازداد الجوّ كآبة بتزاحم السحاب في السماء، حتى توارى "حنصو" إله القمر بوجهه الفضيّ.. وتلاصق الفتى والفتاة بين حزم البردي واللوتس.. وبدأت أصوات قطرات المطر، تردّدها أوراق الشجر.

فجأةً تسرّب الخوف والقلق إلى جبتو وجبتانا؛ فقد شمّا الرائحة الكريهة للمسوخ، وبدأت القردة على الأشجار تعبّر بأصواتها عن القلق، وشاركتها كلاب الأنوبيس قلقها بنباحها وجريها هنا وهناك... صحيح أن التنانين ومسوخ أبي الهول ومسوخ الأوتان لا شأن لها بالأشجار، إلا أنّ خوف وقلق جبتو وجبتانا مردّه إلى شعورهما بأن المسوخ لا تزال تترصّد المعسكر ومَنْ فيه.. أخذ الفتى والفتاة يتابعان من مكمنهما الحركة الثقيلة للمسوخ على أرض الغابة... وأخذت المسوخ تجوب المعسكر، وكأنها تبحث فيه عن شيء ما.

ازداد صوت قطرات المطر تتابعًا، وهي تتخلّل أوراق الشجر.. وأبرقَتْ السماء وأرعدَتْ... ومن خلال البرق رأى الفتى والفتاة المسوخ وهي تولّي مذعورة، وتذكّر جبتو ما قاله له جبتو الكبير عن المسوخ وطبيعتها التي تقترب من الخفافيش، وخوفها من نار الإلهة نوت [1] التي ترسلها لتحارب بها المسوخ.. وأشعَلَتْ نيرانُ نوت الحزمَ الجافّة في سور المعسكر؛ فازداد اضطراب المسوخ وأخذت تهرول مسرعةً ومبتعدةً عن ضوء النار، بينما تنبحها كلاب الأنوبيس وتحاول مطاردتها.. اطمأن الفتى والفتاة بعد هرب المسوخ، وشعرا بالدفء وهما بين الحزم الجافّة، كما شعرا بأن "نوت" ربة السماء العظيمة تساندهما وتقف إلى جوارهما.. وناما بينما النار لا تزال مشتعلة في سور المعسكر، ولا تزال الكلاب تنبح تحت الأشجار.

الإصحاح الثالث

من جديد. وضعت "نوت" ربّة السماء العظيمة وزوجة "رع" شمسًا جديدة دافئة في الأفق الشرقي. واستيقظ جبتو وجبتانا مع مولد النور وشقشقة الطيور، فنزلا من بيتهما الشجري. وأخذا يتفقدان آثار النّار المقدسة التي أشعلتها نوت لطرد المسوخ.

كان الدخان لا يزال يتصاعد من بعض الأغصان المحترقة. يتصاعد الدخان إلى السماء، إلى حيث تقيم نوت مع رع. ويؤكد الدخان المتصاعد لنوت أنّ حربها ضد المسوخ حربٌ ظافرة [1]. وأراد جبتو الصغير أن يلقي نظره اطمئنان على قبر جبتو الكبير؛ فأزاح جبتو بعض الحزم الجافة عن القبر. فسقطت بعض الحزم على الجذع المشتعل. فإذا بالنيران يعلو لهيبها الأحمر.. تعجّب جبتو وجبتانا وتأكّد لهما أن الرّبة نوت لا تزال ترعاهما وتَنْظُر إليهما من مقرها السماوي... وجد جبتو نفسه يرفع يديه إلى السماء – إلى حيث يقيم الآلهة – ويخاطب نوت بترنيمة يحفظها عن جبتو مصرايم: "أيتها الربّة الأم نوت. يا زوجة رع رب الأرباب. ويا شقيقة حتحور التي تبتلع رع عند الغروب. وتلده مع الصباح... أنتِ أيتها المقدَّسة نوت لا زِلتِ تقودين حرب الآلهة ضد الشرور وضد المسوخ. وأرسلتِ نارك تحاربين بها المسوخ... ولا يزال الدُّخان يتصاعد إلى أنفك ليؤكّد لكِ نصركِ الظفّر على المسوخ... هيلا... هيلا..".

استمرّ جبتو وجبتانا يغذيان نار نوت بمزيد من الأغصان والحزم الجافّة؛ فتزداد النار اشتعالاً.

عمل جبتو وجبتانا على أن تظلّ نار نوت مشتعلة. وأخذا يمدّانها بالوقود من آنٍ لآخر.. ولمّا لاحظا أن الأغصان الخضراء تستمرّ مدّة أطول. أخذا يجمعان الأغصان الخضراء ويغذيان بها النار من حين لآخر.

اهتمّ الفتى والفتاة بإعادة المعسكر إلى حاله الأولى... كذلك جدّدا خُصّ جبتو الكبير. واتخذا منه بيتًا لهما. وأقاما خطًّا من النار الدائمة قريبًا من مدخل الخص؛ يضمنان به ابتعاد المسوخ... كما أن كلاب الأنوبيس الحارسة تكاثرت بين نباتات سور المعسكر. وأصبحت -بنباحها –تشكّل طليعةً دائمة لحراسة

المعَسكر؛ فهي تُحدِث نباحًا عاليًا. مقرونًا بعدْوٍ هنا وهناك، إذا شعرت بحركة غريبة، أو اشتمت رائحة مُمَيّزة، أو أحست بأي صوت...

صار المعسكر آمنًا منذ أن أشعلت الرّبة نوت نارها المقدسة ضد المسوخ، ومنذ أن أقام الفتى والفتاة نارًا دائمة داخل المعسكر، عملاً على أن تظل مشتعلة ليلاً ونهارًا... ولم تعد المسوخ تقترب من المعسكر، بل إن وحوش الغابة التي كانت تقترب ليلاً من المعسكر، توقّفتْ عن الاقتراب من المعسكر؛ بسبب نار نوت المشتعلة، وبسبب كلاب الأنوبيس سريعة العَدْو.

سارت الحياة سيرها الطبيعي في المعسكر، وصار الخُصّ ملاذًا آمنًا لجبتو وجبتانا يضعان فيه ما يفيض عن حاجتهما من الموز والثمار والجذور، كذلك كانا يقضيان الليل معًا في الخص... ذات مرّة، كانت جبتانا تقطع السمك بجوار النار؛ فسقطت منها سمكة من أسماك القرموط فأخذت تتراقص وتزحف حتى سقطت في النار، فاضطربت في النار قليلاً ثم سكنت وهدأت حركتها، بعد فترة من الوقت أخرجتها جبتانا من النار، ولما أكلت شيئًا منها وجدت مذاقها أطيب؛ فأعطت جبتو بقية السمكة، فلما أكلها وجد طعمها أكثر استساغة.. وتذكّرتْ جبتانا "نوت" ربة السماء العظيمة فأخذت رأس السمكة وألقتها على الأحجار في طرف النار، فاحترقت وشَعَرت جبتانا بالارتياح، وحينما رأت دخان الرأس المحترقة يتصاعد في اتجاه نوت في السماء، ورفعت جبتانا يديها إلى السماء؛ حيث نوت، ورددت مزمورًا [٣] قديمًا كانت تردِّده مع أمها في فترة الكهوف الغربيّة: "أيتها الأم العظيمة نوت... أيتها الربّة الخالقة نوت... يا مَنْ تتحولين إلى حتحور فتبتلعين الشمس في آخر النهار وتلدينها من جديد مع مولد كل صباح... أيتها الراعية لأبنائك على الأرض... يا طاردة المسوخ والتنانين بنارك المقدسة... يا واهبةً النار ومانحة الطعام الذي هو زاد الحياة... لكِ منا الشكر ولك منا المحبّة والتقدير... كوني معنا أيتها الربّة الأم... إليكِ رفعْتُ هذه التقدمة رائحة سرور لكِ، تصعد رائحتها إليكِ في السماء... هيلا.. هيلا".

ومرّة أخرى، اصطاد جبتو أوزتين من طرف دغل من أدغال البحيرة، فذبحهما وانتزع الريش، ونظفتهما جبتانا عند طرف البحيرة.. واحتفظ جبتو بالرأسين والأرجل والأحشاء... واستطاب جبتو وجبتانا مذاق الطائرين المشويين؛ وشعرا بمزيد من الأمن والسعادة... وبعد الطعام ألقى جبتو الرأسين والأرجل والأحشاء في النار،

فتصاعدت الرائحة إلى السماء. تقدمةٌ وتحيةٌ إلى نوت. ورفع كلتا يديه إلى السماء مرددًا هذه الترنيمة: "أيتها الرّبة نوت... يا ابنة شو وتفنوت... يا زوجة "جب" إله الأرض. ويا قبة السماء المتحّولة إلى حتحور.. يا بقرة الحياة التي ترتكز في سماء هذا العالم... أشكرك. أنا وجبتانا. أن وهبْتِ لنا نارَك أمنًا وحياة... ووهبتِ لنا كلابَ الأنوبيس تحرس معسكرنا... يا نوت لك منا هذه التقدمات على نارك. تحيّةً لك. ونَسْمةً تصل إلى أنفك في السماء.. هيلا.. هيلا".

الإصحاح الرابع

فاض النيل بضعَ مرات، وعبر قرص رع الذهبي أفق السماء عدّة مئات من المرّات، وبَدّل "خِنْصُو" ربُّ القمر وجوهه الفضّية مرّات ومرات... وتكاثَرَتْ كلاب الأنوبيس المقدسة بين نباتات سور المعسكر، وصارت جراؤها تجري وتلعب وتتعارك هنا وهناك... هذه الكلاب أرسلها تاسوعُ الآلهة لحراسة نسل جبتو مصرايم الذي هو من سلالة الآلهة، وبالفعل تفرّغَتْ هذه الكلاب لتكون الديدبان الحارس لقرية جبنانا.

وتمرّ الأيّام والشهور ولا تزال نار نوت المباركة مشتعلة، وتمد هذه النار المباركة جبتو وجبنانا بالتفاؤل والأمل وبإحساس عميق بأن الآلهة معهما؛ لهذا يحرص جبتو وجبنانا على استمرار اشتعال هذه النار. يُمدانها من حين لآخر بمزيد من الأغصان... ويزداد هذا الحرص في الليل؛ حيث يمدّانها بأغصانٍ خضراءَ تستمرّ مشتعلة حتى الصباح... وتثاقَلَتْ حركة جبنانا، وشَعُرَتْ ببعض آلام الحمل.

اكتشف جبتو وجبنانا أنهما في حاجة إلى سكاكين حجرّية جديدة، ورءوس حجرّية للعصيّ والرماح؛ فهما الآن في حاجة إلى مزيد من الأغصان والأعواد وحزم النباتات ليمدّا بها نار نوت. وليجدّدا بها أسوار المعسكر وجوانب الخُصّ من آن لآخر. كذلك صارا في حاجة متزايدة إلى صيد المزيد من الفرائس والأسماك لطعامهما، ولإطعام كلاب الأنوبيس التي تكاسلت في صيد الفرائس، وصارت عالةً عليهما في معظم الأوقات.

في صباح أحد أيام شهر برمودة الدافئة، سار جبتو وجبنانا غربًا؛ بحثًا عن منطقة صخريّة، يحصلان منها على قطع حادّة الحواف من الحجارة... سارا عدة ساعات تصحبهما طليعة كبيرة من كلاب الأنوبيس التي تتعارك أحيانًا معارك وهمية، وترسل نباحها من حين لآخر... وطاردت الكلاب مجموعة من الأرانب البرّية، مما سهّل لجبتو وجبنانا الإمساك بزوجين من الأرانب فقاما بذبحهما وسلخهما، وتناولا أجزاءً منهما، دون استخدام النار، وألقيا بالبقايا للكلاب... ووصل جبتو وجبنانا إلى منطقة صخرية...

أخذ جبتو يحمل قطعًا من الصخور ويلقي بها على كتل الصخور الثابتة في الأرض؛ فتنكسر حواف الصخور.. وجمع جبتو وجبتانا كمية من الصخور المُشَظّاة [٤] وضعاها في مقطف مصنوع من ألياف النّخيل.. وهمّا بالرحيل.

نظرت جبتانا إلى أعلى تلك الهضبة الصخريّة؛ فلمحتْ كهفًا يشبه تلك الكهوف التي أقامت فيها وهي طفلة، قبل الرحيل إلى قرية جبتانا.. وخُيّل إليها أنّها رأت دُخان نار نُوتْ أمام مدخل الكهف.. تركَتْ جبتانا جبتو يستريح و يشرب الماء من وعاء البامبو. واتّجَهَت جبتانا إلى منطقة الكهوف.. اقتربت من نار موقدة أمام أحد الكهوف. ووضَعَتْ كميّة من الحطب على النار؛ فتأجّجت وارتفع لهيبها. وانتظرت جبتانا أن يخرج أحدٌ من الكهف، لكن لم يظهر أحد، فتقدَّمَتْ بحذر إلى فتحة الكهف، وأدخَلتْ رأسها؛ فشعرت بأنفاس لاهثة.. وفجأة صرخ طفلٌ وطفلة، واندفعا كسهمين خارجين من الكهف، ولمّا رأيا جبتو غيّرا جريهما في اتجاه الشرق.. ونبحت كلاب الأنوبيس، وعَدَتْ كأنها تطارد الطفلين.

من خلف نتوء بارز في أعلى الجانب الشمالي من الهضبة أقبل فتى وفتاة مُسرِعَيْن، وخلفهما مجموعة من الرجال والنساء والغلمان.. وتوقّف الجميع باديًا عليهم أنهم قد تعرّفوا على جبتانا وجبتو. الذي سار في اتجاه جبتانا مسرعًا تصحبه كلابه.. وصاح جبتو بالرمز الإشاري للقبيلة "جبتو جبتو"؛ فردّ الرجال والنسّاء بنفس الرمز الإشاري للقبيلة "جبتو جبتو".. وأدرك الجميع أنهم أفراد نفس القبيلة؛ فاقتربوا وتصافحوا وتلامسوا.

عند النار، وقريبًا من مدخل أحد الكهوف جلس الجميع وعلامات السعادة والرضا ظاهرة على الوجوه.. وحتى كلاب الأنوبيس أخذ يشاغب بعضها بعضًا في مرح ظاهر.. ونظر الطفلان لأمهما، كأنهما يسألان عن الضيفين: فأشارت الأم إلى الضيف ونطقت باسمه "جبتو" وأشارت للضيفة، ونطقت باسمها "جبتانا". وأشارت إلى زوجها ونطقت باسمه "لابانو". وأشارت إلى نفسها قائلة "لابانا". وأشارت للطفلة وكأنّها تعرّف الضيفين باسمها: "كوفا" وللطفل "كوفو".

قال لابانو لجبتو وجبتانا: "بعد مهاجمة المسوخ للمعسكر، هَرَبْتُ غربًا بعد أن تعثّر الأوتان الذي كان يطاردني في أخشاب سور المعسكر.. وظَلَلْتُ أعدو حتى وصلْتُ إلى منطقة مفترق الطرق الغربيّة. فتوقفْتُ لالتقاط الأنفاس. ساعتئذٍ

تذكّرت الحكايات القديمة عن التنانين والمسوخ وأنّها لا شأن لها بالشجر؛ فتسلّقتُ أقرب شجرة، وبعد فترة سمعت وقع أقدام تعدو، فصِحْتُ برمز القبيلة "جبتو جبتو" وطلبتُ من الذين يَعْدُون أن يصعدوا إلى الشجر فصعدوا.. ثم جاءت مجموعة ثانية وثالثة... ولجأ الجميع إلى الشَّجر.. وعندما بزغ الوجه الذهبي لرع؛ صِحْتُ في الجميع: "هيا اهبطوا إلى الأرض، إنّ المسوخ تَعْشَي فلا ترى في النّور، فضلاً عن أنها تفقد معظم قدرتها إذا ما أرسل رع سهامه الذهبية [٥] أو إذا أشعَلتُ الرَّبة "نوت" نيرانها، ونزل الجميع، وسرنا حتى وصلنا إلى هذه الهضبة، والواحة والمياة العميقة المتاخمة لها.

الإصحاح الخامس

بعد حوار بين جبتو ولابانو وبقية اللاجئين إلى منطقة الكهوف، وافق هؤلاء اللاجئون لمنطقة الكهوف على العودة لقرية جبتانا، تلك القرية التي دُفِن بها جسدُ جدّهم المقدس "جبتو مصرايم"... وقد أكد جبتو للجميع أن المسوخ لم يَعُدْ لها وجود بعد اشتعال نار "نوت".

أحضر الجميع سكاكينهم الحجرية، وحرابهم ذات الرءوس الحجرية، وأوعية الشرب المصنوعة من عُقَل البامبو ومن الفخار، وبعض الأواني الفخارية المسطّحة... سار الجميع شرقًا في اتجاه النيل وجبتانا، واضعين عصيهم ذوات الرءوس الحجرية على أكتافهم، وقد علّقوا أشياءهم على الطرف الخلفيّ منها، بينما استراحت أياديهم على الطرف الأماميّ من تلك العصي.

في الطريق إلى قرية جبتانا، رفع لابانو، زعيم اللاجئين للكهوف صوته؛ حتى يعلو على أصوات الكلاب المصاحبة للجماعة وقال: "... نزلنا من فوق الأشجار ووجدنا أقدامَنا تقودنا إلى منطقة الكهوف التي كانت مأوى للقبيلة من قبل... ولما كان القلق والجوع والظمأ قد بلغ بنا كل مبلغ افترقنا للصيد، على أن نلتقي عند غدير الماء، وبعد الصيد، تجمعنا عند الغدير، وأكلنا وشربنا، واكتشفنا أننا جميعًا في سن متقاربة، إناثًا وذكورًا، مع وجود بعض الصبية والأطفال، فجعلنا كهفًا كبيرًا ملاذًا للصبية والأطفال. ولما كان عدد الإناث من البالغين كعدد الذكور، جعلْتُ لكلّ رجل امرأته، ويختاران كهفًا ليقيما فيه، وكانت لابانا من نصيبي... وأقمنا في منطقة الكهوف، ملجأ الجبتيين الأول، ولم نعد نفكر في معسكر جبتانا؛ خوفًا من المسوخ، وبالطبع كنّا نتصوّر أننا -وحدَنا- الناجون من مذبحة المسوخ... ورضينا بهذا الملاذ حيث الماء والطعام يكفي الجميع... ودار رع مئات المرات وأنجبنا كوفو وكوفا... كذلك عطفَتْ علينا أمُّنا الرّبةُ نوت وعرّفَتْنا سرّ نارِها".

وقصّت "لابانا" حوادثُ أخرى أثناء الطريق فقالت: "في ليلة المذبحة، ليلة المسوخ، أمسك بي مسخٌ من مسوخ الأوتان، ودفع بي بين إبطه وذراعه، وجرى ليمسك بفتاةٍ أخرى، فتعثّر في خندق السور وغصونه، وكِدْتُ أختنق من ضغط ذراعه على أنفي، ومن رائحته الخبيثة، فعَضَضْته بعنف فازداد تعثره، وسقط على

الأرض فأفلتُّ منه. وتسلّلت بأقصى سرعة من بين أغصان السور وحِزم البردي". وهكذا نَجَوتُ. وظَلَلتُ أعدو غربًا. حتى وصلت إلى منطقة مفترق الطرق. وسمعت الصوت الإشارى للقبيلة "جبتو جبنو". كما سمعت صوت "لابانو" من فوق الشجرة يأمرني. ويأمر شخصًا آخر بعدو خلفي. بأن نتسلق الشجر.. ولجأنا إلى الشجر".

واستطرد لابانو: "بينما كنتُ أنا ولابانا نُشَطّي الصخور للحصول على السكاكين الحجرّية. والأسنان الحادّة التي نربطها في الرماح وعَصيّ الصيد. حَمَلتُ صخرة سوداء وألقيتُ بها على نتوء صخري بارز. فلمحنا نار "نوت" ترعانا وتلقنا أسرارها.. وكرّرتُ إلقاء الأحجار على النتوءات الصخرية. فبرِقَتْ نار نوت من جديد واشتعلت الحشائش الجافة.. وهكذا تعلمنا من وحي نوت العظيمة كيف نشعل النار.. وأشعلنا النار عند مداخل الكهوف.. وذات مرّة. وضعنا لحم الصيد على النار. واستمتعنا بطعم الشواء. وقدّمنا الشكر للربة نوت. وبدأنا نقدّم لها محرّقات على أحجار نارها؛ حتى تصل رائحة شواء المحرقة إلى أنف نوت في السماء"[6].

لما سمع جبتو وجبتانا حكاية إشعال النار التي ذكرها لابانو نظرا لبعضهما. وقد زال عنهما شعور القلق من انطفاء نار نوت. التي تركاها موقدة في معسكر جبتانا منذ الصباح.. فقد صاروا قادرين. منذ الآن. على إشعال نار نوت بالطريقة التي أوحت بها نوت إلى لابانو[7].

وعاودت لابانا الحديث فقالت: ".... اعتادت كوفا وكوفو اللعب بالطين. يحضرانه من أطراف الغدير. وكثيرًا ما كانت تقلّد كوفا بالطين أوعية الشرب التي نتخذها من عُقَل البامبو. كما كانت تقلّد أوعية الصيد الصخرية المسطّحة.. ذات مرة نَسَيتْ كوفا أوعيتها الطينية التي تجففها الشمس. فوق الحطب القريب من النار.. ووصلت نار نوت إلى الحطب أمام الكهف.. وفي الصباح وجدنا أوعية كوفا وقد تحولت إلى أوعية فخارية.. وشعرنا بالامتنان لربة السماء نوت. وأشعل لابانو رأس جَدْي بري في النار؛ فصعدت رائحة الشواء إلى السماء. حيث تتنسمها أنف الربة العظيمة "نوت".

هوامش سِفْر "النار والعالم الآخر"

١- نار الإلهة نوت وحربها ضد المسوخ، صورة ميثولوجية وأخلاقية للآلهة باعتبار الآلهة كائنات خيِّرة تحارب الشر.

٢- الدخان يتصاعد إلى السماء، ليس لأن بعض الغازات أخف من الهواء، ولكن الدخان يتصاعد إلى السماء برهانًا للربة نوت على أن نيرانها على الأرض لا تزال موقدة لخدمة المصريين أبناء الآلهة... وكثيرًا ما تستغلّ المتون الدينية الظواهر الطبيعية لإثبات أمر ما، ومن أمثلة ذلك في التوراه أن قوس المطر (قوس قزح) كلما ظهر في السماء، فإنه يعلن أن "إلوهيم" لا يزال يذكّر الإسرائيليين بعهده معهم.

٣- المزامير والترانيم القديمة: ربما كانت أديان مصر القديمة، تجميعًا لعبادات أسطورية ميثولوجية أقدم؛ فانتقلت المزامير الأسطورية للمصريين، ومنهم انتقلت للعبريين.

٤- التشظية: في العصور الحجرية: كان الاعتماد على الصخور (الحجر) وكانت التشظية تعتمد على ضرب حجر بآخر، أو تسنينه وتحويره بالطرق والسحق وما شابه ذلك...

٥- "سهام رع الذهبية" كناية مصرية لغوية عن نور الشمس متأثرة بتقديس رع؛ وأحيانًا نرى هذه السهام الذهبية مصوّرة في الخراطيش المصرية القديمة.

٦- المحرقة والأضاحي تصل رائحتها أو رائحة دمائها إلى الآلهة... وهذا الاعتقاد أثر من آثار القديم، ناشئ عن الرُؤى الميثوليوجية القديمة التي كانت تسترضي الآلهة والمستبدين من زعماء القبائل.

٧- أوحت نوت إلى لابانو كيف يشعل النار. فالإنسان في طفولته العقلية -لم يكن يثق في ذاته وقدراته، وكان إذا اكتشف أمرًا ما، يردُّ ذلك إلى وحي الآلهة... ولهذا فالكلمات في كافة اللغات متقاربة حول: الوحي، الإلهام، الإبداع، الابتكار، الخلق، الرؤية عن بعد (التلباثية) والرؤيا (رؤيا المنام)...

سِــفْــرُ التَّــثْــنِيَة

الإصحاح الأول

سار الجميع شرقًا في اتجاه النيل وقرية جبتانا.. وكان جبتو وجبتانا سعيدين بهذه التثنية، التي جمعت بينهما وبين مجموعة الجبتيين الفارين إلى الكهوف.. وكذلك كان هؤلاء اللاجئون، سعداء بهذه التثنية بينهم وبين الاثنين اللذين بقيا على قيد الحياة في قرية جبتانا.

وتزداد الخضرة كثافة، كلما اتجه الجبتيون شرقًا، وتكثر المياه والغدران والأشجار والخمائل، وتترقرق الجداول بالمياه.. ومن آن لآخر تطارد كلاب الأنوبيس القردة؛ فتفر القردة بحركاتها السريعة إلى الأشجار، مُحدِثةٍ ضجيجًا صاخبًا.

وتنزل الكلاب إلى أحد الغدران لتشرب، ولكنها تنبح بشدّة وتتّجه لمطاردة تمساح قد استلقى مستدفئًا بشمس آخر النهار.. وتطارد مجموعة من الكلاب تمساحًا صغيرًا، وكأنها تحاول افتراسه، ولكنها لا تصر على ذلك؛ لأن التمساح يتوقف فاغرًا فاه، فيخيف الكلاب.. ويزداد نباح الكلاب كلما اقتربت من قرية جبتانا، كما يزداد ضجيج القردة فوق الأشجار، وتتوارى التماسيح في الأدغال والمياه الضحلة.

وبتوجيه من جبتو، يتقدم الجميع بحذر، فيشربون من ماء غدير ضحل، مستخدمين أوعية البامبو والفخار.. ويرمي جبتو وجبتانا ببعض الأحجار في الغدير، ولمّا تأكدوا أن لا تماسيح في الغدير، نزل جبتو وعزل جدولاً صغيرًا، بسد من الطين، وأخذ يمسك الأسماك ويلقي بها إلى الشاطئ.. واشترك كوفا وكوفو وبقية الصبية والغلمان في جمع ذلك الصيد الغريب المبلل بالماء، وهم مندهشون من الحركات الغريبة لذلك الصيد.

بدأ الجميع في جمع الجذور والموز الأخضر.. بينما جمع "لابانو" كمية من الحشيش الجاف والحطب والأغصان، وأمسك بحجر أسود، جعل يضرب به حجرًا آخر؛ فلمعت نار نوت، واشتعلت الحشائش الجافة فزادوها حطبًا، وأخذ الغلمان والبنات يضعون الأسماك فوق النار، ويراقبون حركاتها العنيفة حينما توضع في النار، ثم يستخرجون من النار ما طاب من هذا الصيد.. وبدأت وجبة المساء.. وشبعت الكلاب من بقايا السمك، وذهبت تبحث عن الماء، تاركة الفرصة للقردة، كي تأخذ

نصيبها من الطعام.. وتذكّرت جبتانا الربة "نوت" العظيمة واهبة النار؛ فطردت القردة، ووجدت رأسين كبيرين لسمكتين من أسماك القرموط، فنظفتهما من ماء الجدول، ووضعتهما على النار التي كانت مشتعلة؛ فبدأت عظام السمك تشتعل ويرتفع دخانها إلى السماء حيث تقيم الربة نوت، ورفعت جبتانا يديها في اتجاه نوت مرددة مزمورها: "أيتها الأم السماوية والربة العظيمة نوت.. يا مَنْ تبتلعين الشمس في آخر النهار وتلدينها من جديد مع مشرق كل صباح.. يا مَنْ تتحولين حين تشائين إلى حتحور، أيتها الراعية لأبنائك على الأرض، والأم الحنون لكل امرأة أثناء الولادة.. نشكر لك أن هديتنا إلى سر نارك المقدسة طاردة المسوخ والتنانين ومنضجة الطعام الذي هو سر الحياة.. لك أيتها الأم المجد في الأعالي، ونقدّسك مع أبيك السماوي رع، سيد التاسوع المقدس.. نرفع لك هذه التقدمة المتواضعة مُحَرَّقَة تصل رائحتها إلى أنفك في السماء اعترافًا بفضلك.. هيلا.. هيلا.. هيلا".

حلّ الغروب، ونظر الجميع إلى القرص الذهبي لرع، حين يتلوّن بلون الدم، قبل ان تبتلعه "نوت" التي تتحوّل إلى "حتحور"، واختفى القرص الدامي. فأخذ جبتو يستحث الجميع على الإسراع في المسير ليصلوا إلى المعسكر في الوقت المناسب؛ فهو لا يزال يخشى خطر المسوخ، كلما أقبل الليل، كما أنه لا يزال يخشى انطفاء نار نوت، بالرغم من علمه أن "نوت" كشفت للابانو طريقة إشعال النار.

الإصحاح الثاني

صارت القرية على مرمى حجر من الركب، وأخذت الكلاب تنبح، وبدأت تعوي بصوت يُؤْذِن بالخطر، وزاد صخب القردة فوق الشجر، وشعر جبتو ولابانو والجميع بالقلق، وزاد من القلق انتشار رائحة المسوخ الخبيثة.. وفجأة توقف جبتو، وأخذ يجمع الأعواد والحشائش والأوراق الجافة، وفعل الجميع مثلما فعل جبتو، واستخدم جبتو بعض الأعواد الخضراء، وكوّر على أطرافها حشائش جافة، لتكون على هيئة مشاعل.. وبإشارة من جبتو أعمل لابانو حجريه، واشتعلت النار في الحشائش الجافة، وأمسك كل فرد بمشعل أو مشعلين، وتقدموا إلى المعسكر بعد الغروب بقليل.

حين دخول المعسكر، اختلطَتْ أصوات الكلاب، مع أصوات القردة على الأشجار، بأصوات المسوخ وهي تفر مذعورة لمرأى نار نوت، ويعوي أحد الكلاب، ثم يصمت نهائيًا ويبدو أنه تجرأ فهاجم أحد المسوخ؛ فسحقه المسخ بأقدامه.

أسرع جبتو فأضرم النار في الخندق المحيط بالبيت القديم لجبتو مصرايم؛ فتأججت النار في الغصون الجافة وفي حزم البردي واللوتس والبوص، حتى أن الجميع رأوا أشباح مسوخ الأوثان والتنانين وأبي الهول وهي تفرّ مذعورة متوارية من النار بالأشجار.

سعد الجميع لهروب المسوخ، وبدأت رائحتها الكريهة تتلاشى تدريجيًا.. وأخذت جبتانا تمدُّ النار بالغصون الجافة والخضراء، لتطمئن على أن النار سوف تظل مشتعلة حتى الصباح.

وضع كل رجل وامرأة من القادمين من منطقة الكهوف مشاعله في مكان من ساحة القرية، وأشعلوا نيرانهم، وحول النيران أخذوا حزمًا من البردي واللونس والبوص لتكون فراشًا وغطاءً لهم من برد الليل، وكذلك فعل الصبية والغلمان.

وبدأت القرية تخلد إلى النوم، وفجأة، نبحت الكلاب من جديد، واضطربت القردة على الأشجار وزاد ضجيجها، وسمع الجميع صوتًا منكرًا صادرًا عن أحد

المسوخ. أعقبه أصوات صراع بين وحوش الليل، واتجهت الكلاب إلى مكان الصوت... ومن جديد أمر جبنو الجميع بإعداد المشاعل، واتجهوا إلى مصدر الصوت بحذر شديد.... حينما اتجهت المشاعل والنيران إلى مصدر الصوت، بدأت وحوش الليل تهرب من المكان... ووصل الجميع إلى مكان مكشوف قرب البحيرة، وما إن رأتهم التماسيح المتجمعة لنهش جثة أحد المسوخ حتى ولّت إلى الماء مذعورة... قرَّبوا المشاعل من المسخ النازف، وأدركوا أن المسخ ربما لدغته أفعى فترنَّح، وتجمَّعت عليه وحوش الغابة وتماسيح الماء. ولأول مرة يرى الجبتيون مسخًا من مسوخ الأوتان، وجه بشري وجسد من أجساد القرود العملاقة، وأرجل كأرجل البقر.

شعر الجبتيون بالسعادة لمقتل المسخ عند أسوار جبتانا، وأحسوا بالتفاؤل لأن الإلهة نوت معهم، بل إن مجمع الآلهة التسعة معهم... وقرّر جبنو والجميع أن يقدِّموا جثة هذا المسخ قربانًا للتاسوع المقدس... رُبِطَت أقدام المسخ بالألياف والنباتات المتسلقة، واشترك الجميع في سحب بقايا الجثة الثقيلة حتى وصلوا بها إلى الخندق المحيط ببيت جبنو، حيث لا تزال النار مشتعلة، وسُحِبَت الجثة إلى النار، ووُضِع المزيد من الحطب والحزم الجافة، واشتعلت النار في الجثة بين رقص وجلبة الجبتيين، وتلاشت رائحة المسخ الكريهة، وحل محلها رائحة شواء المسخ الصاعدة قربانًا إلى التاسوع الإلهي في السماء... واقتربت الكلاب من النار ومن أهل القرية، منتظرة نصيبها من الشواء، وفجأة انفجرت جمجمة المسخ مُحْدِثة صوتًا عاليًا؛ فهربت الكلاب عند الأسوار، واتجه الجميع إلى مراقدهم.

الإصحاح الثالث

مع تقدّم شهر بؤونة وموسم الفيضان، ازدادت حرارة الجو، وأصبحت الرطوبة خانقة، وصار الضباب يخيّم على القرية وعلى الغابة كلها في الصباح.. وارتفعت المياه في النيل، وفي الخمائل والغدران والجداول المتصلة بالنهر العظيم، ولولا أن المعسكر يقع فوق هضبة لوصلت إليه المياه.

ازدادت كلاب الأنوبيس اقترابًا من الجبتيين؛ فقد ألجأها الفيضان إلى الاحتماء بأسوار المعسكر، والتوالد تحت نباتات سور المعسكر، التي دبّت فيها الحياة لتسرُّب المياه إلى الأجزاء المطمورة في الخندق، وتحوّلت إلى أشجار بعضها من الجميز، وبعضها الآخر من الصفصاف والكافور والحور...

وتكاسلت الكلاب عن الصيد إلا قليلاً، وتعوّدت على بقايا الطعام التي تُقَدَّم لها... بل ورضيت اقتسام البقايا مع القردة التي تعوَّدت -هي الأخرى- على اختطاف ما تصل إليه من بقايا الطعام.

في منتصف شهر أبيب وصلت مياه النيل إلى ذروتها حتى غطت خندق السور الخارجي، وأصبحت الحرارة خانقة... وفي الليل كثر البعوض وضايق الجميع، حتى أنّ النوم جافاهم، وصارت تسمع ضربات أكفهم على الأجزاء المكشوفة من أجسادهم، وبنصيحة من جبتو، طلى الجميع أجسادهم بالطين الأحمر الذي يرسله "حابي" مع المياه المتدفقة.

كانت جبتانا تشعر بآلام شديدة، أفهمتها لابانا أنها آلام اقتراب الولادة.. ظلّت جبتانا قلقة طوال الليل، ولزمت الخص ومعها لابانا، وعلى حين نام الجميع، رقد جبتو ولابانو على حزم البردي واللوتس القريبة من النار.

نبحت كلاب الأنوبيس بشدة، وبدا كأنها تطارد شيئًا ما، وجاوبتها القردة على الأشجار؛ فهب جبتو من النوم مذعورًا، وكذلك استيقظ لابانو، ووضعا مزيدًا من الحزم الجافة على النار التي تأججت وارتفعت ألسنتها في الهواء... وشم رائحة المسوخ الخبيثة، التي ما لبثت أن خفّت تدريجيًا... وشعر جبتو بقلق عميق، فقد أدرك أن المسوخ لا تزال تراقب المعسكر، أملاً في المزيد من النساء،

وشعر كذلك، في هذه اللحظة، بقيمة العدد؛ إذ كلما زاد عدد القبيلة كان ذلك أدعى إلى الشعور بالقوة والأمن؛ وأخذت جبتو ولابانو سِنة من النوم.

وصرخت جبتانا: فاستيقظ جبتو ولابانو، وساد الصمت لفترة شعر أثناءها جبتو ولابانا بالقلق.. ثم صرخت مرّة ثانية، وبعد دقائق من الهدوء خرجت لابانا من الخص تعلن عن ميلاد طفلين: أشارت بإصبعها للمتحلّقين حول النار قائلة: "كونا".. ثم أشارت مرة ثانية وقالت: "كونو".

شعر جبتو ولابانو وبقية الجبتيين المتحلّقين حول النار بالسعادة لميلاد طفلين. وأحس جبتو بأن رع وحتحور ونوت وبقية التاسوع كانوا معه، إذ دعا الآلهة وابتهل إليها، أن يزداد عدد أهل جبتانا بحيث تستطيع أن تتصدّى لما تأتي به الأيام.. وانتبه جميع المتحلّقين حول النار، فإذا بجبتو قد رفع يديه إلى السماء، حيث يقيم الآلهة، ويردّد هذه الترنيمة أو "السورتا" [1] : "أيتها الربة حتحور.. يا سيدة الجبلين.. يا راعية الحوامل، وراعية انقسام الأنفس ساعة الميلاد، وراعية الأطفال الرّضّع.. يا واهبة النسل الجديد الذي نتقوّى به نحن سلالة جبتو مصرايم.. لك المجد في السماء، ولك الأبدية والخلود.. أيتها الربّة حتحور.. أيتها الجميزة المثمرة والتينة الضخمة، وكما تملأ الجميزة والتّينة الأرض بثمارها، ندعوك أن تهبينا المزيد من النسل؛ حتى نصير كنجوم السماء، ورمل الصحراء في العدد، فنصبح أقوياء، لا يتغلب علينا أحد حتى المسوخ والتنانين وشياطين الظلام.. هيلا.. هيلا.. هيلا".

دخلت لابانا مع جبتانا في الخص، وخيّم الهدوء على قرية جبتانا حتى أطل رع بسهامه الذهبية.

الإصحاح الرابع

مع نهاية شهر مسرى بدأت مياه النيل في الانحسار. ذلك أن حابي إله النيل والمياه، الذي يقيم في جنات عدن. كان في نهاية مدة استخدامه للشادوف [1] المقدس الذي صنعه له الإله "بتاح". والذي نصباه عند البوابة الذهبية لمنبع النيل. لقد استمر حابي يعمل بشادوفه المقدس طوال أشهر الفيضان الثلاثة، بؤونة وأبيب ومسرى. وآن له أن يرتاح. استعدادًا للعمل بالشادوف السماوي في العام القادم، لنقل المياه من جنات عدن إلى بوّابة النيل الذهبيّة... بعد توقف الفيضان تخلّفت بحيرات وبرك ومستنقعات وأدغال مليئة بالطيور والأسماك، وبثمار أشجار الموز والنخيل والعنب والرمان... كذلك جفت أراضي الغابات وامتلأت خضرة. كما امتلأت بأعداد من أسراب البقر والوعول والغزلان والخنازير وكافة فصائل الحيوان.

لا يزال جبتو يصاب بالحيرة، إذا ما تذكّر "جبتو مصرايم". فرأى صورته بعين خياله، أو رآها فيما يرى النائم. في حين أنه يعلم أن جبتو مصرايم الجسد. لا تزال جثته راقدةً في خندق السور... واستقر قلب جبتو على ضرورة وجود عالم آخر أثيريّ، غير هذا العالم الترابي، يصل إليه الجميع، بعد الموت، بأرواحهم. ووصل جبتو إلى أن للجسد صورة نتخيّلها ونراها في الأحلام وهي قرينة الجسد وأخت له، وسماها "كا". كما أن في الإنسان، لأنه ابن الآلهة، روحًا أثيرية تصعد عند الآلهة، حال موته، وسماها "با". [2]

نُظّمت الأخصاص في قرية جبتانا، لكل أسرة خصها، وللأطفال والغلمان الذين فقدوا أمهاتهم عدة أخصاص متجاورة. كذلك نُظّمت نار القرية، وهي قريبة من خص جبتو وجبتانا. حفروا للنار خندقًا صغيرًا وحدّدوه بالأحجار، وجعلوا الطرف الجنوبي من النار بمثابة مذبح، تحرق عليه القرابين لتاسوع الآلهة... وصارت لهذه النار قداسة عند أهل جبتانا. حتى أنهم كانوا يصرّون على استمرار اشتعالها، ليس فقط خوفًا من المسوخ، بل تقديسًا للربّة "نوت" وتاسوع الآلهة.

ومع تزايد عدد كلاب الانوبيس في القرية، قلّ خطر التماسيح والسباع. حيث كانت كافة فصائل الحيوان تخشى بأس هذه الكلاب الناجحة. والمتعاونة في مطاردة الفرائس والحيوانات.

عادت جبتانا ولابانا ومجموعة من البنات من رحلة صيد، ومعهنّ كمية من السمك وعدّة إوزات، بالإضافة إلى عدد من البيض جمعنه في السلال وبعض الموز والثمار...

وأطمأنت جبتانا على طفليها اللذين تركتهما في رعاية كوفا ابنة لابانا.. وجدت جبتانا ولابانا مع كوفا جروين صغيرين من جراء القطط، يلتصقان بها كلّما نبحت الكلاب... وضحكتا حين رأتا الجروين يلتصقان بكوفا، ويتركان بقايا السمك التي وضعتها لهما، حين سمعا صياح جبتو ولابانو وبعض الفتيان، وقد دخلوا المعسكر ومعهم وعل كبير، يحاولون دفعه في اتجاه طرف البحيرة لذبحه وتنظيف لحمه، بينما الكلاب تنبح من حولهم، والقردة على الأشجار تحدث ضجتها المعهودة.

التأم شمل القرية، وابتهج الجميع واشتركوا في إعداد الطعام... وأكل الجميع وشربوا، وأكلت كلاب الأنوبيس حتى توقفت عن النباح وعن العراك وراحت تبحث عن الماء، فنزلت القردة، تبحث عن نصيبها من البقايا.

ولم ينس جبتو "رع" رب الأرباب، كما لم ينس "نوت" سيدة السماء وبقية تاسوع الآلهة، فجمع رءوس الأسماك والوزات ورأس الوعل وأرجله وأحشاءه، وألقى بها في الجزء المخصص لأضحيات الآلهة في طرف النار؛ فاحترقت الأضحيات وصعدت رائحتها ودخانها إلى السماء حيث تقيم الآلهة.

شعر جبتو بتلك الحالة الروحية التي تنتابه، حين يحدّثه قلبه بأن ما يفكّر فيه يأتيه من وحي الآلهة، فبدأ يحدّث نفسه قائلاً: "لماذا يتصاعد دخان الأضاحي إلى السماء؟! إنه يصعد إلى حيث تقيم الآلهة، فيكون نسمة رضا، تحس بها أنوف التاسوع المقدس... إن الآلهة تحبّ الروائح الجميلة، كروائح البخور والخشب العطري، كما تحبّ رائحة الأضاحي التي تُحرَق من أجلها على مذابح النار... لا بد وأن تكون الآلهة أثيرية وهوائية؛ ولهذا فهي تقيم في الأعالي... إن "جبتو مصرايم" الذي أراه بنور قلبي، والذي أراه أحيانًا في المنام، لا بد وأن يكون له وجود آخر باقٍ

سرمدي كالآلهة.. إن الجسد يفنى لأنه من تراب الأرض وطعامها، أما الأخت أو القرين "كا"، وكذلك الروح الإلهية "با" فلا يمكن أن تفنى؛ لأن كل شيء ذا صلة بعالم الآلهة لا بد وأن يكون سرمديًا وخالدًا...".

الإصحاح الخامس

جلست كوفا ومجموعة من البنات والأطفال يداعبون القطتين الصغيرتين. ولاذت القطتان بكوفا عندما تحرّش بهما أحد جراء الكلاب... واستشعرت كوفا الخطر على قطتيها؛ فقامت على الفور بإعداد خص صغير للقطتين، مستخدمة بعض الأغصان الصغيرة وشيئًا من البردي واللوتس... وتركت كوفا الخص الذي لا يتجاوز ركبتيها، وأخذت تصنع من طمي النيل بعض الأواني... وطرأت على رأسها الصغير، فكرة طلاء خُصّ الجروين بالطمي... ولمّا جفّ الطمي أعجب الجميع بمنظر الخص المطلي بطمي النيل الأحمر.

وبدأ الرجال والنساء والفتيان والفتيات، ومعهم الأطفال، في طلاء الأخصاص بالطمي، وكانوا كلّما وجدوا فتحات كبيرة في الأخصاص، يَسُدّونها بالحشائش وأغصان الشجر الرفيعة والأوراق قبل الطلاء بالطمي. وأحيانًا كانوا يخلطون الطمي بالحشيش قبل الطلاء.

كان جبتو ولابانو وبعض الرجال في رحلة صيد، فلمّا عادوا، ربطوا فرائسهم بحبال الليف، وأخذوا يمعنون النظر في الأخصاص المطلية بطمي النيل، وأعجبتهم الأخصاص بشكلها الجديد المتناسق، وأمر جبتو الجميع بطلاء الأخصاص من داخل ومن خارج... وتذكّر جبتو الكهوف التي عاش فيها طفلاً، وفتحاتها التي كانت تغلق "بالدلتا" أو الأبواب [٤] والتي كانت عبارة عن حجر مثلث رقيق يُسَدُّ به باب الكهف، فأمر جبتو الجميع باستكمال الحائط الرابع من كل خص وترك فتحة على شكل مثلث تكون بمثابة باب للخص، كما أمرهم بصنع أغطية لهذه الفتحات، كل منها على شكل مثلث أو دلتا؛ لسد تلك الفتحات عند اللزوم.. وصار للجبتيين أخصاص طينية، ذات أبواب على شكل الدلتا أو المثلث.

حين اقترب المساء، ذُبِحَت الفرائس، وتمّ شواؤها، ووُضِعَت اللحوم في الأواني الفخارية والحجرية، كما قُدِّم البيض المشوي والموز والجذور الدرنية، وأكل الجميع، وشبعت الكلاب من البقايا؛ فتركت للقردة نصيبها.

ولمّا ابتلعت ربّة السماء "نوت" قرص الشمس، قام جبتو فوضع رءوس الفرائس في النار: فتصاعد دخانها إلى السماء، يحمل رائحة الشواء، تقدمة مساء لتاسوع الآلهة في السماء.

ومع اعتدال الجو في شهر تحوت، وضعت جبتانا توأمين آخرين هما "شاسو" و"شاسا". وابتهج الجميع بذلك، خصوصًا جبنو الذي صار كاهن القرية وزعيمها، والذي كان مشغولاً بموضوع عدد أفراد القبيلة، وصلة العدد الكبير بالأمن؛ إذ بالرغم من "التثنية" التي حدثت بين جبتو وجبتانا، ولابانو ولابانا وبقية الجبتيين الفارين إلى منطقة الكهوف، فإن العدد لا يزال قليلاً، على الأقل من وجهة نظر جبتو، الذي تشغله قضية "العدد" وأمن القبيلة.. ومع هذا سُمِعَت جبتانا، وهي تُرْضِع طفليها، تردِّد هذه الترنيمة: "أيتها الإلهة الأم نوت، يا سيدة السماء، يا واهبة النار والدفء، ويا حامية أبنائك من المسوخ والتنانين، ويا راعية الوالدات ساعة المخاض، ويا مبتلعة رع، ومعيدته مع كل صباح، ويا مُكَثِّرة نسل ابنك جبتو مصرايم، ليكون كنجوم السماء ورمل الصحراء.. لك منا الشكر.. أيتها الربة حنحور "يا راعية كل أم ساعة الميلاد، ويا مُخَفِّفة آلام من تلدغهم الحية والعقرب، ويا مزيلة الأوجاع التي ترسلها الآلهة والمردة والشياطين، ويا راعية كل مولود يخرج من الرحم ليتنسّم هواءك ليعيش، يا معلمة الحب والحنان، سوف نهب لك أيتها الأم، كلّ الأخشاب العطرية التي نجدها في الغابة، فنحرقها على مذبحك المقدس، لتصل أرواحها إليك في السماء.. هيلا.. هيلا.. هيلا".

كان لابانو قد أحضر أغصانًا من شجرة الكافور المقدسة، فلمّا سمع المزمور[٥] الذي ردّدته جبتانا؛ شعر بالرضا والخضوع للآلهة، وأسرع فوضع أغصان الكافور في النار؛ فانتشرت رائحة الكافور، وصعد دخانه إلى السماء.. سعد الجميع وتفاءلوا، إذ شعروا أن الآلهة معهم، وشعر لابانو بأن السماء كانت معه، حين أرادت هذه "التثنية" بين المجموعتين الجبتيين حتى يستمر نسل "جبتو مصرايم" الذي هو من نسل الآلهة.

هوامش سِفْر "التَثْنِية"

١- سورتا: هي كلمة مصرية وسامية بمعنى "النص"، ولعلها مخصوصة لنصوص التـرانيم المقدسة، وربما كانت كلمة سورة (من سور القرآن الكريم) ذات صلة بالسـورتا ـ راجـع: لـويس عوض: مقدمة في فقة اللغة العربية.

٢- شادوف: كلمة مصرية قديمة، علم على أول آلة لنزح ونقل المياه، تعتمـد علـى فكـرة الروافع، وهناك أسطورة قديمة عن شادوف "بتاح" الذي أعطاه لحابي إله النيل والمياه؛ لينقل به المياه من جنات عدن إلى بوابة النيل الذهبية... وهناك مَـنْ ينسب الشادوف إلى مبتكرات أوزوريس (راجع منقولات بلوتارخ. برديات جاردنر. بردية تورينو).

٣- وصل المصريون، عند أواخر ما قبل التاريخ،وأوائل التاريخ، إلى وجود عالم آخر تعيش فيه الروح "با" معتمدة على التعرُف على قرين الجسد "كا".

٤- كلمة "دلتا" كلمة مصرية قديمة، تـُطـلْـَق على الحرف الرابع المصري: [ألفا -بيتا - جيميل (جاما اليونانية) دلتا] كما تـُطـلْـَق على باب الخـُصّ الذي على هيئة المثلث، وتـُطـلْـَق أيضًا على المثلث كشكل هندسي.

٥- مزمور: كلمة مصرية وسامية، تـُطـلْـَق على الترنيمة أو السورتا المقدسة... وحـين اكتشف الإنسان اللغة كوسيلة اتصال، وأداة يعمل بها العقل، أعجب الإنسان بقدرته اللغوية واعتبرهـا هبة إلهية. (راجع: لويس عوض).

سِفْر "الاستئناس والتدجين"

الإصحاح الأول

استقرّ الحال بالعائلة المقدسة الجبنية، التي هي من نسل الآلهة، في قرية جبتانا.. ودار القرص الجنح للشمس حاملاً الإله الأعظم "رع" عدّة مئات من المرات، وتوالى التغيّر على الوجوه الفضية لخنصو إله القمر مرات ومرات.. وأعمل حابي، إله النيل والمياه، شادوفه السماوي، فأجرى النيل بالمياه والطمي عدة فيضانات؛ فزدادت الخضرة، وكثافة الأشجار والأدغال، المحيطة بجبتانا، وامتلأت الأرجاء بالفرائس وحيوانات الصيد والزواحف والطيور والوحوش وأفراس النهر والتماسيح..

في يوم من أيام بؤونة، حيث الحرارة والرطوبة، عاد جبتو ولابانو وكوفو ومجموعة من الشباب والرجال، من رحلة الصيد التي تبدأ قبل مشرق رع، محمّلين بكثير من الخيرات والفرائس. واستقبلت جبتانا ولابانا وكوفا وبعض الفتيات، العائدين الذين طرحوا ما يحملون من ثمار وصيد قريبًا من خص جبتو عند نار نوت المقدسة: سلال مُلِئت بالموز والعنب وبعض الجذور، وسلتان بهما سمك، وعدَّة أوزات وبطات رُبِطت بالحبال من أرجلها. وربط جبتو بقرة في أصل شجرة مجاورة، وأنزل لابانو من على كاهله وليد البقرة الصغير.

أُشعِلت النيران، وأُعِدّ طعام الصباح، وأكل الجميع وشربوا، وأُلقِيت البقايا للكلاب عند الأسوار، وتعاركت القردة مع الكلاب لاختطاف نصيبها من البقايا، ولم تنس كوفا قطتيها.

قُدِّمت الرءوس للآلهة، ووُضِعَتْ على النار؛ حتى تتنسّم الآلهة رائحة الأضاحي في السماء.. ثم وضع لابانو غصونًا من خشب الكافور على النار، فاحترقت، وشمَّ الجميع الرائحة الطيبة للكافور، التي تصاعدت إلى حيث الناسوع السماوي.

بعد وجبة الصباح، انشغل الرجال والشباب وبعض الفتيات والأطفال، بإعداد حظيرة لقرية جبتانا، وكما قاد جبتو ترضية الآلهة بإصعاد رائحة المحرَّقات، كذلك قاد الجميع في إقامة حظيرة جبتانا.

اختاروا الركن الجنوب الشرقي من المعسكر لإقامة الحظيرة، وأغلقوا هذا الركن بضلع يكمِّل مثلث الحظيرة. حفروا هذا الضلع ووضعوا فيه الأغصان وحزم اللوتس والبردي، وتركوا دلتا أو بابًا للدخول والخروج.. وُضِعَت البقرة وولبدها في الحظيرة وأُغْلِقَت الدلتا، وأُلْقِي للبقرة كمية من الأغصان المورقة والأعشاب الخضراء.

تكوَّنت خلف الأسوار داخل القرية بركة غمرتها مياه الفيضان التي تسرَّبت إلى هذا المكان المنخفض. فذهب الرجال والشبان والأطفال للاستحمام في مياه هذه البركة الآمنة التي لا تصل إليها التماسيح... وخرج الرجال والشبان من الماء واستلقوا تحت ظلال الأشجار، بينما ظل الأطفال يعبثون في هذه البركة الصغيرة.

انتبه الجميع، على صراخ الصغار، ونباح الكلاب، وضجَّة القردة على الأشجار، وبدا الصغار: كوفو وكوفا وكونو وكونا وكأنَّهم يطاردون شيئًا في الماء، ونظر الكبار إلى حيث ينظر الصغار: فوجدوا طائرًا ضخمًا من نوع الرُّخ [1] وبين مخالبه طفل صغير، ونظرت جبتانا. فأدركت ما حدث وانفجرت باكية: فقد اختطف ذلك الوحش الطائر صغيرها "شاسو" الذي كان يحبو بجوار الخص.. ساد الوجوم... ولفَّ القريةُ كلَّها صمتٌ كئيب... وصمتت الكلاب عند الأسوار، كما صمتت القردةُ فوق الأشجار.

الإصحاح الثاني

أصدر جبتو أوامره بأن يحرس الصبيان والغلمان الأطفال الصغار حين لعبهم خارج الأخصاص. كذلك ألزم الجميع بحمل الحراب ذات الرءوس الحجرية، حتى وهم في داخل أسوار جبتانا... وتحسبًا لهذه الوحوش الطائرة، وزيادة في الأمان، أشار جبتو بغرس الأغصان في ساحة القرية. وقريبًا من الأخصاص وأحجار النيران: اشترك الجميع في حَفْر الحُفَر، ووضعوا الأغصان قائمة في تلك الحُفَر، ثم أُعِيْدَ التراب. فبدت ساحة القرية كأنها حديقة متراصّة الأشجار، وأصبح من الصعب على الوحوش الطائرة أن تقوم بحركة الانقضاض، فتخطف الصغار أو جراء الكلاب أو لحوم الفرائس.

قبل الغروب، أخرج جبتو البقرة الرضيعة من الحظيرة وذبحها عند أطراف البحيرة وجهزّها للشواء.. وتحلّق الجميع -واجمين- حول الجذور والموز والشواء... وانفض العشاء سريعًا... ورفضت جبتانا العشاء، واستمرت في النحيب على صغيرها شاسو الذي اختطفه الرُّخ.

في هدأة الليل، وقف لابانو يضع أعوادًا جافة وأغصانًا على النار؛ لتزداد اشتعالاً، ولم تكن النار في حاجة إلى المزيد، ولكنه كان يشعر بالقلق والأرق، فأراد أن يشغل نفسه بشيء ما... وكان جبتو في حالة أسوأ من الأرق: فقد فقد صغيره شاسو، فضلاً عن أن بكاء جبتانا ونحيبها قد زاد من شعوره بالضيق والقلق والأرق؛ وما زاد الأمر سوءًا أن البقرة الأم، بعد أن ذُبح وليدها، ملأت أرجاء القرية بخوارها ونعيقها.. وتفقّد جبتو ولابانو أنحاء المعسكر المختلفة، بما في ذلك الحظيرة، وشعرت بهما الكلاب والقردة فزاد النباح والضجيج.. واستلقى جبتو ولابانو بجوار النار، وظلا صامتين حتى غلبهما النوم في الهزيع الأخير من الليل.

استيقظ الجميع على خوار محموم للبقرة، واتجه بعض الغلمان إلى الحظيرة، وألقوا بالمزيد من الأغصان المورقة أمام البقرة، ولكنها عافت الأوراق الخضراء واستمرت في نعيقها، قدّموا لها الماء في وعاء صخري كبير، فشربت، ثم عاودت النعيق.

مع فجر هذا اليوم، بدأت جبتانا تعاني من آلام في ثدييها؛ ذلك لأن شاسا الصغيرة زهدت في الرضاعة، حين اختفى منافسها "شاسو". وفضّلت السمك المشوي والموز.. واحتقن ثديا جبتانا، وزادت آلامها مع مشرق الشمس، فأخذت تعتصر ثدييها من شدة الألم؛ فسال ذلك السائل الأبيض، وشعرت جبتانا بالراحة، فاستمرت في اعتصار ثدييها حتى زالت آلامها.

سمعت جبتانا نعيق البقرة العنيف، فاتجهت إلى الحظيرة، حيث وجدت لابانو وجبتو يستعدان لإخراج البقرة لذبحها تخلصًا من نعيقها.. نظرت جبتانا إلى ضرع البقرة فوجدته منتفخًا وملتهبًا، فتذكرت حالتها وأدركت أن حال البقرة من حالها، فدخلت إلى الحظيرة وربّتت على ضرع البقرة التي استسلمت لها، فأخذت تعتصر أخلاف البقرة فسال ذلك السائل الأبيض، وأشارت إلى كونا التي كانت تحمل وعاءها الفخاري، فملأت للطفلة وعاءها باللبن، وملأت أوعية أخرى، واستطاب الجميع طعم ذلك السائل.. وأرادت كوفا المزيد فصاحت: "لابا". فحلبت لها لابانا المزيد من ذلك السائل الشهي، الذي أطلقوا عليه اسم "لابانا" [1] وهدأت البقرة، وأخذت تأكل الأعشاب والأوراق الخضراء.. وفي المساء حين نعقت البقرة مرة ثانية، تمّ حلبُها، وامتلأت أوعية فخارية باللبن.

في اليوم التالي، كان الصيد قليلاً، وأراد جبتو ولابانو ذبح البقرة الأم، فاعترضت لابانا وجبتانا، وأمرتا الفتيات والغلمان بإحضار المزيد من البيض والموز لوجبة الضّحى.. وصار للقرية ولأهل جبتانا حظيرة، وكلّما اصطادوا بقرة ذات ولدٍ، فإنهم يأكلون الصغير، ويتركون البقرة الكبيرة للحصول على اللبن.

(.. أثبت -أنا مانيتون السمنودي- سورتا أو ترنيمة اللبن التي نسخها بعض تلاميذي عن متون الأهرام، وتحكي هذه المتون عن ترنيمة، في عصر ما قبل إيزيس وأوزوريس، تُسَمَّى ترنيمة "اللبن والبقرة حتحور".. تقول الترنيمة: "أيتها الأم البقرة السماوية حتحور، يا خالقة السائل الأبيض، سائل الحياة الثاني [2] تعطيه الأم لأبنائها، وتعطيه البقرة لوليدها، وتعطيه أيضًا لأبناء جبتو مصرايم، أيتها الأم البقرة حتحور، لك المجد في السماء، فأنت تستحقين مكانك في قدس أقداس التاسوع، فأنت واهبة السائل (الأبيض) مثلما كان رع وبقية التاسوع مسئولين عن سائل الحياة.. هيلا.. هيلا").

بعد عدّة أشهر، دبّت الحياة في أغصان النباتات التي زُرِعت في ساحة القرية، وظهرت البراعم، بل وظهرت بعض ثمار الجميز.

(... وأسجّل -أنا مانيتون السمنودي- هذه الترنيمة أو السورتا القديمة، وهي بعنوان "نرفع الشكر لجب الذي مكّننا من استئناس النبات ونقله في أي مكان". تقول السورتا: "أيها الإله العظيم جب، يا ابن "تشو" و"تِفْنُوت"، اللذين خلفهما أتوم رع بكلمة الخلق وسرّ التكوين، يا توأم "نوت" سيدة السماء، نسجد لك ونمجّدك لأنك مددت يديك للجبتيين، أبناء جبتو مصرايم، والذين هم من نسل الآلهة، وعرّفتنا كيف نتحكّم في الشجر الأخضر، وننقله ونزرعه في أي مكان من جسدك، الذي هو الأرض"..) [٤].

الإصحاح الثالث

مرّت أيام الحر القائظ من بؤونة وأبيب ومسرى وأيام النسيء، ومرّت -كذلك شهور بابة وهاتور من العام الجديد؛ وفي شهر كيهك، تمّ توسيع ثانٍ للحظيرة، ووُضِع فيها المزيد من البقر والنعاج وإناث الأيائل..

في يوم بارد من أيام طوبة، وقبل الغروب بقليل، أُعِدَّ الشواء والطعام قريبًا من نار القرية، وانتظر الجميع عودة جبتو ولاباتو ومعهما مجموعة من الفتيان من الصيد ليتحلّق الجميع حول الطعام.. وأقبل الصيادون، بزعامة جبتو، يقودون ثورًا ضخمًا يسيطرون عليه بصعوبة، وبعد مجهودٍ استطاعوا الزجّ به في الحظيرة.. ثم تناول الجميع العشاء.

بعد العشاء، وقبل أن يتكاثف الظلام، اتجه جبتو إلى الحظيرة، ليضع مزيدًا من الأغصان المورقة والأعشاب للحيوانات المستأنسة. فرأى الثور الجديد وهو يعلو البقرة الأولى ويطرُقُها؛ فشعر بالإعجاب بفحولة الثور الجديد... وتبادر إلى ذهن جبتو أن يُسمّي البقرة الأولى؛ فسمّاها باسم الربة "حتحور"؛ وسمّى الثور باسم "أبيس"؛ وأبيس اسم كانت تطلقه قبيلة جبتو مصرايم، على كلِّ ذكرٍ فاتح رحمٍ يؤدي إلى نسل جديد، يستوي في ذلك ذكور الحيوان الإنساني أو الحيوانات الأخرى.. أمّا حتحور فهي ربة الأنوثة والخصوبة، واهبة الحياة وراعية الوالدة والمولود.

حينما هبط أبيس من فوق حتحور، أخذ جبتو يقارن بين العضو التناسلي المختون لأبيس، والعضو التناسلي الأغلف غير المختون لذكور الإنسان، وانشغل جبتو بهذه المقارنة، فهو يرى ضخامة قطعان البقر التي تجوب وادي النيل والبراري، ويُعجب بأعدادها الوفيرة، بالرغم من كثرة ما يُفترس منها، ووصل جبتو بتفكيره إلى أن الآلهة ختنت ذكور الحيوان، كما أن الآلهة توحي إليه الآن، بفكرة ختان الذكور من بني الإنسان.

استيقظ جبتو، زعيم قرية جبتانا وكاهنها، ذات صباح من شهر أمشير على صراخ متقطِّع، فاستفسر فجاءه الجواب، بعد انقطاع الصراخ، أن الفتاة "باتا" صاحبة الفتى العنيف "جبجا" قد وضعت مولودًا ذكرًا؛ فاستبشر جبتو،

واحتفلوا بعد وجبة الضحى، بإشعال المزيد من النار، وتقديم المزيد من الأضحيات لتاسوع الآلهة، وأعلن جبتو في نهاية الاحتفال أن الربة حتحور جاءته في المنام، ونقلت إليه رغبة التاسوع المقدس الذي يوصي بضرورة ختان الجبتيين؛ لأنهم من نسل الآلهة، وبما أن الآلهة أطهار ومقدسون، فإنهم مختونون، وهكذا فكل مولودٍ ذكرٍ من نسل جبتو مصرايم، فلا بد وأن يُختَن في اليوم الثامن من ميلاده.

ذات يوم من برمهات، أصرَّ الفتى العنيف "جبجا" أن يقود صيادي جبتانا قبل الغروب لاصطياد المزيد من البقر، لاستئناس الأمهات من أجل اللبن، وكان النيل ضحلاً في ذلك الوقت، فتقدَّموا شمالاً حتى اقتربوا من المنطقة المحرَّمة، وهي منطقة التلال البيضاء، التي يُقال إنها موطن الشياطين والمسوخ.. ولمح الصيادون خنزيرة وصغارها يعبثون بطين بركة جافة.. فأمر جبجا الصيادين بالتخفي والكمون خلف الأدغال، حتى تطمئن الخنزيرة وصغارها، فيهجمون على حين غرة منها.. تخفُّوا وكمنوا، واستمروا دقائق حتى غابت الشمس، وفجأة شموا رائحة كريهة.. وتقدَّم صبي صغير -دون إذن من جبجا -ليمسك بأحد صغار الخنازير فإذا بمسخ صغير من مسوخ أبي الهول، بوجهه الإنساني، وجسده الحيواني يهجم على الصبي، وعلى الفور أصدر جبجا الأمر بالهجوم؛ فأعمل الجبتيون رماحهم في جسد أبي الهول، وخلَّصوا الصبي من براثنه، وأثخنوا المسخ بالجراح.. ثم أصدر جبجا الأمر بالعدو في اتجاه جبتانا؛ حيث إن صراخ المسخ، قد يستدعي المسوخ والشياطين.

وصل الصيادون إلى جبتانا، والتقطوا أنفاسهم قرب نار القرية التي أمر جبتو بأن تزوَّد بحزم البردي واللوتس.. وتوتَّر الجميع، ونبحت الكلاب وضجَّت القردة على الأشجار؛ فقد امتلأ الجو بالرائحة الخبيثة للمسوخ.. وبعد دقائق من تأجُّج النيران، بدأت تلك الرائحة الخبيثة تخبو تدريجيًا.. وعاود جبتو شعوره القديم بالخوف على "جبتانا" قرية الجبتيين من المسوخ والتنانين وشياطين الظلام.

الإصحاح الرابع

استيقظ جبتو من نومه متأخرًا في صبيحة يوم من أيام برمهات. ولمَّا لم يجد أحدًا في الخص، انحنى وخرج من دلتا الخص التي تُرِكَت مفتوحة؛ فوجد رع قد أشرق ببهائه على الكون. وكانت سهام أشعته الذهبية تنفذ من بين أشجار القرية. فتترك على الأرض بساطًا منسوجًا من النور والظل... لم يجد جبتو في ساحة القرية إلا الغلمان والصبية والأطفال: إذ إن الجميع ذهبوا للصيد أو التقاط الثمار... ولمَّا أرسل رع بعض سهامه الذهبية إلى عينيّ جبتو، تذكَّر "جبتو مصرايم" ابن الآلهة. كما تذكَّر تلك السورتا أو الترنيمة التي حفظها عن "جبتو مصرايم" والتي يُحيي بها الإله رع كفداس صباحي: "أيها الرب الإله رع... يا صاحب المجد والسلطان في قدس أقداسك في السماء... أنت يا وارث أتوم منذ الأزل... أفض علينا بدفئك ونورك.. لك المجد. فأنت واهب الحياة لكل ما يتحرَّك. ولكل ما يتنسَّم نسمة هواء... أنت واهب النار من خلال ابنتك نوت... وواهب اللبن للرضيع من خلال ابنتك حتحور... وواهب ماء الحياة في النهر العظيم من خلال ابنك حابي. الذي لا يزال يعمل بشادوفه المقدّس كل عام. لنقل المياه الحمراء من جنات الآلهة في السماء. إلى جنات أبناء الآلهة في الأرضين [٥] أيها الإله الذي سوّى نفسه بنفسه. والذي خلق كل الآلهة وكل الأشياء. إنها جميعًا تحيا عندما تصلها السهام الذهبية لنورك... وحينما تغيب في ظلمة الغرب فالجميع ينامون. والنوم نصف الموت... إيه يا رع: بارِكْ قريتنا ونسلك المقدَّس. نسل جبتو مصرايم. واجعلنا في الكثرة كنجوم السماء ورمل الصحراء. واحمنا من المسوخ والتنانين وشياطين الظلام..".

ثم اتجه جبتو بخطوه الوئيد إلى قبر "جبتو مصرايم" الذي تحرسه ليل نهار أعداد غفيرة من الكلاب. ولمَّا اقترب من القبر. فهمت الكلاب أنه يريد أن يحيي صاحب القبر؛ فتخلَّت عن المكان. على حين بدأ جبتو وكأنه يخاطب القبر ويقول: "كيف يرقد ساكنًا هذا الأب العظيم. سليل الآلهة. وملك الجبتيين؟ إن المصير الأزليَّ قد حلّ به... تموت أجيال من الناس جيلاً بعد جيل. منذ زمن الإله رع... إن رع نفسه يشرق ويحيا في الصباح. ويغرب ليستريح في "منو" [٦] إن الرجال يتصلون بالنّساء. ويأتي صباح آخر وتلد النساء. وينتشر الأطفال في كل مكان.. ولكن لا بد من أن يأتي يوم الوصول إلى البر [٧] في الأرض التي تحبُّ الصمت..".

وتمرُّ عدة أشهر، ومع فجر أحد أيام أبيب، يخرج من القرية جبتو ولابانو وكونو ومجموعة من الفتيان، مزمعين السير إلى الجنوب الغربي، حيث منطقة الحجارة السوداء الصلبة؛ للحصول على السكاكين الحجرية ورءوس الرماح والسهام وعصي الصيد... ولم يلبث الضباب أن انقشع، وظهر رع جليًا في الأفق الشرقي، وصار الجميع يتصببون عرقًا، كلّما اتجهوا غربًا وكلّما ارتفعت الشمس في كبد السماء.

وصلوا إلى المحجر، وجلسوا يستريحون تحت أكمة تُظَلِّلها نباتات الصبار المتشابكة وصفٌّ من نباتات التين الشوكي... تذكَّر جبتو حين هربت القبيلة كلُّها إلى هذا المكان، بقيادة ابن الآلهة "جبتو مصرايم"؛ تفاديًا للصراع مع قبيلة من المشوش الذين ليسوا من نسل الآلهة...

جمع الفتيان كمية من التين الشوكي، وقاموا بإزالة قشورها، كما جمعوا الكثير من ثمار الفاقوس والشمام والبطيخ... وأكل الجبتيون وشربوا... ثم أخذوا يشظّون الصخور، ليحصلوا على ما يريدون من الشظايا والقطع الحادة، التي تصلح للرماح وعصي الصيد أو كسكاكين صخرية...

حين همُّوا بالرحيل، رأوا سربًا من الوعول يقترب من نبع متدفّق بين الصخور، فطاردوا سرب الوعول غربًا، ولمَّا تجاوزوا المنطقة الصخرية، إلى البراري الرملية غربًا، فوجئوا بواحة كثيفة الخضرة، يتوسَّطها مستنقع مائي عميق... وأمعنت الوعول في العدو غربًا، فتركوا الوعول، وجاسوا خلال تلك الواحة، بدافع الفضول، ولشعور جبتو بوجود رائحة البشر... وعند خميلة ملتفّة من نبات البامبو والخيزران، واجهتهم مجموعة من الصبية والأطفال، ما لبثوا أن لاذوا بالفرار، وهم يصيحون بنداء الاستغاثة والتعارف "جبتو... جبتو" فارتبك وفد قرية جبتانا وتحيّروا ولزموا أماكنهم، فأقبلت مجموعة من الرجال والفتيان، مسلحة بالرماح، وجاوبوا على نداء الاستغاثة صائحين: "جبتو، جبتو"؛ عندئذٍ صاح جبتو بأعلى صوته: "جبتو، جبتو"، وبدأ الكبار من الفريقين يدركون أنهم من نفس القبيلة... فتقاربوا وتعارفوا، وأخذوا يتلامسون، تعبيرًا عن التواصل والفرحة بالتئام شمل الجبتيين.

جلس الجميع تحت خميلة من شجر شعر البنت [٨]، على أطراف المستنقع، وقُدِّم الماء البارد في أوعية من البامبو، كما قُدِّم المزيد من الموز والفاقوس والشمام والبطيخ...

اقتنع الجميع بما قاله جبتو عن ضرورة التئام شمل الجبتيين من جديد في جبتانا... وشعر جبتو بأن تاسوع الآلهة يؤيِّده "بفهم القلب ونطق اللسان"... وحمل الجميع أدواتهم وسكاكينهم الحجرية، وعصيّ الصيد وحبال الليف وشباك الصيد ورحلوا إلى "جبتانا".

في طريق العودة شمالاً بشرق، قصّ "دان" أكبر الجماعة ما حدث ليلة المسوخ والتنانين، ومما قاله: "كنت أنا ومجموعة من الشباب والبنات والأطفال عائدين إلى القرية، وما إن وصلنا إلى المدخل الجنوبي المموّه حتى رأينا ما يحدث؛ فأمرت من معي بالهرب عدوًا في اتجاه منطقة الحجارة السوداء... ولم تستطع المسوخ اللحاق بنا... وظننا أن "جبتانا" كلها قد أُبِيدَت، وأن المسوخ وشياطين الظلام قد استوطنت القرية؛ لهذا توغَّلنا في الجنوب الغربي، وتجاوزنا منطقة الحجر إلى البراري حيث وجدنا تلك الواحة الصغيرة ذات المياه الدائمة؛ فلُذنا بها، وكنا أحيانًا نتجاوزها في الصيد جنوبًا وغربًا، ولم نفكِّر في "جبتانا"؛ خوفًا من المسوخ والشياطين.

الإصحاح الخامس

مع لحظات اختفاء رع في الأفق الغربي خلف أشجار الغابة، ارتفعت ألسنة الدُخان واللهب في سماء قرية "جبتانا"؛ إذ كانت القرية تستعد لوجبة المساء ساعة وصول الذين غادروا منذ الفجر للحصول على الأسنّة والسكاكين الحجرية.

نبحت الكلاب حول الأسوار النباتية لجبتانا، وزاد صخب القردة على الأشجار، وتطلّع سكان جبتانا، فرأوا على التلّة المواجهة للقرية من جهة المدخل جبتو ولابانو ومَنْ معهم من فتيان القرية، تصحبهم مجموعة كبيرة من الرجال والفتيان والصبية والبنات والنساء، فارتاب مَنْ في المعسكر في الأمر.. وما إن صاح جبتو بالرمز الإشاري: "جبتو.. جبتو" حتى اطمأن الجميع، وتحوّل القلق والارتياب إلى ترقّب واستطلاع.

دخل الوافدون إلى ساحة القرية من مدخلها الجنوبي الغربي، وألقوا أمتعتهم بالقرب من نار القرية... وبدأ التعارف والتلامس ووضع الأيدي على الأكتاف والظهور.. وبإشارة من جبتو، تحلّق الجميع قريبًا من النار، حيث وُضِعت بعض الأواني الفخارية والصخرية وأوراق الموز، وبدأ الغلمان يضعون الشواء على هذه الأواني، كما وُضِعت كميات من الموز والجذور الدرنية والفاقوس والشمام والبطيخ والعنب... سعد الجميع بهذا العشاء الذي ضمّ كل الباقين من سلالة "جبتو مصرايم" الذي هو من نسل الآلهة، وكانت سعادة الوافدين الجدد أعظم، حيث انضموا إلى بقية جنسهم المقدس، في هذه القرية المتحضّرة التي عرفت النار، ببركةٍ من ربة السماء العظيمة "نوت".

بعد العشاء، أُجّجَت النار بمدّها بمزيد من الأغصان والحزم الجافة، وحمل بعض الفتيان رأس الخنزير وأرجله وبعض أحشائه، وكذلك رءوس البط والإوز، فأخذها جبتو ووضعها على أحجار القربان داخل النار.. اشتعلت القرابين وتصاعد دخانها برائحته المميزة إلى السماء، حيث يقيم تاسوع الآلهة، ساعتئذٍ شعر الجبتيون الجدد بأن الآلهة قد وفّقتهم، وأمدّتهم بقائد إلهي عظيم هو جبتو، بديلاً من أبيه المقدس "جبتو مصرايم".

عرف أهل قرية "جبتانا" الوافدين الجدد من السلالة الجبتية، وهم عبارة عن ثلاث أسر: "دان" و"تونا" وأطفالهما، "توت" و"ليزا" وأطفالهما، "رام" و"دندا" وأولادهما، بالإضافة إلى عدد من الصبية والغلمان والبنات، هربوا مع دان ليلة مذبحة المسوخ.

كان الجميع متحلِّقين حول النار، بمن فيهم من الأطفال وبعض جراء الكلاب، واعترت جبتو حالة التأمل والوجد التي تنتابه كلَّما شعر بأن الآلهة تمدّه بالحكمة "التي يحتويها قلبه وينطق بها لسانه" [٩] فوقف جبتو وعلى وجه خشوع وسلام، وهو يردّد هذه السورتا أو الترنيمة: "أيتها الآلهة المعظّمة التي تقيم في السماء، يا رع يا سيد الآلهة ويا من خلقت نفسك بنفسك، يا أتوم يا أول الناسوع، ويا خالق تشو وتفنوت وجب ونوت، يا تحوت يا واهب الحكمة في القلب والكلمة على اللسان... أيتها الآلهة التي نعرفها بأسمائها المقدسة، والتي لا نعرفها، لكِ منا نحن الجبتيين التقديمات والتبريكات، كوني معنا أيتها الآلهة، فنحن نسلك وسلالتك الباقية على الأرض... أنتِ أيتها الآلهة -لكِ الخلود أبد الآبدين حيث لا موت ولا ميلاد، وحُكِم على نسلك المقدس من الجبتيين بالموت والميلاد، فكوني معنا -أيتها الآلهة -زيدينا عددًا حتى نكون كنجوم السماء ورمل الشاطئ... هيلا... هيلا... هيلا".

حان وقت النوم، فمُدّت النار بمزيد من الأغصان، ودخل الجبتيون القدامى أخصاصهم، أمّا الجدد فإنهم افترشوا حزم اللوتس والبردي متّخذين منها فُرشهم وأغطيتهم... وبعد أن اطمأن جبتو على الجميع، دخل خصّه، وقد تكوّن لديه عزم على الأخذ بيد الجميع، وعلى بناء المزيد من المساكن للوافدين الجدد... وتأكّد لدى جبتو شعور عميق بأنه نِبُو [١٠] وبأن الآلهة تمدّه بالحكمة "التي يحتويها قلبه وينطق بها لسانه"... وتذكّر جبتو العجل "أبيس" الذي ختنته الآلهة، كما تذكّر وحي الآلهة له، بأن يُختَن كل مولودٍ ذكر من نسل "جبتو مصرايم" في اليوم الثامن من ميلاده [١١].

هوامش سِفْر "الاستئناس والتدجين"

١- الرُّخ طائر ضخم من الجوارح، يختطف فرائسه من الحيوان والأطفال، وربما كانت سلالته التي انقرضت، باقيةً حتى العصر الحجري الحديث (النيوليتي).

٢- لابانا واللبن ـ يرى معظم المؤرخين أن الاستئناس والتدجين من أخصّ أسس الحضارة المصرية.. عرف المصريون تدجين الطيور من أجل البيض، والبقر من أجل اللبن، واُختُلف في كلمة اللبن هل هي مصرية أم سامية.. ولعل كلمة "كاني" المصرية كانت تدل على اللبن بكل مشتقاته، لكننا استخدمنا "لابانا" و"اللبن"؛ لأنهما تناسبان القارئ العربي.

٣- سائل الحياة الثاني: ترد في المتون المصرية إشارات لسائل الحياة الأحمر أي الدم، كما ترد إشارات للسائل الأبيض، الذي ابتدعته الربة حتحور (وهي ربة تُصَوَّر عادة في صورة بقرة) وجعلته ينقل الحياة من الأمهات لأطفالهن، ومن الماشية -بعد الاستئناس- للإنسان.

٤- جب "إله الأرض"، وأحياناً يكون "جسد الأرض" وكما أن الجسد يخرج شعراً، فكذلك جسد "جب" ينبت النبات (بردية تورينو ـ بردية جاردنر).

٥- الأرضان: أرض مصر، أرض الشمال والجنوب... والشادوف السماوي المقدّس يعمل به "حابي" إله النيل والمياه، لنقل المياه التي تحمل الخصب من جنة الآلهة إلى النيل، حيث يقيم نسل الآلهة من المصريين (منابع النيل لم تكتشف إلا في أواخر القرن الثامن عشر).

٦- مِنو: معناها: جبل الغرب، الذي تغرب أو تموت فيه الشمس، ثم تُبْعَث من جديد.

٧- البَرّ: يُقصد بها الموت، ربما من كون المدافن -عادة- في البَرّ الغربي.

٨- شعر البنت: يُقْصَد به نبات الصفصاف، وربما كانوا يشبهون به شعر البنت.

٩- "الحكمة التي يحتويها القلب وينطق بها اللسان" عبارة يكثر ورودها في المتون المصرية، فالإله تحوت يلهم القلب (العقل) بالحكمة ويجعل اللسان يعبِّر عنها.. وربما انتقل ذلك إلى الفكر السامي، فعُبِّر عنه "بالكلمة" أو "اللوجوس".

١٠- نيـــوُ: كلمة مصرية، بمعنى "نبي" العربية السامية (لويس عوض: مقدمة فـــي فقـــه اللغة العربية).

١١- الختان للذكور عادة مصرية قديمة، ربما عبرت إلى العصر التاريخي، من عصور ما قبل التاريخ، وكان المصريون يحترمون جثث المختونين حتى ولو كـــانوا غيـــر مصريين، ويميل كبار المؤرخين إلى أن الساميين أخذوا الختان عـــن المصـــريين (جيمس هنري، جون ولسون).

سِفْر "المُسوخ وشياطين الظلام"

الإصحاح الأول

نبحتْ الكلاب مـُؤْذِنة بمشرق صباح جديد. وتعالت أصوات القردة على الأشجار متجاوبة مع ضجيج أصوات الطيور، التي تزحم الأشجار والماء والسماء.. ومن آن لآخر تتردد أصداء زئير الأسود، وزمجرة الصراع بين وحوش الغاب، ونعيق أفراس النهر.. واستيقظت قرية جبتانا. واستيقظ الوافدون الجدد. وشاركوا أهلهم من الجبتيين نشاطهم اليومي من أجل الصيد والطعام.

لم يكد "رع" يعلو قمم الأشجار، حتى عاد الصيادون من الفتيان والفتيات والغلمان والصبية بما التقطوه من ثمار الأرض، وبما اصطادوه من بط وإوز، وبما جمعوه من بيض الطيور.

ومن بين الشجيرات التي نبتت في مدخل القرية، ظهر جبتو ودان ومجموعة من الغلمان، يقودون أحد صغار فرس النهر، بعضهم يسحبه من رأسه بحبال من الليف، وبعضهم يدفعه أو يضربه من خلف.. وتكاثر حولهم أطفال القرية، خصوصًا الوافدين الجدد، يهلّلون ويشتركون في دفع ذلك "العجل السمين" إلى أطراف البحيرة؛ حيث تمّ ذبحه وتقطيعه وإعداده للشواء.

أُجِّجَتْ النيران ووُضِعَ عليها المزيد من الأغصان الجافة.. وبعد أن هدأت النار، وظهرت الأحجار المحمَّاة، وُضِعَت أجزاء فرس النهر والبطات والإوزات، وكمية من الأسماك فوق الأحجار المحمَّاة، أو في داخل النار المشتعلة.. وامتلأ الجو برائحة الشواء، ونبحت الكلاب مطالبة بنصيبها من الطعام.. أكل الجميع واستطاب الجبتيون الجدد طعوم المشويات.. وبعطايا رع وببركة الناسوع المقدس شبع الجميع، حتى الكلاب عند الأسوار، والقردة فوق الأشجار.

بعد الإفطار، زاد نعيق البقر والأيائل والنعاج في حظيرة القرية؛ فدخلت جبتانا ولابانا وتونا وبعض البنات إلى الحظيرة، ومعهن أوعية من الفخار والبامبو، وخامين العجل الذكر أبيس، وأخذن يحلبن الحيوانات، واستمتع الجميع بشرب اللبن الدافئ، وشعر الجبتيون الجدد بالامتنان لناسوع الآلهة، الذي أرسل لهم جبتو، الذي هو من نسل الآلهة، لكي يأخذ بأيديهم ويصل الفروع بأصل الشجرة الجبتية.

في الضحى، نظّم جبتو العمل، وقام الجميع ببناء عدد كافٍ من الأخصاص لسُكْنَى الوافدين الجدد، ولسُكْنَى كل اثنين من البنين والبنات، الذين عرفوا بعضهم[1] في حفلات الرقص حول نار القرية.

بعد الانتهاء من الخصّ الأخير، وقف جبتو ينظر بإعجاب إلى صفوف الأخصاص، كما نظر بإعجاب أكثر إلى العدد الكبير من الجبتيين، الذي يكاد يملأ ساحة جبتانا، والذي به يتحقق أمن جبتانا، كما تُنجز الأعمال التي تيسِّر شئون المعيشة.. وعاود جبتو شعوره الغامض بالوَجْدِ والسلام والتميّز، وبأن الآلهة معه، وبأنه "نبو" أو نبيّ من الناسوع.

واتّجه الجميع إلى الاغتسال من الطين عند أطراف البحيرة، ووقع نظر جبتو، وهو يغتسل، على فتاة من الوافدات الجدد، وهي تغتسل متوارية عن العيون المتلصصة بنباتات أدغال البحيرة، وأُعْجِب جبتو بتناسق أعضاء الفتاة، وببشرتها الصافية، وسرعة حركاتها... وضع جبتو مئزره المكوّن من قطعة من جلد بقرة على حقويه، واتّجه للفتاة الصغيرة، وسألها عن اسمها فقالت: "نيما"...

حفل الرقص حول النار، الذي تُستخدَم فيه طبول الآلهة، يكون في المساء، لكن جبتو، الذي هو كاهن القرية وزعيمها، والذي يتصل بالناسوع عن طريق "جبار" أحد معاوني رع رب الأرباب، قرّر أن يكون الرقص الآن، بعد الانتهاء من الأخصاص، التي كادت تجف بسبب حرارة الجو في هذا الوقت من العام... وأُججَت النيران في وهج الظهيرة، ودُقّت عشرات الطبول المصنوعة من جلود الحيوانات على أسطوانات فارغة من جذوع الأشجار... وبعد الرقص أخذ كل فتى صاحبته إلى خصّه، وأخذ جبتو الفتاة الصغيرة إلى خصٍّ جديد ملاصق لخصّ جبتانا.. ولم يكن من حق جبتانا الاعتراض، بل لم تفكِّر في ذلك... كذلك لم يكن من حق "وِسَرْ" الاعتراض، فإذا كان كاهن القرية وزعيمها يريد فتاته، فالكاهن الزعيم هو الأَوْلَى بكل تضحية، وليبحث "وسر" عن فتاة أخرى.

بعد وجبة الغروب، سمع الجميع عند نار القرية صرخة الاستغاثة من "آسو" الذي كان يطارد الأرانب البرية هو و"وِسر" عند التلة المواجهة للقرية.. وسريعًا ما وصل إلى مكان الاستغاثة عدد كبير من الصغار والكبار، فوجدوا "وِسر" طريحًا قد نهشته أفعى الكوبرا، وحملوه بسرعة ووصلوا عند نار القرية، حيث كان يجلس جبتو، الذي كان من وظائفه، بالإضافة إلى الزعامة والكهانة، أنه

طبيب القرية... وجسَّه جبتو فشعر ببرودته وبأن جسده قد فقد قواه، فقال: "لقد رحلت عن "وِسَرْ" البا [1] وسوف تصل البا الخاصة به إلى محكمة تحوت... هو الآن ميت، وعلينا أن نواريه في التراب...

على التلة المواجهة للقرية، حُفِرَت حفرة عميقة، وُضع فيها "وِسَرْ" جالسًا القرفصاء، ووضعوا رأسه عند ركبتيه [2] كما وضعوا معه أهم أدواته: سكينه الحجرية، ورمحه، وعصا صيده، ووعاء شربه.. وعاد جبتو إلى دور الكاهن فوقف يردِّد ترنيمة قديمة يُلقِّن بها الميت [4]: "أي وِسَر.. أنت الآن في طريق العبور إلى الغرب، سوف تُشَدُّ لك الصراطا [5] بين الجبلين. فإذا كان قلبك مليئًا بحب الناس فلن تقع، وسوف يشهد لك معاونو التاسوع من أكلة الأكباد والقلوب ومحطمي الأدمغة والعظام وساملي العيون وجادعي الأنوف وصالمي الآذان... وإن كان قلبك مليئًا بكراهية الناس والتاسوع فسوف تسقط.. وحين يُنزَع قلبك للميزان أمام تحوت، فقل لتحوت وبقية التاسوع والقضاة المبجلين، قل لهم: أنا لم أعتدِ على الأرملة، أنا لم آكل مال اليتيم، أنا لم ألوِّث أحجار القربان..." ثم أهالوا التراب على "وِسَر"، ووضعوا كمية من الأحجار فوق القبر؛ خوفًا من الوحوش النابشة والتي تهوى أكل جثث البشر.

الإصحاح الثاني

الشمس تغرب في مساء أحد أيام شهر كيهك. من السنة الخامسة من النئام شمل كل الجبتيين في جبتانا. وكان جبتو بجوار نار القرية ومعه الجميع بعد وجبة المساء. ورفع جبتو يديه إلى السماء حيث يقيم الآلهة وردد هذه الترنيمة: "إيه يا رع العظيم.. إنك تشرق ببهائك وسهامك الذهبية فتملأ الكون نورًا. وحين تغيب في المساء يخلد الجميع إلى السكون. وتنتشر المسوخ وشياطين الظلام. فأنت النور والحياة. وأنت رب الأبدية والخلود... تنتصر كل يوم على جيوش الظلام. ثم تعود لتشرق من جديد. أنت باعث الحياة في النهر العظيم. فأنت الذي يأمر "حابي" بأن يعمل بشادوفه السماوي لنقل الماء من جنة الآلهة. إلى حيث يقيم نسل الآلهة من الجبتيين.. أي رع العظيم. أنت باعث الخضرة والنبات في جسد جب. وباعث الحياة في كل الدبابات وكل من يتنسم نسمة حياة.. أي رع.. احمِ قريتنا من المسوخ وشياطين الظلام. واجعلنا في العدد. كنجوم السماء. ورمال الصحراء.. هيلا.. هيلا.. هيلا".

حين انتهى جبتو من قداسه المسائي. كانت الشمس قد غربت. وأظلمت القرية والغابة سريعًا في هذا الوقت من الشتاء.. وكانت آلهة الرياح والمطر تعبث بقمم الأشجار.. وعند أطراف البحيرة. وخلف دغل من نباتات الخيزران. كانت كونا وكوفا تغتسلان. متواريتين عن العيون المتلصصة لبعض الفتيان.. وفجأة سمع الجميع عند النار صوت استغاثة. أعقبه صوت الاستغاثة الإشاري "جبتو.. جبتو" الصادر عن حراس القرية من الغلمان والشبان. ثم بدأ نباح الكلاب. وضجيج القردة على الأشجار..

وحضر "آسو" أحد فتيان حراسة القرية. فقال لجبتو والجميع: "... كنت في مكاني من المراقبة. وكانت الفتاتان تغتسلان. وفجأة ظهر شيطانان من مسوخ الأوثان. وقد غطيا جسديهما بالطين. حتى لا تُشم رائحتهما. واختطفا الفتاتين عاريتين. ثم لاذا بالفرار.. ولم تشعر برائحتهما الكلاب: لأنهما غطيا جسديهما بالطين..".

تألَّم جبتو.. وتألَّم الجميع.. وبالرغم من أن المطر بدأ يتساقط. إلا أن جبتو أمر الجميع بإعداد المشاعل. على أن يكون مع كل واحد أربعة مشاعل ورمحه.

وتُشعل المشاعل واحدًا بعد الآخر.. وتقدَّم الجميع في شكل ثلاث مجموعات، واحدة بقيادة جبتو، والأخرى بقيادة لابانو، والثالثة بقيادة دان... واتجهوا إلى طريق متعرجة يسلكونها في الصيد. توصَّل إلى منطقة الحجارة البيضاء، حيث يقيم شياطين الظلام من المسوخ والتنانين التي تغتصب بنات الإنسان لتنجب منهن مسوخًا أخرى، فهذه الشياطين ذكور فقط. ولمَّا حكمت عليهم الآلهة بالموت والميلاد، نسيت الآلهة أن تجعل منهم ذكورًا وأناثًا، وتركت لهم حق اغتصاب بنات الإنسان والإنجاب منهن.

تجاوز الجبتيون أرض الجنوب حيث النهر العظيم، وساروا في اتجاه أرض الشمال، عند مدخلها المؤدي لمنطقة الحجارة البيضاء.. وبدأت السماء تبرق وترعد. ولم تعد هناك أمطار.. توقف الجبتيون قليلاً لالتقاط الأنفاس، ولأنهم وجدوا نباتات متسلقة جافة تصلح لعمل المزيد من المشاعل.. وبعد أن صنعوا أعدادًا إضافية من المشاعل، أشعلوا النار في تلك النباتات الجافة، فأحالوا ليل المغارات البيضاء إلى نهار.. وكلَّما شمُّوا رائحة المسوخ اجتهدوا للوصول إليهم ومعهم مشاعلهم التي تخشاها الشياطين... واشتعل المكان كله بالنار والأضواء، فخرجت المسوخ تجري على غير هدى، وتسرَّبت النار داخل المغارات... وصار واضحًا للجبتيين أن المسوخ تفقد حاسة البصر حين ترى النور، كما تفقد قوتها الشيطانية وتتساقط كالفراش.. بدأت المجموعات الثلاث تدخل المغارات وتشعل فيها النيران، حرَّروا كونا وكوفا اللتين وُجِدتا في مغارة من المغارات، وأُعطِيت كل واحدة منهن عدة مشاعل.. وفي مغارات الأمهات وُجِدت نساء أسيرات من زمن طويل تم تحريرهن بالرغم من عجزهن عن الحركة؛ إذ كُنَّ محبوسات في مغارات الأمهات مع الصغار من شياطين المسوخ، وكانت هذه المغارات أشبه بالحظائر، رائحتها خبيثة، حيث كانت فضلات هذه الكائنات تملأ الجو برائحتها المنكرة... كانت المغارات مغلقة، تؤدي إليها سراديب طويلة، حيث لا يتسرب الضوء إلى الداخل... وكانت الأمهات في حالة يرثى لها: عاريات تمامًا، أوزانهن زادت إلى حد العجز عن الحركة، ابيضت جلودهن، فصارت في لون جلود المصابين بالبرص.

ورأى الغزاة الجبتيون صغارًا من فصائل أبي الهول والتنين وبقية شياطين الظلام، فتم التخلص من هذه الصغار بالقتل بالنار أو بأسنة الرماح، بالرغم من أن بعض الأمهات حاولن الدفاع عن هذه الشياطين الصغيرة... وزادت جرأة

الجبتيين، فأشعلوا النار في كل مكان.. وبعد أن تأكّدوا من القضاء على شياطين المسوخ، أشعلوا نارًا عظيمة وناموا حولها حتى الصباح.

أشرق رع ببهائه على قمم التلال البيضاء، وكان جبتو أول مَنْ استيقظ، ثم استيقظ الجميع، وظلوا جالسين حول النار، ووجوههم إلى الشرق منتظرين انتهاء جبتو من قدّاسه الصباحي الصامت.. ويقطع جبتو صمته ويحدّثهم، بنأملاته ككاهن، ويقول لمَنْ حوله: "انظروا إلى رع المجنّح، إن هذه السهام الذهبية التي تخرج منه، هي التي تصنع له جناحيه الذين يعبران به أفق النور في النهار، وأفق الظلام بالليل حيث يتحولان إلى سفينة إلهية.. انظروا إلى كل بِنبِن أو قمة من قمم التلال، إن هذه البنابن قد نبتت على جسد الإله جب، بأمر من الإله الأول أتوم، وإن كل بنبن منها ينادي رع، فيجعله يصحو من غفوته فيترك سفينة الغرب، وينشر جناحيه للسباحة النهارية في أفق الإله تشو.. إننا نقدّس كل بنبن من هذه البنابن التي تدفع رع إلى الشروق، وبنور رع تمتلئ الدنيا بالبهجة والخضرة والحياة.. إن هذه البنابن هي التي تحفز رع على أن يترك تثاؤبه الليلي، وينشر جناحيه الذهبيين مع مولد كل صباح".[6]

ونهض جبتو، ونهض الجميع.. وعادوا إلى مجموعاتهم الثلاث، وبدءوا يدخلون المغارات والسراديب، تسبقهم مشاعلهم، وأشعلوا النار من جديد في المغارات؛ لتطهيرها من الفضلات ومن أجساد المسوخ وشياطين الظلام.. وأخرجوا عدة جثث، من جثث هذه المسوخ الشيطانية وتأملوها: بعضها ذوات أجساد كأجساد القرود، لكن بوجوه آدمية [7] وتلك هي التي تطلق عليها أساطير ذلك الزمان اسم الأوتان.. وبعضها ذات وزن أثقل، بأجسام السباع والأسود، مع وجوه بشرية وتلك هي مسوخ أبي الهول المدمرة، ومجموعات منها بأجساد بشرية مع رءوس تشبه حيوان آكل النمل ذي الخطم الطويل.. أشعل الجبتيون النار في أجساد المسوخ، وأعلن جبتو أن أجساد هذه الشياطين المحترقة هي أعظم قربان لتاسوع السماء.

وجد الجبتيون حظيرة ضخمة، داخل مغارة، وبداخلها أعداد كبيرة من البقر والخراف والنعاج والأيائل.. ذبحوا ما يكفي لإفطار فخم، وأطلقوا بقية الحيوانات.. وبعد وجبة الصباح، أشعلوا النار في الحظيرة، وفي الممرات والسراديب، ويمموا شطر قريتهم "جبتانا".

الإصحاح الثالث

كانت هضبة التلال البيضاء، تشتعل نارًا ودخانًا، حين غادرها الجبتيون بقيادة جبتو زعيم جبتانا والذي هو من نسل الآلهة.. ساروا في منحدر أخضر مليء بأشجار النخيل والجميز والحور والصفصاف والكافور والرمان والأغصان المتسلقة للعنب.. ثم انبسطت الأرض الموازية للنيل غربًا فسلكوا شعابها. وكان الجبتيون سعداء بهذا القضاء المبرم على المسوخ والشياطين [٨] لهذا كانوا يهزجون ويغنون في طريق العودة إلى جبتانا... ووصلوا مع الضحى حاملين معهم الكثير من ثمار الأرض وفرائس الصيد.

في المساء، اجتمعوا على العشاء قرب النار [٩]... وكان الزعيم جبتو في أوج سعادته؛ فقد انزاحت عن كاهله وساوس المسوخ وشياطين الظلام، كما أن أعداد الجبتيين، صغارًا وكبارًا، قد زادت زيادة كبيرة، أشعرت جبتو بالاطمئنان على جبتانا ومستقبل أجيال الجبتيين... وكانت فكرة موحى بها إلى جبتو من التاسوع المقدس، ترد على خاطره في صورة سؤال: "لماذا لا تكون جبتانا أخرى؟!".

وطرح جبتو سؤاله على الجميع قرب النار: "لماذا لا تكون هناك قرية ثانية؟!" ثم أردف، وكأنه لا يترك لهم فرصة للتفكير والخلاف: "إن رع والتاسوع المقدَّس قد أوحوا إليّ من خلال "جبار" رسول التاسوع بأن نستغل مغارات الهضاب البيضاء، التي يلمع قرص رع الجنَّح على بنابنها في الصباح، في تأسيس جبتانا أخرى".. وتحدَّث الكبار أولاً: "لابانو" ثم "دان" ثم "جبجا"، وأعقبهم الشباب... ووافق الجميع على إنشاء جبتانا ثانية في منطقة التلال البيضاء... وأنَّى لهم أن يعترضوا على وحي السماء؟!

دار رع بين الأفق الشرقي والغربي عدة مئات من الدورات، وكذلك دار خنصو إله القمر، ذو الوجوه المتعدِّدة دوراتٍ ودورات.. وفاض النيل هذا العام، ويبدو أن الإله حابي قد أعمل شادوفه المقدس، فنقل مياهًا كثيرة من جنة الآلهة إلى جنة الجبتيين: ففاض النيل وامتلأت البحيرات والمستنقعات، بل ودخل الماء تحت أسوار جبتانا... وكان القوم يخوضون المياه حتى التلة الغربية، ثم يخوضون منها إلى الغرب، حيث يقومون بالتقاط ثمار الصيف، كما يقومون بصيد ما يتيسّر من الفرائس.

ذات ضحى من شهر أبيب، وبعد وجبة صباح، أخبر لابانو جبتو بأنه يريد أن يريه شيئًا ما... وخرج جبتو ولابانو ودان وجبجا ومجموعة من الفتيان، وتجاوزوا أسوار القرية، وخاضوا في مياه ضحلة، ثم صعدوا إلى دغل على تلة صنعها طين الفيضان، وأراهم لابانو حزمتين من حزم البوص مربوطتين إلى بعضهما، ثم عبر الماء وجلس على هذا الرّمث، وأخذ يدفع الرمث بعيدًا عن الشاطئ الطيني بعصا طويلة في يده، ثم لبث في مكانه على رمثه قائلاً: "..كنت قد حزمت عدة حزم من البوص لنقلها إلى القرية، ولما كان من المتوجب عليّ أن أخوض في الماء، وضعت الحزم في الماء فطفت على سطحه، فربطت حزمتين وجلست عليهما، فاكتشفت أنهما قادرتان على حملي... وهكذا نقلت البوص إلى مرفأ القرية.." سعد القوم بهذا الكشف الذي تمّ على يدي لابانو، وبدأ الفتيان في جمع البوص الجاف، وتحزيمه وتربيط الحزم في أرماث، وأخذوا يتجوّلون ويتصايحون على صفحة الماء.. وجرَّب بعضهم فربط عدة حزم؛ فصنعوا بذلك طوافة كبيرة.

في المساء وبعد وجبة العشاء، اجتمع القوم عند نار القرية، بالرغم من الحشرات اللادغة... وعرض عليهم جبتو من جديد فكرة إقامة قرية أخرى للجبتيين، وعلل لذلك بوحي التاسوع المقدَّس له، وبأن جبتانا ثانية تعني المزيد من الأمن والقوة للجبتيين ووافق القوم، وما كان لهم إلا أن يوافقوا.

بعد وجبة الصباح في يوم من أواخر أبيب، قام الجبتيون بجمع كميات كبيرة من البوص والخيزران والبامبو الجاف، وقاموا بتحزيمها وتربيطها مكوِّنين عددًا كبيرًا من الأرماث، بعضها من حزمتين، وبعضها من ست حزم، وبعضها الآخر من اثنتي عشرة...

أثناء ذلك جُمِعَت أمتعة الأسر الراحلة وهي أسر: جبتو ولابانو وآسو وجبجا، كما جُمِعَت أمتعة الفتيات والفتيان والغلمان والصبية الذين اختاروا الرحيل مع جبتو.

فوجيء الجميع بجبتو يحفر بمعوله الحجري قبر "جبتو مصرايم". ولمَّا وجدوه يفعل ذلك ساعده مجموعة من شباب القرية... استخرجوا عظام "جبتو مصرايم"، وقام جبتو بغسلها بالماء، ثم وضعها مرتبةً من الرأس إلى القدمين على جلد بقرة، ثم لف الجلد وربطه بحبل من الليف، ونُقلت اللفافة ووُضِعَت على طوافة من الطوافات، ومعها الأمتعة الخاصة الباقية لجبتو مصرايم.

ركبت الأسر الراحلة الطوافات والأرمـاث. وكـان جبتـو آخـر الـراحلين علـى طوافة كبيرة مزدوجة، ومعه أهل بيته، بالإضافة إلى عدد كبير من الكـلاب: ذكـورًا وأناثًا كبارًا وصغارًا.. سارت بهم الأرماث والطوافات شمـالاً مـع تيار المـاء، حـتى وصلوا قريبًا من منطقـة الـتلال البيضـاء؛ فرسـوا بأرمـاثهم وطوّافـاتهم عنـد شـاطئ أخضـر ملـيء بأشـجار النخيـل المثمـرة والرمـان والعنـب والجميـز والصفصاف. كما أنـه مكسـو بفـراش أخضـر مـن نباتـات البطـيخ والفـاقوس والقثاء والخيار والبصل.. استمتع القوم بثمار الأرض من رطب ورمـان وعنـب، ورأوا أسرابًا من الأيائل والبقر والخنازير تجوب المكان؛ فشعروا بالامتنان للآلهـة، وأحسـوا بأن جبتو لا يصدر عن قلبه، ولا يجري على لسانه، إلا مـا يـوحي بـه رع والتاسـوع المقدس.

تقدّم الجبتيون وعلى رأسهم جبتو إلى منطقة المغارات، وقد تركوا أرماثهم وطوافاتهم مربوطة بحبال إلى أشـجار الشـاطئ.. وصـلوا إلى المغـارات في الـتلال البيضاء، فإذا بالكلاب تدخل المغارات وتطارد عددًا مـن القـردة والـذئاب والثعالـب وأبناء آوى، التي استوطنت المغارات بعد القضاء على المسوخ وشياطين الظـلام.. نظفت الأسر المغارات لتستخدمها للإقامة بدلاً من الأخصاص، وعـرف الغلمـان الفتيات وكونوا أسرًا جديـدة في المغـارات الكـثيرة في منطقـة الـتلال البيضـاء.. واختار جبتو ساحة كبيرة لتكون مركز القرية، وخَصّـص مكانًا منها لنـار القريـة وأحجار التقدمة المقدسة.. وأخذ جبتـو يحفـر، ومعـه مجموعـة مـن الشـباب في الجانب الغربي من الساحة.. ولّما كانت الأرض تـزداد صـلابة كلما حفـروا، اكتفـوا بحفرة طويلة كأنها رسم إنسان، وحمل جبتو حزمة عظام أبيـه "جبتـو مصـرايم" ووضعها في ذلك القبر، جاعلاً الرأس في مواجهة الشرق حيث مشـرق رع، ووُضـع في القبر بعـض أمتعـة "جبتـو مصـرايم" الشخصـية: سـكينه الحجريـة، وعصـا الصيد ذات الرأس الحجرية، ووعاء الشرب المصنوع من عقلة من عقل البـامبو.. ثم أهيل التراب على بقايا "جبتو مصرايم".

نظّموا مداخل المغارات وصنعوا لها دالاتٍ أو أبوابًا.. واختاروا واديًـا ضـيقًا صنعوا له سورًا من الأغصان، وجعلوه حظـيرة القريـة الجديـدة.. وكـانوا سـعداء بجبانا الثانية: فهي محصنة، بعيدة عن مياه الفيضان، وفي نفـس الوقـت تطـل على تلك الجنة المليئة بالخيرات والفرائس.

الإصحاح الرابع

ارتكن جبتو إلى باب بيته المكعب، الذي أُقِيـْم في ساحة القرية قـرب النـار المقدسة، والذي أُستُـخـْدِم في بنائه الطين والحجـدر الأبيض والنباتـات.. ذلـك لأن جبتـو لم يكـن ليرتـاح لسُكـْنَـى تلـك المغـارات الـتي كـانـت أوكـارًا للمسـوخ والشياطين، كما أنه كان يشعر بالقداسة تجاه البيوت التي تصنعها يد الإنسـان بوحي من الآلهة، كما أن جبتو قد حفظ عن أبيه "جبتو مصرايم" أن بيوت الآلهـة في السماء عبارة عن مكعبات [١٠] من الذهب أو الماس أو الفيروز أو اليشب، بحسـب مكانة الإله في الناسوع المقدس.. ارتكـن علـى بـاب بيتـه، وذلـك في أواخـر شـهر مسرى، سعيدًا بجبتانا الجديدة.. جبتانا البيضاء.. التي أطلقوا عليها اسـم "عـين شمس"؛ نظـرًا لأن الشـمس - في الصـباح والغـروب - كانـت تعكـس سـهامها الذهبية على بَنايِن أو قمم التلال البيضاء؛ فيظهر قرص الشمس وقد جَنَّحته السهام الذهبية.. ارتكن جبتو على باب بيته سعيدًا بعين شمس، الـتي اعتبرهـا حرمًا لرع.. وخاطب جبتو رع بهذه السورتا أو الترنيمة:

أنت رع العظيم، أنت آتون الحي رب الأبدية

إنك مُـشرق وذو بهاء، ونورك يملأ الآفاق

نقدِّسك -نحن الجبتيين- فأنت واهب كلّ شيء

نورك هو نور لعيون جميع البشر والدبّابات

وألوانك المبهجة هي التي ترسم البسمات على الوجوه

كما أن ألوانك المبهجة هي التي تعطي الورود والبراعم ألوانها

أنت، يا رع، الإله الذي خلق نفسه بنفسه

وكان قبل أن يكون شيء

أنت باعث الحياة في الجنات وثمار الأرض

وأنت الذي يملأ الوادي بالفرائس من أجلنا

يا رب الأرباب، لك المجد في الأعالي.... [11] هيلا.. هيلا... هيلا....

بجوار جبتو، جلست جبتانا زوجه الأولى، التي كانت تردِّد خلف جبتو تلك الترنيمة المقدسة بصوت خافت... وعند النار المقدسة، قريبًا من بيت جبتو، جلست "نفتي" البلهاء المقدسة، تلك التي وجدوها في أحد كهوف المسوخ، وهي كومة من اللحم الأبيض، لا تفعل شيئًا سوى أن تنظر إلى السماء، والجميع يطعمونها ويسقونها شاعرين بأن بركة السماء تحل عليهم لكونها بينهم، بعد أن عاشت محنة الأسر في كهوف المسوخ.

سُمِع صوت استغاثة في مغارة مجاورة لمغارة لابانو، وخرجت كونا باكيةً ومعلنةً عن موت كوفا ساعة الولادة؛ إذ إن كوفا البائسة قد حملت من أحد المسوخ... وأعلنت كونا -كذلك- أن كوفا قد ولدت وليدًا حيًا، هو مسخ صغير من مسوخ أبي الهول... وتصايح كل مَنْ في "عين شمس" وتجمَّعوا قرب النار... ووضعوا تيسًا مذبوحًا على حجارة التقدمة؛ لتطهير القرية ولدفع غضب الآلهة.

دخل جبتو ولابانو عند جثة كوفا؛ ففوجئوا بالبلهاء المقدسة "نِفتي" خارجة من الكهف ويداها تقطران دمًا، ولمَّا دخلا وجدا المسخ الوليد مصروعًا، وقد فصلت "نِفتي" رأسه الآدمي عن جسده الحيواني... وارتاح الجميع لما فعلته "نِفتي"، وأحسوا بأن ما فعلته ليس إلا من وحي نوت وحتحور.

كبر جبتو وكبرت معه تأملاته واتصالاته بالآلهة؛ فجعل لعين شمس معبدًا لرع والتاسوع المقدس، ونُصبا لتقديم القرابين والمحرّقات، كما ألزم الرجال والنساء بأن لا يعرف أحدهما الآخر إلا بعد القران المقدس وحفل الطبول في المعبد، كذلك سمح بنار خاصة بكل أسرة مع الاحتفاظ بالنار العامة، وأصبح لكل أسرة حظيرتها الصغيرة فضلاً عن الحظيرة العامة... ونظرًا لظهور بعض المشاكل والخلافات والصراعات، جعل جبتو للمعبد وظيفة أخرى، وهي وظيفة القضاء؛ واختار بعض المبجَّلين الذين "تأثَّرت قلوبهم بحكمة توت، كما تأثَّرت ألسنتهم ببراعة بتاح" [12] ليكونوا قضاة المعبد وكهنته.

الإصحاح الخامس

بعد وجبة الصباح، في يوم من أوائل شهر توت، أُعِدَّت طوافة ضخمة مكوّنة من عشرين حزمة كبيرة من حزم البوص والبامبو، عند مرفأ عين شمس، وكانت تلك الطوافة كافية لحمل وفدٍ مكوّن من جبتو وجبتانا وكونو وكونا وزوجها، ولابانو ولابانا وابنهما كوفو وعدّة مرافقين آخرين. كذلك وُضِعَت كمية من سلال الرّطب والعنب والرمان في زاوية من زوايا الطوافة. قريبًا من العود الذي علّقوا عليه عصبًا شدّوا عليها جلود بعض الحيوانات؛ لتقوم بدور الشراع فتجمع أنفاس "تشو" التي تحرّك الطوافة إلى جبتانا القديمة، التي تعارفوا على تسميتها الآن بمنف... فقد حنّ جبتو لرؤية القرية القديمة ومَنْ فيها.

أشْعِلَتْ النيران في منف بعد وصول جبتو ومَنْ معه، وقُدِّم طعام المساء قبل الغروب بوقت طويل... وتجوّل جبتو ولابانو وكوفو، ومعهم دان في منف، وكانوا سعداء بازدياد الأعداد في منف؛ فالأطفال في كل مكان...

في احتفال الطبول والرقص حول النار، أعْجِبَ كوفو بالصبية "بارا"، وأُعْطِيَتْ "يارا" زوجة لكوفو... وفي الصباح غادر وفد عين شمس منف مودّعين من قِبَل أهلهم الأولين... وكانت رحلة العودة أكثر سهولة؛ حيث سارت الطوّافة في المياه الضحلة للنهر العظيم في اتجاه الشمال...

وفي طريق العودة، توقفوا عدة مرات لجمع الثمار والبيض والإوز والبط من بعض الجزر الرسوبية التي مروا بها، كما جمعوا عدة سلال من أسماك النيل... كانت رحلة سعيدة، أيقظت لدى جبتو شعوره بأنه نبي، وبأن الناسوع المقدس يوحي إليه، وأن الآلهة تهتم بمصير السلالة الجبتية التي هي من نسل الآلهة، ولا أدل على ذلك من أن الآلهة مكنت الجبتيين من معرفة الأرماث والطوافات التي يستخدمونها الآن في الانتقال على صفحة النهر العظيم... بل إن الآلهة قد ألهمت أرواح التماسيح، التي باتت تشعر بالقداسة تجاه الطوافات والأرماث، أو لعلّ حابي إله النيل والمياه، قد أوحي إلى التماسيح وأفراس النهر أن تترك الأرماث والطوافات تسير فوق مياه النيل بأمان [١٣]... وفي بعض الأحيان، كانت التماسيح تسير في خطوط موازية للخط الذي تسلكه الطوافة الهابطة في النهر إلى مرفأ عين شمس.

هوامش سِفْر "المسوخ وشياطين الظلام"

١- "عرفوا بعضهم" تعبير يرِدْ في المتون المصرية كناية عن علاقة الرجل بالمرأة، والغريب أن هذا التعبير نفسه يستخدمه العهد القديم "التوراة".

٢- البا: الروح المفارقة الأثيرية، والتي هي الجزء الإلهي في الإنسان، ويتحرر بموت الإنسان ويصعد إلى السماء، كما يظهر في متون الدولة الوسطى والدولة الحديثة... لكن هذا لا يعني "نرفانا" الهندوس التي تعيد الروح بعد التناسخ إلى أصلها الإلهي.

٣- هيئة الدفن في عصور ما قبل التاريخ المصري، هي الدفن جلوسًا على هيئة القرفصاء والرأس عند الركبتين (جيمس هنري. جون ولسون. سليم حسن).

٤- تلقين الميت، يُقْصَد به توجيه الأحياء لقيم مفيدة للجماعة البشرية، وتلقين الميت جزء من الحضارة الأخلاقية المصرية (جيمس هنري: فجر الضمير).

٥- الصراطا من الكلمات العالمية التي ابتكرها المصريون منذ القديم، وانتقلت إلى الساميات واليونانية واللاتينية، ونسمع أثرها في Thread الإنجليزية (راجع: لويس عوض: مقدمة في فقه اللغة العربية).

٦- بنْبِن Ben Ben كلمة ذات قداسة خاصة عند المصريين منذ القديم، تعني القمة العالية التي تصطدم بها أشعة الشمس، وهذه البَنَابِن هي قمم المسلات وقمم الأهرامات؛ حيث يشرق قرص رع المجنّح أول الأمر من خلفها.

٧- المسوخ والحيوانات التي تجمع بين مظاهر إنسانية وحيوانية، كائنات تروي عنها الأساطير القديمة (راجع: مسخ الكائنات -أوفيد، ترجمة الدكتور ثروت عكاشة).

٨- كلمة "شيطان" كلمة مصرية أصيلة، أصلها "ست" رمز الشر، ثم أُضِيفَ "التنوين" فصارت "ستن"؛ وهي أثر مصري في كل لغات العالم (راجع: لويس عوض).

٩- الجماعات الأولى القبائلية تكون عادة جماعات اشتراكية ذات صبغة دينية؛ حيث يقوم الدين بالتجميع والتنظيم، وجماعات الكويكرز والعزّاقين الأمريكية من أمثلة ذلك.

١٠- الكابا والكوبا والمكعب... تأثير مصري في كل اللغات، وكان المصريون يقدسون الشكل المكعب، وأساطيرهم الأولى تتحدث عن بيوت الآلهة المكعبة... والأهرامات والمسلات، نوع من التعبير عن قداسة الأبنية المكعبة.

١١- (راجع: جيمس هنري. سليم حسن. نجيب ميخائيل).

١٢- بداية ظهور المِلْكِيَّة الخاصة وتخصيص النساء بالزواج، أمران أديا إلى المشاكل؛ ومن ثَمَّ ظهرت الحاجة إلى القضاء (راجع: الدراسات الأنثروبولوجية والتاريخية القديمة).

١٣- التماسيح وأفراس النهر، لا تهاجم الأرماث والطوافات؛ لأنها تخشى الأشكال غير المفهومة لها، لكن أمثال مانيتون يعتقدون في التوجيه الإلهي لهذه الكائنات.

سِفْر القمح والكوشير

سِـفْـر القـمـح والـكـوشـيـر

الإصحاح الأول

ساد الأمن والرخاء جبتانا الأولى "منف" تحت زعامة "دان". الذي باركه تاسوع الآلهة فرعاه في "أفكار قلبه ونطق لسانه"... كان دان أكثرَ صرامةً من جبتو. وأكثرَ تنظيمًا لمنف: أُعِيْدَ بناء الأخصاص وسور القرية. باستخدام الأخشاب وطمي النيل وحزم البردي واللوتس. وأُنشِئت أخصاص جديدة لأسر جديدة.. وأُقيِم معبد مكعَّب. واختار دان عددًا مِن المبجّلين ليكونوا قضاة وكهنة.... أُعِيْدَ بناء الحظيرة. وقُسِّمت إلى أقسام لتسهيل الرعاية. وعزل الذكور عن الإناث وحلابة الألبان...

في صبيحة أحد أيام توت. من العام العاشر لتأسيس عين شمس. خرجت عدة أرماث وطوافات من منف بقيادة "دان". وعليها مجموعة كبيرة من رجال القرية وشبابها وفتيانها. مسلحين بالرماح وعصي الصيد والبلط والسكاكين الحجرية.. ساروا صاعدين في النهر إلى الجنوب معتمدين على الرياح والأشرعة أحيانًا. وعلى مذراة الدفع والجاديف في أحيان أخرى. إنها رحلة صيد وجمع للثمار من مناطق الجنوب التي لم تطأها أقدام ولا طوافات الجبتيين... ساروا مع النهر العظيم يجوبون جزره وشواطئه. وامتلأت سلالهم وطوافاتهم بالموز وثمار أخرى كثيرة. كانت موجودة في ذلك الزمان... كذلك اقتنصوا فرائس كثيرة. ربطوها ووضعوها إمّا على الطوافات. وإمّا على بعض الجزر الرسوبية ليحملوها في طريق العودة إلى منف.

حطّوا رحالهم على لسان متصل بالشاطئ. وأطلقوا على المكان اسم "ميدوم": وهو أول شاب نزل من طوافته إلى الشاطئ ليجمع مزيدًا من الرُّطب المتساقط أسفل مجموعة من النخيل. تلهو عليها أعداد من القردة بأكل الرطب. والانتقال من نخلة إلى نخلة أخرى متداخلة معها بسعفها...

وتوغّلوا في الشاطئ.. وبينما كان "رام" و"مِرن" يطاردان وعلا. شعرا بأن هناك مَنْ يراقبهما: فلبثا في دَغَلٍ لا يتحرّكان. وبعد فترة من الوقت. رأيا فتى وفتاة في طريقهما إلى النهر ومعهما أوعية البامبو. صاح "رام" بشعار القبيلة: "جبنو.. جبنو.." فأسرع الفتى والفتاة في العدو. وهما يردِّدان شعار قبيلتهم: "راهو.. راهو.." وأسرع "مِرن" يعدو خلف الفتاة الصغيرة: فتعثرت في بعض

النباتات. واستطاع "مِرن" أن يقبض عليها ممسكًا بشعرها. بينما لاذ الفتى بالهرب.

أقبل دان ومَنْ معه. ولمَّا عرفوا ما حدث. أمر "دان" الجميع بالرحيل سريعًا؛ فنزلوا إلى طوافاتهم وأرماثهم. وابتعدوا عن الشاطئ. وساروا مع التيار إلى الشمال... وكان مِرن لا يزال ممسكًا بالفتاة الصغيرة وهو على متن طوافته... عبر المنفيون منطقة من النيل يمتد إليها لسان من الشاطئ. وعلى ذلك اللسان وقف جمع من البشر يطلقون من آن لآخر شعارهم: "راهو... راعو.. لاهو.. لاهون". ولمَّا رأى هؤلاء "الراهو" أو "اللاهون" الذين هم أهل "ميدوم". في عُرْف الجبتيين. الأرماث والطوافات السابحة في الماء. خرُّوا راكعين للآلهة التي تركب الماء ولا ترهب التماسيح. ولا تخشى أفراس النهر... وبالرغم من ركوع أهل ميدوم لآلهة منف التي تركب الماء. إلا أن هذه الآلهة المزعومة فرَّت في اتجاه منف في الشمال.

وصلت الأرماث والطوافات إلى منف قبل الغروب بقليل. وُزِّعَت سلال الفواكه والثمار على الجميع. وسُحِبَتْ الفرائس إلى الحظائر. وأُشْعِلَت النيران لإعداد طعام المساء. وإحراق رءوس الأضاحي وأرجلها وأحشائها على أحجار القرابين كتقدمة مسائية لرع والتاسوع المقدس.

أثناء العشاء. كانت عيون القوم مركَّزة على الأسيرة الميدومية. التي زاد التصاقها بالفتى مِرن... ورأى الجميع ما كان على ملامحها ووجهها من استغراب. لمَّا قَدَّم إليها مِرن نصيبها من اللحم المشوي: إذ ظهر جليًا للجميع أنها تأكل مع الرجال لأول مرة.

بعد العشاء. تجمَّع القوم حول النار. وتحدَّث دان ورفاقه في رحلة الصيد عما شاهدوه في رحلتهم إلى ميدوم. وعجب كثيرون لوجود بشر آخرين. وعجبوا أكثر لكونهم لم يصلوا لمعرفة الكثير من الأسرار. وشعروا من خلال التفاهم مع الأسيرة الميدومية بالإشارة. أن تلك الأسيرة قريبة منهم بالقلب وإن كان اللسان مختلفًا" [1]... وانفضّ الجمع من حول النار. وأخذ مِرن أسيرته ودخل خصه الجديد.

استيقظت الأسيرة قبل مشرق رع. على نباح الكلاب الذي لم تَعْهَدْه في قريتها؛ أزاحت الباب ونظرت. فإذا بالكلاب تملأ الساحة باطمئنان لم تَعْهَدْه في قريتها في علاقة الوحوش بالإنسان... ولمَّا لم تفهم الأمر. أغلقت الدلنا وعادت

فاستلقت على الفراش بجوار مِرن، فما لبث أن استيقظ، وأخذ يربت على شعرها؛ ليشعرها بالاطمئنان.. وأشار إلى نفسه وقال "مِرن". ثم أشار إليها مستفهمًا فقالت: "هاجار" فأخذ يردِّد اسمها وهي تبتسم..

دبَّت الحركة في منف، وتراجعت الكلاب خلف الأسوار، وتجمَّع أهل منف للطعام وعجبوا من أن هاجار صارت كواحدة منهم بمجرَّد أن قضت ليلة مع مِرن في خصه، وأكلت من طعامهم.. وردَّدت البنات أسماءهن وهن يُشرْن لأنفسهن، وطلبن من هاجار بالإشارة أن تذكر اسمها فقالت "هاجار"؛ فشعرن بقربها منهن، حتى باللسان؛ لأن اسم "هاجار" من الأسماء المألوفة لهن؛ كما أن بعض كلامها مفهوم لهن.

بالرغم من قلَّة المياه الجارية في النيل عند منف، إلا أن دان أصرَّ على الرحلة إلى عين شمس؛ إذ بات يشعر بالقلق لقرب بشر آخرين من منف.. حُمِّلت الطوافات بسلال الرُّطب والثمار وبعض الفرائس، واتجه دان إلى عين شمس، ومعه مجموعة من رجال منف.. وحين التقى جبتو عرض عليه مخاوفه من وجود قرية على بُعْد نصف نهار إلى جنوب منف، وطمأنه جبتو قائلاً "أعداد حاملي الرماح في منف صارت كبيرة، ولو كان الميدوميون ذوي قوة وعدد كبير، لبادروا إلى القتال لتحرير أسيرتهم، وأنتم تقولون إن أسيرتهم تبدو قريبة منا بالقلب، وإن اختلف اللسان، كما أنهم أقل صلة بتاسوع الآلهة؛ لهذا لم تلهمهم، فهم أقل خبرة، كما أنهم ركعوا لكم لمَّا رأوكم تركبون الماء واعتبروكم آلهة..".

وقال لابانو: "إن هؤلاء الميدوميين لا بد وأن يكونوا من سلالة قريبة منا بالدم والقلب، وإن اختلف اللسان، بدليل ما تقولونه من أن قلب الأسيرة، وبعض نطقها قريب منا..".

الإصحاح الثاني

في مساء يوم زيارة المنفيين لعين شمس؛ طلبًا لرأي جبتو وحكمته، اجتمع الجبتيون حول نار عين شمس المقدسة، وقُرِعت طبول المعبد وأُقِيم احتفال راقص؛ بمناسبة إعطاء كونا بنت جبتو امرأةً لبيبي أحد شباب منف.

بالرغم من سعادة جبتو بالحفل، وشعوره بقوة الجبتيين في منف وعين شمس، وتزايد الأعداد، خصوصًا في جيل الأطفال، إلا أن قلبه كان لا يزال مشغولاً بقضية العدد، وعاوده وحي رع والتاسوع بضرورة ختان الذكور؛ حتى يكونوا في فحولة الثور المقدس "أبيس" ومن ثمَّ تكون النساء في خصوبة "حتحور" و"قمة الغرب"[1].

في صبيحة يوم من أيام بؤونه من العام التالي (العام الحادي عشر من تأسيس عين شمس) ومع بدايات الفيضانات، أمر جبتو بإعداد عدد كبير من الأرماث والطوّافات، ومن مرفأ عين شمس، خرجت الطوّافات والأرماث بقيادة جبتو محملة بأعداد كبيرة من شباب المقاتلين وفتيان الصيد، ومعهم رماحهم وأسلحتهم ذات الأسنّة الحجرية، ومعهم سلالهم استعدادًا لقطف الثمار والفواكه والخيرات... اتجهوا شمالاً مع تيار الماء المتدفِّق، ولَمَّا كانت هذه أول رحلة مع الماء إلى الشمال، مالوا إلى الحذر؛ فالأرض مجهولة لهم، وكذلك فروع النيل ومستنقعاته في أرض الشمال.

رسا الجبتيون على جزيرة من جزر النيل، ربطوا أرماثهم وطوّافاتهم بالحبال إلى أشجار الجزيرة... فوجئوا بجنة لم تطأها أقدام البشر... ملأوا سلالاً بالعنب والرمان والموز والبطيخ والفاقوس والشمام وثمار أخرى... أشعلوا النار وشووا عدة بجعات وإوزات وخنزيرين وأكلوا وشربوا، ولم ينس جبتو حق الآلهة في الأضاحي؛ حيث طرح الرءوس والأرجل والأحشاء في النار فتصاعدت روائح المحرّقات إلى رع والتاسوع في السماء.

بعد الطعام، انحرفوا شرقًا في أحد أفرع النيل وهم يردِّدون خلف جبتو في قدّاسهم الصباحي ترنيمة للتاسوع المقدس (وأثبت –أنا مانيتون السمنودي– سورنا أو ترنيمة "الشكر لرع والتاسوع على هبة الأرماث والأشرعة" والمنسوخة

عن متون التوابيت... تقول الترنيمة: "يا رع يا نور الكون... يا بتاح أيها الإله الصانع... أيها التاسوع المقدس. لكم منا -نحن الجبتيين -التقديس والتبجيل والتقدمات؛ فقد أوحيتم لنا صناعة الأرماث والطوّافات. كما ألهمتمونا سر الشراع. حتى نجمع أنفاس "تشو" التي تسيِّر الأرماث ضد التيار. إنكم قد أوحيتم إلى التماسيح وأفراس النهر ألا تعتدي على الأرماث والطوَّافات... أيتها الآلهة العظيمة التي هجرت ارض مصر إلى جنة السماء... تباركتم وتعاليتم فقد أحتم لنسلكم من الجبتيين أن يسبحوا بأرماثهم وطوَّافاتهم هنا وهناك لكي يزدادوا قوة وكثرة. ولكي يستمرُّوا في الوجود إلى أبد الأبدين.. هيلا... هيلا... هيلا" [٣].

كان "نوتي" [٤] ماسك المذراة الطويلة في طوّافة المقدِّمة هو المسئول عن تحديد اتجاه السير. كما كان مسئولاً هو و"تينو" و"رامو" عن تحديد معالم الطريق بترك علامات واضحة؛ لتأمين طريق العودة. حتى لا يضلوا الطريق في تلك المستنقعات والأفرع والجداول المتشعبة التي يتدفَّق فيها ما يلقيه "حابي" بشادوفه المقدّس... نزلوا جُزرًا أخرى. وملأوا مزيدًا من السلال. واقتنصوا الكثير من الطيور والحيوانات.. ورأى جبتو أن يعودوا. فسوف يكون طريق العودة طويلاً؛ حيث سيكون اعتمادهم على الأشرعة والمجاديف والمذراة.

حين داروا للعودة. خُيِّل إليهم أنهم رأوا بشرًا على أحد ألسنة الشاطئ. خلف أشجار ذلك اللسان. فاتجهوا بالطوافات والأرماث إلى ذلك اللسان. وحين كانت طوافة نوتي. على بعد مذراه أو مذراتين من الأرض. فوجيء الجبتيون من أهل عين شمس بعدد كبير من النساء والبنات وبضعة غلمان. يقفون بين أشجار الشاطئ... فصاح الجبتيون بشعارهم: "جبتو... جبتو..." وكانوا يتوقَّعون من الواقفين على الشاطئ ترديد شعارهم والاستعداد للتصدي والقتال. لكنهم فوجئوا بهؤلاء الواقفين. يركعون لراكبي الأرماث والطوَّافات من الرجال والشباب ذوي اللحى... نزل "نوتي" وربط حبال طوافته بشجرة على الشاطئ وتبعه الآخرون.. أمر جبتو بإحضار سلال من الرطب والعنب وقام بتوزيعها على هؤلاء الراكعين للتحية.

قال جبتو لهؤلاء الراكعين للتحية. بعد أن استنهضهم من ركوعهم. مشيرًا لنفسه ولمَنْ معه: "جبتو". فإذا بهم يركعون من جديد؛ فاستنهضهم

جبتو مرة ثانية، فقامت امرأة متينة البنيان فارعة الطول فاحمة البشرة، واستنهضت الباقيات فوقفن، وأحس جبتو ومَنْ معه من عين شمس أن هذه المرأة هي الزعيمة.. حيَّاها جبتو من جديد وأشار لنفسه وللجبتيين وقال: "جبتو"، ففهمت المرأة، وأشارت لنفسها ولمَنْ حولها من النساء والبنات وبعض الصبية وقالت: "أتريب"؛ وشعر جبتو أن المرأة قريبة بالقلب والدم، وإن كان اللسان مختلفًا...

أمر جبتو فأُحْضِرَت عدة عنزات وتيسان وخنزيران.. وجرى الإعداد للطعام بالاشتراك بين رجال عين شمس ونساء "أتريب" فارعات الطول؛ وأشعل أحد رجال عين شمس النار باستخدام قطعتي حجر.. وقدّم الطعام للجميع.. وتدريجيًا خفَّ شعور أهل أتريب بالقداسة تجاه رجال عين شمس، خصوصًا بعد أن رأوهم وهم يأكلون ويشربون مثلهم.

فهم أهل عين شمس أن السيادة في "أتريب" للمرأة، وأن تلك الزعيمة - التي لم تكشف عن اسمها - هي المسئولة عن الجماعة.. وسألت الزعيمة - بالإشارة -عن كيفية صنع الأرماث والطوّافات.. وعلى الفور، نزل عدد من شباب عين شمس إلى الشواطئ فجمعوا كمية كبيرة من الأعواد الجافة والخضراء، من البوص والبامبو والبردي واللوتس، وحزموا الحزم، وصنعوا رمثين وطوّافتين هدية للزعيمة ونساء أتريب.. وردت الزعيمة بأن أمرت امرأتين عملاقتين: فذهبتا وعادتا بقارب خشبي مصنوع من جذع شجرة جميزة، بطريقة النحت والنقر والتجويف.. فسأل "نوتي" الزعيمة عن الأداة التي جوّفوا بها القارب؛ فأخرجت امرأة من إزار صدرها سكينًا عجيبة، صُنِعَتْ من حجر لامع، يجمع في لونه بين الحمرة والزرقة والصفرة، وطرقه نوتي على قطعة صخرية؛ فأحدث رنيًا عجيبًا... وحاول الجبتيون معرفة المكان الذي يُجْلَب منه هذا الحجر، لكنهم لم يخرجوا بشيء سوى أن رجلاً جاء من المستنقعات الشمالية، وكان معه بضعة سكاكين من هذا النوع.

الإصحاح الثالث

لم يجد جبتو بأسًا من قضاء الجبتيين الليل في ضيافة أهل أتريب. وقامت الإتريبيات عند الغروب بذبح عدد من الخنازير والتيوس. وأشعلت الزعيمة نار "نوت" بطريقة أهل أتريب: حفرت حفرة ضيقة بسكينها النحاسية في جذع شجرة جاف. وأدخلت عودًا جافًا في تلك الحفرة. وجعلت تدير ذلك العود بكلتا راحتيها. وبعد فترة تصاعد الدخان بفضل تعويذة "نوت" [5] وأُشْعِلَت النار وتمّ الشواء..

وتحلّق الجميع حول النار يأكلون ويشربون.. ومن جديد شعر جبتو بأن الأتريبيات قريبات من الجبتيين بالقلب. وإن كان اللسان مختلفًا. خصوصًا بعد أن أشارت الزعيمة إلى نوت "ربة السماء. وبعد أن وضعت رءوس الحيوانات المذبوحة وأرجلها وأحشاءها لتحترق في النار. ورفعت يديها تردِّد مزمورًا. سمع منه جبتو كلمة "لا" التي تعني "را" أو "رع".

قامت الزعيمة والنساء. بعد العشاء برقصات عنيفة. ثم قُدِّم شرابٌ من الماء مخلوط بمسحوق بعض البذور. وشرب الجميع. ما عدا جبتو. الذي تذكّر حكاية من حكايات "جبتو مصرايم" عن آكلات اللوتس. وشاربات مائه. اللاتي يُسْكِرن الرجال ويستولين عليهم؛ لهذا شرب جبتو الماء بدلاً من الجعة... وأخذت الزعيمة جبتو إلى خُصِّها ليقضي الليل معها. واختارت كل أتريبية رجلاً من عين شمس أو فتى ليقضي الليل معها؛ إذ لا رجال في أتريب...

كاد النهار ينتصف. والجبتيون والأتريبيون مجتمعون قرب مرفأ أتريب... وشرب الجميع الجعة. حتى جبتو الذي لم يعد يهتم بحكاية آكلات اللوتس وشاربات مائه. والآسرات للرجال بالشراب المخدِّر.. وسُمِعَت صيحات "أتريب" فنظر الجبتيون إلى صفحة النهر. فوجدوا عددًا من القوارب الخشبية المنقورة من خشب الجميز. تحمل عددًا من النساء والبنات يرددون الشعار "أتريب".. وظل الجبتيون في أماكنهم. بينما استقبلت النساء الأتريبيات زميلاتهن... وكان الشراب والطعام من جديد... وأعقب ذلك رقص عنيف من الأتريبيات وشباب عين شمس. وبعد الرقص. اختارت كل امرأة رجلاً ودخلن إلى الأخصاص.

عند الوداع، عرضت الزعيمة على جبتو عرضًا غريبًا، وهو أن تعطيه سبع فتيات، في مقابل أن يعطيها سبعة فتيان... وتردَّد جبتو، ونظر إلى أفراد بعثته، فقرأ الموافقة في وجوه الكثيرين... وتمت المقايضة... وأفصحت الزعيمة عن اسمها "هاجال" ذلك أنها لم تعد تعتبر جبتو غريبًا يريد الشر[٦]... وفهم جبتو من إشارات هاجال أن الأطفال الذكور من أتريب حلت عليهم لعنة رع وأتوم فهم يموتون قبل البلوغ؛ ما يجعل نساء أتريب يبحثن عن الرجال، وما يجعلهن يشعرن بالقداسة تجاه الرجال، الذين يعيشون ببركة رع وأتوم وبقية التاسوع [٧].

تعجَّبت النساء والبنات والرجال في عين شمس، حين رأوا البنات القادمات على الطوَّافات؛ كانت قاماتهن أكثر طولاً، وبشرتهن أقرب إلى البياض.

نزل الجميع من الأرماث والطوَّافات وأُعِدَّ العشاء... وبعد العشاء، قُرِعَت طبول المعبد، واشتد الراقصون والراقصات عنفًا، وخلال الرقص، عرفت كل امرأة أتريبية رجلها... وكان جبتو قد أختار أطول الفتيات وأكثرهن قوة، وهو جالس قرب النار لكن ما إن اختارت تلك الفتاة، ابنه الأول "كونو" حتى سكت جبتو، وصمتت أطماعه [٨] ودخلت الأتريبيات مع رجالهن إلى الأخصاص.

انصرف الجميع، وظل جبتو بجوار النار يفكِّر في مصير الجبتيين، بعد أن اتصلت منف بميدوم، واتصلت عين شمس بأتريب، وسبعًا من بنات أتريب صرن أمهات في عين شمس... نهض جبتو من مكانه عند النار؛ فنبحت الكلاب عند الأسوار، فبدا لجبتو أن يطمئن على أقسام الحظيرة، فاتجه إليها، وسعد كثيرًا، حين رأى أقسام الحظيرة تعجُّ بالحيوانات المستأنسة... ورأى جبتو أحد العجول... وفكَّر من جديد في أن الفتيان لو خُتِنوا، وأصبحوا بلا غرلة، كالعجل "أبيس"، فإن هذا أدعى لزيادة نسل الجبتيين؛ إذ إن الآلهة تبارك المختونين من الذكور.

الإصحاح الرابع

وضعت "نيما" زوجة "وان" طفلاً ذكرًا.. وقُدِّمت عدّة تيوس كقرابين للآلهة في معبد عين شمس... واستدعى جبتو الكاهن الطبيب "دِبْحِين" وأبلغه أن الإلهة "حتحور" والإلهة "نوت" ومعهما "قمة الغرب" زرنه ذات ليلة بعد أن شرب من سكائب الخمر المقدّسة، وأبلغنه بأن مجمع التسعة المقدسين يأمر بأن يُخْتَن جميع الذكور من الجبتيين، وأن يكون الختان في اليوم الثامن من الميلاد.. وكان "سبحو" ابن "نيما" و"وان" أول مولود خُتِنَ في عين شمس... ووضعت "كونا" زوجة "بيبي" ولدًا آخر، وفي اليوم الثامن من ميلاده ختنه "دِبْحِين" الطبيب الكاهن. وتركت "كونا" شأن تسمية الصغير لأبيها جبتو؛ فسماه باسم "أبيس" نظرًا للتشابه المرجو بين الوليد وبين "أبيس".

مرّ ما يقرب من عامين على ميلاد "أبيس" ابن كونا، وابتدأت حرارة الجو تتزايد في بشنس... وذات يوم من بشنس، وكان الطفل "أبيس" قد فطمته أمه، وأطعمته شيئًا من كبد الصيد، وكان يصرخ ويبكي ويبدو على وجهه سمات الألم والمعاناة...

(أثبت -أنا مانيتون السمنودي، المكلّف بتسجيل الجبنانا- شيئًا من بردية من البرديات من الواضح أنها تُكَمِّل قصة كونا وابنها والقمح، ويبدو من طريقة كتابة البردية، أن ما دُوِّن بها عبارة عن قصيدة شعرية يستنسخها التلاميذ [9] في المعابد للتدريب على الكتابة، وحفظًا للآداب القديمة... تقول سطور البردية: في الحقبة التي سبقت عصر إيزيس، سكنت نساء مصريات كهوفًا أو أخصاصًا... الأم المصرية "كونا" كانت قد فطمت صغيرها "أبيس"... الأم "كونا" أطعمت الطفل شيئًا من مخ الصيد، وشيئًا من كبد الصيد... الطفل الصغير يبكي ويتألم... والأم "كونا" تبكي وتتألم... خرجت كونا بالطفل من الكهف إلى شاطئ النهر، عسى الآلهة ترى ألمه فترق لحاله. جلست "كونا" بالطفل على الشاطئ، وتطلّعت إلى السماء، رأت عشًا للعصافير ومعهم أمهم تطعمهم منقارًا لمنقار، وتنزل العصفورة الأم فتفتش في الأعواد الذهبية عن الحبات الذهبية... فتأخذ الحبات بمنقارها وتطعم الصغار، منقارًا لمنقار... انتبهت الأم الجبتية... فتشت في الأعواد الذهبية فرأت سنابل "رع" بحباتها الذهبية... مضغت

الحبات الذهبية، وأعطتها وليدها "أبيس" فمًا لفم.. هذا الطفل.. ضحك الطفل.. ضحكت "كونا" وجمعت مزيدًا من الحبات الذهبية... نبتت بعض الحبات الذهبية في الكهف... في العام التالي زرعت كونا تلك الحبات الذهبية في الطمي الذي خلّفه حابي بعد الفيضان... وفي شهر بشنس حصدت "كونا" سنابل ذهبية، تحوي الحبات الذهبية... وعرفنا -نحن الجبتيين- الكونا أو الكورنا أو القمح...)[١٠].

صنعت بنات "أتريب" في عين شمس من حبات "كونا" أي القمح، ذلك الشراب الذي تعوَّدن شربه في أتريب، وهو الجعة.. وكانت النساء الأتريبيات متعوِّدات على صنع "الجعة" من حبات ذلك النبات البري.. ولكن ذلك النبات صار الآن يُزرَع في عين شمس بل وانتقلت زراعته إلى أتريب ومنف... يطحنون حبوب القمح، ثم يجعلونها عجينًا ويضعون فيه خميرة من عجين أمس، وخميرة عجين أمس توخذ من عجين أول أمس... أمَّا أصل الخميرة فيعود إلى الإله "بتاح" الصانع، الذي يهوى شرب وصناعة الخمر والجعة. ونظرًا إلى أن الخمر والجعة لا تجود إلا بالخميرة، فإن "بتاح" قد وضع أصلها في شادوف "حابي" (أثبت -أنا مانيتون السمنودي -من بعض المتون المصرية، ما يتعلَّق بيوم النقطة: الإله "بتاح" يهوى الخمر والجعة في جنة التاسوع في السماء؛ لهذا أراد أن يجعل نسل الآلهة من الجبتيين يستمتعون بالجعة.. ولمَّا كانت الجعة لا تصلح بدون خميرة؛ لهذا وضع بتاح أصل الخميرة في ماء النيل من خلال شادوف "حابي" الذي ينقل المياه الحمراء من جنة الآلهة في السماء، إلى جنة أبناء الآلهة من الجبتيين... وكي تتجدَّد تلك الخميرة السماوية كل عام، صارت "نقطة الخميرة" تنزل من السماء كل عام في الليلة الحادية عشرة من بؤونة)[١١].

تعوّد الأطفال أن يأكلوا حبوب القمح.. وفي بعض الأحيان كانوا يأكلون عجين الجعة (وأثبت -أنا مانيتون- جزءًا آخر من بردية: ذات مرة كانت طفلة من بنات عين شمس، تعبث بالطمي، تصنع منه أوعية طعام وأوعية شراب، تدفعها في النار لتجف، نظرت الطفلة إلى عجين الجعة، ولمَّا رأته طينًا أبيض، صنعت منه أوعية طعام مسطوحة ولمَّا دفعت بهذه الأوعية على الأحجار المحمَّاة، إذا بها تنتفخ، وتخرجها الطفلة وتأكل منها، ويأكل منها الجميع.. وعلّمت الآلهة، من خلال طفلةٍ صناعة الخبز أو "البِتّاو"[١٢] لجميع المصريين).

الإصحاح الخامس

مرّت عدة أعوام على بدء زراعة القمح في الطمي الرسوبي الذي يتخلّف عن الفيضان، وزادت أعداد الأطفال والصبيان في جبتانا الأولى التي هي منف.. وكبُر "دان" زعيم منف، وزوّدته الآلهة بالحكمة "يفكّر بها قلبه وينطق بها لسانه"، ومع ازدياد حكمة "دان" ازدادت وساوس قلبه، التي لم ينطق بها إلا للخاصة الذين يعتمد عليهم، مثل "مِرِن" الذي جعله دان مسئولاً عن الصيادين والمقاتلين، ومثل "ميدوم" قائد الأرماث والطوّافات، والذي علّمته الآلهة كيف يستخدم المجداف والمذراة وقوة هواء "تشو" في الشراع، ومثل "ساكبو" الحكيم الذي ملأ "تحوت" قلبه بالحكمة فصار مسئولاً عن المعبد ونار المحرّقات والطب.

مما زاد من وساوس "دان" أن أشياء كثيرة تطفو على مياه حابي تأتي من الجنوب: مآزر، عصي صيد ورماح، جثث أو بقايا جثث بشرية، أوتاد وحبال، أشياء كثيرة كأنها تحدّث "دان" وتقول له: "هناك بشر آخرون".. فاهتمّ "دان" بالأعداد، اهتمام جبتو بها، كما اهتمّ بالصيادين والمحاربين، وكان يداوم الرحلة إلى عين شمس ليأخذ من حكمة جبتو ابن الآلهة، ارتحل إلى "أتريب" بوساطة من جبتو وبنات أتريب في عين شمس، بل واستطاع أن يقايض "هاجال" زعيمة أتريب بعدد من فتيان منف، مقابل عدد من فتيات أتريب اللائي لا يفوقهن أحد في إعداد النبال والسهام والرمي بها.. وكانت الشائعات قد انتشرت في منف وعين شمس، أن النساء في أتريب كثيرات، وأنه لا يكاد يوجد رجال في أتريب وتاميلا وبسطا؛ حيث حكمت عليهم الآلهة بإنجاب النساء، ولو أنجبن ذكرًا، فإنه غالبًا ما يموت.

(أنقل -أنا مانيتون كاتب أسفار التكوين المصرية- جزءًا من بردية من عصر الدولة القديمة، عصر بناة الأهرام، تحكي عن رحلة "دان" و"مِرِن" إلى "ميدوم" و"لاهون" في عصر ما قبل الأسرات.. تقول البردية: نقلاً عن نقوش قديمة: كان الجميع في منف يتهيّبون "دان" كأنه إله.. ألح "مِرِن" على "دان" أن تُوجّه بعثة سلام إلى "ميدوم"، وأكدت "هاجار" زوجة مِرن أن قلوب "اللاهون" و"ميدوم" قريبة من قلوب أهل منف، وإن كان اللسان يختلف في بعض نُطْقه، كذلك فإن تاسوع الآلهة واحد.. وأُعِدّت الرحلة إلى ميدوم، وذلك في شهر بشنس، قبل أن يُعْمِل حابي شادوفه السماوي فيكون الفيضان، وذلك في العام الثالث بعد الرحلة

الأولى. التي أسر فيها "مِرن" "هاجار" زوجته الميدومية.. ترك "دان" الحكيم العرّاف "ساكبو" في منف نائبًا عنه. وأخذ معه "مبدم" قائد الأرماث والطوّافات. و"مِرن" وزوجته "هاجار" التي أصبحت تعرف لسان منف. كما تعرف لسان اللاهون في ميدوم. وحُمِّلت الطوّافات والأرماث بالصيادين المقاتلين. كما حُمِلّت بجرار الجعة. وجرار القمح وسلال الفواكه.. تقدّمت البعثة في اتجاه الجنوب. بعكس اتجاه تيار الماء. وبالاعتماد على المجداف والشراع والمذراة.. كُلِّف الجنود بإحداث ضوضاء بالقرع على الطبول؛ حتى يشعر بهم أهل ميدوم.. وأخذت "هاجار" تصيح: "راعو. لاهو. لاهون". وبدأ رجال وصيادو ميدوم يراقبون الأرماث والطوّافات.. ولمّا اقتربت الطوّافات والأرماث من قرية ميدوم. بدا على أهل ميدوم أنهم عرفوا "هاجار". وأنهم أصبحوا يشعرون بالأمان بالرغم من وضع الاستعداد للقتال الذي ظهروا به.. ولمّا كلّمتهم "هاجار" أبدوا تفهّمًا لِمَا قالته لهم).

تقدّم دان ومرن ومبدوم وهاجار من مركز قرية "لاهون" وخلفهم بقية الجنود الصيادين من أهل منف. يحملون جرار الجعة والقمح وسلال الفاكهة. ولمّا قُدِّمت الهدايا. زاد الاطمئنان لدى أهل "لاهون". وبعد أن شربوا الجعة. أمر زعيمهم "باي" رجاله فوضعوا أسلحتهم. واستعدوا لإطعام الضيوف.. أثناء ذلك قام "باي" وعدد من رجال "لاهون" باصطحاب الجنبيين لإلقاء نظرة على القرية: فشاهدوا حظائرها. وبيوتها ومعبدها ونارها.. ورأوا مجموعة من "اللاهون" يقيمون جدارًا لبيت باستخدام كتل من الطين ذات أشكال متساوية. فعرفوا من الميدوميين كيف تُصنَع هذه المكعبات التي تسهِّل عمل الجدران. كذلك رأى الجبتيون من أهل منف. رجالاً ونساء من أهل ميدوم. وهم يمتطون ظهر حيوان يسمونه "آس"[١٣] وينقلون على ظهره كثيرًا من أثقالهم.

أكل المنفيون. عبر اللحوم والأسماك. أطعمة أخرى نباتية مطهوّة في النار في أوعية فخارية.. وشرب أهل "ميدوم" من "اللاهون" المزيد من الجعة المنفية.. كذلك قدّم الميدوميون للمنفيين "الكاني" ممزوجًا "بالماني"[١٤].

توطّدت العلاقة سريعًا بين "دان" زعيم منف. و"باي" زعيم ميدوم واللاهون. وقضى المنفيون الليل في ميدوم.. وارتضى اللاهون اسم "ميدوم" علمًا على قريتهم. بعدما فهموا أن المنفيين أطلقوا اسم "ميدوم" قائد طوّافاتهم على قريتهم؛ لأن قدمه كانت أول قدم وطأت أرض اللاهون. في الرحلة الأولى.. كما

فهم المنفيون أن "اللاهون" قبيلة ضخمة موزَّعة على عدَّة قرى من "ميدوم" وحتى "طينا" على امتداد النهر العظيم. وعرف المنفيون أن "اللاهون" يقدِّسون "رع" و"خِنُمْ" وبعضهم يقدِّسون "أتوم" وأن تاسوعهم هو نفسه تاسوع الجبتيين؛ مما يعني الاشتراك في السلالة والدم. عرف الميدوميون من هاجار القمح، الذي أهْدِيت إليهم جرار من حبوبه، وعرفوا منها صناعة الجعة والخبز.. كما نقل المنفيون عن الميدوميين بعض الحبوب كالفول والعدس..

بعد الإفطار من صبيحة اليوم التالي، حُمِّلت طوافات المنفيين بهدايا من جرار الفول والعدس، وأخذت "هاجار" بعض بنات ميدوم ليعشن معها في منف. كما ترك "دان" لباي ثلاثة من الفتيان ليعيشوا في ميدوم، ومعهم أسلحتهم التي منها بعض الرماح ذات الرءوس النحاسية، وكان هؤلاء الثلاثة من المشهود لهم في بناء الطوَّافات.. سار معظم المنفيين بطريق النهر بالأرماث والطوَّافات، وسار بعض الصيادين الجنود من المنفيين بالطريق البري الموازي للنيل، وهم يمتطون الحمير التي أهْدِيت لهم من ميدوم، ويسحبون أعدادًا إضافية من الحمير ذكورًا وإناثًا.

الإصحاح السادس

في عين شمس، كانت جبتانا -زوجة جبتو- تلحّ في تحذير ابنها "كونو" قائد المائة [١٥] من شر الطبيب الكاهن "دِبْحِن"؛ وذلك لأنها لم تجد استجابة من زوجها "جبتو" لتحذيرها إياه من شر "دِبْحِن".. وكانت "جبتانا" تشعر بأن "دِبْحِن" يكن ضغينة لجبتو وكونو، بل يكره الجنود الصيادين أتباع جبتو وأصدقاء كونو.

مضت سبع سنوات على توثيق الروابط بين منف وميدوم وعين شمس وأتريب. وامتدت العلاقات جنوبًا خلال قرى "اللاهون" حتى الفيوم و"أهناسيا" و"تونا" و"ليكو" و"طبنا" ثم امتدت آخر الأمر إلى طيبة... وامتدت شمالاً في مناطق قرى المستنقعات بعد "أتريب" إلى مناطق زارعي النيل والكتان...

انتشرت عادة امتطاء الحمير على المدقّات والطرق الممتدة على طول النهر العظيم وفروعه وترعه وقنواته... كذلك صار الحمار يُسْتَخْدَم في فصل الحبوب عن التبن في أجران القمح والفول والعدس والشعير... ثم أُسْتُخْدِمَت الحيوانات المستأنسة الأخرى، وبُنِيت مخازن بالطمي لتخزين الحبوب.

كان المبجّل "دِبْحِن" كاهن عين شمس لا يرتاح للسمعة الطيبة التي اكتسبها "جبتو" سليل الآلهة؛ فقد كان كل راكبي الأرماث والطوّافات في النهر يردّدون اسم جبتو.. وكذلك فإن بعض طيور السماء تصيح فتقول: "جب تو"... والذين يمتطون ظهور الحمير على الطرق الموصِّلة بين القرى، كانوا يذكرون جبتو بالاحترام والتقديس، وكان اسمه يتردَّد بين الزُّرّاع وصيادي الأسماك في مستنقعات الشمال، بل وكان يردِّد اسمه (المقايضون على النطرون والملح وعروق النحاس من القادمين من الشرق ومن الشمال).

حكمت الآلهة بالمرض على جبتو، فأقعده المرض في بيته بجوار معبد عين شمس، وتردَّد عليه الزوار من الشمال والجنوب حاملين له الهدايا والتقدمات لتُحْرق على الأحجار المقدسة... والمراقبون للمبجل "دِبْحِن" لاحظوا أن هدايا التقدمة كان القليل منها يُقَدَّم للآلهة، أمّا أكثرها فكان يذهب إلى حظيرة دِبْحِن الخاصة.

توفي جبتو في العام الثامن عشر من تأسيس عين شمس في اليوم العاشر من شهر بشنس.. وجاءت الوفود من قرى الأرضين لحضور دفن جبتو... وكان مع كل وفد، كاهن القرية وعدد من كهنة رع، وكهنة الآلهة المحليين من أمثال: خِنُمْ وتحوت وبتاح وبقية التاسوع.

تم تحنيط جسد جبتو، ولُفَّ الجسد بشرائط من التيل والكتان، ثم وُضِع في صندوق من خشب الجميز والسنط... وحُمِل على محفَّة يجُرُّها ثوران، وساروا حتى وصلوا إلى التلال الغربية الجافة، ووُضِع التابوت في الحفرة المُعَدَّة، والرأس متَّجه لمشرق رع، ثم أُهيل التراب على التابوت، وتعاونوا جميعًا فجعلوا على تراب القبر مصطبة كبيرة مربعة من الأحجار... ووقف المبجَّل ساكبو كاهن منف الأول يردِّد هذه السورتا أو الترنيمة، ويردِّدها خلفه شمامسة معبد عين شمس: "أيها الإله الأول أتوم، أي رع رب الأرباب، أي بتاح الإله الصانع... أيها التاسوع المقدس... نرسل إليكم "جبتو" بن "جبتو مصرايم" الذي هو من نسل الآلهة، ليكون كأحدكم في السماء.. لقد أعددنا جسده، ليرقد في أحضان "جب" إله الأرض، وليكون في رعايته، وسوف يظل جسد جبتو سليمًا، حتى تتعرَّف عليه أخته "كا" فتدل عليه روحه "با" فيتصلان ويحيا جبتو من جديد إلهًا في السماء، بل ملكًا متوجًا على الآلهة، مثلما كان راعيًا صالحًا للسلالة الجبتية على الأرض... أيتها الآلهة المقدسة، سوف نقدِّم لك التقدمات والذبائح لتُحرَق على أنصابك المقدّسة، فتصل إليك روائحها في الأعالي، لتكوني معنا -أيتها الآلهة- ولتفيضي بخيرك على كل الجبتيين".

بعد العودة من الغرب، حيث دُفِن جبتو، وقف الجميع خارج معبد عين شمس يتناولون -بحكم عوائدهم- شيئًا من خبز القربان، إشارة إلى أن الميت لا يزال معهم وفيهم، ووقف "دِبْحِن" كاهن عين شمس الأول يعلن أن الآلهة أوحت إليه من خلال "جبار" سفير الآلهة، ومن خلال رؤيا المنام: (وأثبت -أنا مانيتون- ما أوحت به الآلهة حول شعيرة الصيام والإفطار على الكوشير[16]... يقول متن من متون الأهرام: يقيمُ كل الجبتيين في الأرضين، حيث إن الكلَّ في قبضة يد رع وخنم وبتاح وجب ونيت ونوت وبقية التاسوع، شعيرة الصيام ليوم واحد من فجر اليوم الحادي عشر من بشنس، حتى غروب ذلك اليوم.. ليكن الصيام عن الطعام والشراب... وليكن الإفطار تحية لرع الذي علّم السلالة الجبتية كيف تزرع القمح والحبوب، وكيف تستخدم الحيوان لفصل الحبوب عن القش... وليفطر الجبتيون

على "الكوشير" المكوَّن من حبوب القمح والعدس والفول والحمص والثوم والبصل، مطهوًا في الأواني الفخارية على نار نوت سيدة السماء).

أوصى "دِبـْحِن" بصيام ذلك اليوم، والإفطار على "الكوشير"؛ والقرية التي لا يصل إليها الخبر في الوقت المناسب، عليها أن تصوم -هذا العام - في أي يوم من بشنس، لكن في الأعوام التالية، يصوم الجميع في اليوم الحادي عشر، ويفطرون على الكوشير.. وهدد "دِبـْحِن" باسم الآلهة: "والذي يخرج عن شعائر الآلهة سوف يتعرَّض لعقابها بالمرض أو بموت الأهل والولد...". وصار يوم "كوشير" عيدًا مصريًا تكثر فيه تقدمات الشعب إلى الكهنة، وتقدمات الكهنة للآلهة.

قال كاهن شاب من أعداء "دِبـْحِن" لزميله بخبث: "لماذا حدَّد المقدَّس "دِبـْحِن" اليوم الحادي عشر من بشنس للصيام؟ أتراه يحتفل بيوم القمح؟ أم يحتفل بخلوِّ الساحة له بموت "جبتو" بن "جبتو مصرايم"؟!

هوامش سِفْر القمح والكوشير

١- تعبير مألوف في المتون المصرية: "قريب بالقلب، مختلف في اللسان" القلب تعني التفكير، وربما تعني الانتماء لآلهة مشتركة (أو توتم)، والواضح أن مصر القديمة كان يسودها لسان واحد مع تعدُّد اللهجات (واللسان الواحد من أهم أسباب وحدة مصر).

٢- "قمة الغرب" إلهة من إلهات الخصوبة والإنجاب (مثل عشتار آشور وفينيقيا).

٣- راجع التراتيم والمزامير عند: جيمس هنري برستد، وسليم حسن؛ وكذلك بردية تورينو، وبرديات جاردنر.

٤- نوتي: كلمة مصرية الأصل أُضيفت لقائمة الكلمات العالمية؛ تعني ملاحظ الدفَّة، أثَّرت في الساميات واليونانية واللاتينية (عن لويس عوض شخصيًا).

٥- تُسمَّى أعواد "الكبريت" في اللغة العربية "بالثقاب" إشارة للطريقة القديمة في إيراء النار اعتمادًا على "ثُقْبٍ" يُدار فيه عود.

٦- معرفة الأسماء في القديم، وسيلة للسيطرة وأعمال السحر... وهذا يرجع إلى "أسر" اللغة، وتأثيرها المقدَّس باعتبارها هبة من السماء.

٧- لا نستبعد قصة "وفيات الذكور"، ليس لأسباب تتعلَّق برع والآلهة، ولكن لأمراض معينة كانت تتفشَّى في تلك المجتمعات المغلقة؛ حيث كانت الوراثة تعمل عملها.

٨- يؤكِّد جيمس هنري برستد على أن "الأسرة والتضحية للأبناء" هي من أهم أسباب فجر ضمير الإنسانية (راجع فجر الضمير: جيمس هنري برستد).

٩- تلاميذ المعابد الذين ينسخون النصوص المقدَّسة، مشهورون في مصر القديمة، ويرى بعض أساتذة فقه اللغة أن كلمة "تلمود" العبرانية مأخوذة عن الجذر المصري لكلمة "تلميذ" (لويس عوض شخصيًا).

١٠- راجع يوم "النقطة ــ نقطة الخميرة" عند إدوارد لين "الأخلاق والعادات عند المصريين المحدثين"؛ ولا يزال الفلاحون في مصر يؤمنون بيوم النقطة إلى الآن.

١١- القمح من أهم منجزات الحضارة المصرية، وهي حضارة زراعية تعتمد على الحبوب التي تؤدي إلى المزيد من أعداد البشر، وتؤدي إلى ظهور التنظيمات

المركزية للزراعة والري والطرق، وفي النهاية تتبلور الدولة كسلطة عليا، وينمو الدين مع هذا الخط من التوتم البسيط إلى الدين القومي العام.

١٢- بتـأو.. تعني "الخبز" وتعني الحياة، ومثلها تمامًا كلمة "عيش" على ألسنة العامة في مصر.

١٣- الأس أو الحمار هو من الحيوانات الأولى التي استأنسها المصريون.

١٤- "الكاني" السمن أو اللبن، يـمُـزَج "بالماني" أي العسل، ولا يزال "الكاني والماني" يدور على ألسنة المصريين.

١٥- "قائد المائة" تعبير يعني قيادة الجنود (بصرف النظر عن العدد).

١٦- "الكوشير" طعام مصري للإفطار عقب الصيام، وهو من حبوب القمح والفول والعدس والحمص، مع الثوم والبصل، مطهوًا في النار... واليهود أخذوه عن المصريين، ولا يزال المصريون يأكلونه إلى اليوم، وإن غيّروا في طبخه فاستبدلوا الأرز بالقمح، كما غيّروا في اسمه وجعلوه "كُشَري"... ونعتقد أيضًا أن العبرانيين أخذوا عادة أو شعيرة الختان عن المصريين.

سِفْر المتحدون بالقلب واللسان

"جذور المصريَّة والوحدة"

الإصحاح الأول

دخلت "جبتانا" صامتةً واجمة، بيت ابنها "كونو" قائد المائة، وأخذت تربت على رأس "تانا" الأثريبية زوجة ابنها التي هدّها الحزن والأسى لفقد ابنها "دوزير". ثم احتضنت "جبتانا" حفيدها الأصغر "أوزير"، الذي انزوى حزينًا لفقد أخيه الأكبر الذي قيل إن التماسيح قد افترسته.

أصرَّ "كونو" قائد المائة، وابن جبتو وجبتانا، على اتهام المبجَّل "موبي" أحد أتباع "دِبْحِن" بقتل ابنه "دوزير" وإلقاء جثته لتماسيح النيل، وكانت شائعات قوية تتردَّد في عين شمس، بأن "موبي" هو قاتل "دوزير" بإيحاء من "دِبْحِن"، وبأن الصبي "ساسو" ابن "عتهب" رأى "موبي" يلقي جثة "دوزير" في مياه الفيضان... قال "دِبْحِن" "لكونو": "لك أن تتهم المبجَّل موبي، وأنت تعلم إجراءات محكمة تحوت، ذلك أن الجثة غير موجودة، وهذا يقتضي أن تُقَدِّم ثورين، بدلاً من ثور، لناسوع الكهنة، ويُقدِّم الكهنة لتحوت ورع تقدمة الرأسين والأرجل والجلدين والذيلين لتُحَرَّق على الأحجار المقدَّسة، ثم يتناول الكهنة المبجَّلون وجبة الشهادة المقدسة، وبعد أن يستيقظوا من نومهم، وأحلامهم التي يمدُّهم بها تحوت ينطقون بالشهادة المقدسة". وأصر "كونو" على الاتهام بالرغم من رجاء أمه جبتانا أن يتنازل عن الاتهام...

وأكل المبجَّلون وناموا واستيقظوا ليعلنوا أن "موبي" بريء، وأن على كونو، أن يعتذر لمجمع كهنة عين شمس المبجَّلين الذي يضمُّ كلا من "دِبْحِن" و"موبي".

قرب مرفأ عين شمس على النيل، منطقة رملية منخفضة، تصلها مياه الفيضان عند الذروة في شهر أبيب... وكانت بنات عين شمس ونساؤها يغتسلن ويغسلن ثيابهن في هذه البركة التي لا تصل إليها التماسيح، كما لا تصل إليها عيون المتلصصين من الشباب، حيث تحيط بالبركة الصخور والأدغال من معظم الجهات... وذات مرة قالت "تانا" الأثريبية، زوجة كونو فارعة الطول، لبعض النساء: "حين كنا نغتسل شعرتُ بِمَنْ يتلصص ليرانا ونحن عاريات... وتسلَّلتُ خلف الأدغال: فرأيت الكاهن المبجَّل موبي، راكعًا بين الصخور والأشجار معنًا النظر في النساء العاريات". وكان "كونو" يعرف تلك الواقعة... وبعد حكم محكمة تحوت، رأى موبي يسير في اتجاه البركة، بركة المستحمات، فأسرع "كونو" وكمن بين الأدغال.

وركع "موبي" بين الصخور يمتع بصره برؤية العاريات.. وتقدَّم "كونو" بحذر ومعه صخرة هشم بها رأس "موبي" المقدَّس.

في اليوم التالي، وبعد أن شاع خبر مقتل "موبي"، وسُحِبَت جثته إلى المعبد، دقت الطبول المقدسة، ونودي على أهل عين شمس بالقرون والأبواق، واجتمع الناس في ساحة القرية بالقرب من المعبد والحكمة والنار المقدسة، وقال المبجل "دِبْحِن" لأهل عين شمس: "علمتم بما حدث.. وسوف يقدِّم ناسوع الحكمة، الذي صار ثامونا بفقد المبجَّل "موبي"، ثورًا واحدًا لتحوت، حيث إن جثة المقتول حاضرة، وسوف يقدِّم المبجَّلون الرأس والأرجل والجلد والذيل لتُحْرَق على النُّصب المقدَّس، ثم يتناولون طعام الشهادة داخل المعبد منفردين، ويضربون الميت بما يتبقى من الذيل المحروق؛ فيصحو الميت ويخبر بمَنْ قتله.. والحكم معروف: عين بعين، دمٌ بدم، حياةٌ بحياة.." وانصرف أهل عين شمس واجمين، وشاعرين في أعماقهم بخسارة فَقْد جبتو بن جبتو مصرايم، وبعدم التوفيق إذ وُلِّي عليهم المبجل "دِبْحِن" الذي لا يثقون به.

أسرعت جبتانا إلى بيت ابنها "كونو" لتوصيه بالهرب إلى منف، عند سيد منف "دان" تلميذ والده جبتو، وشقيقه هو بالروح، ولمَّا لم تجد "كونو" أوصت زوجته بالاستعداد للرحيل.. وأعدت "تانا" للرحلة: أعدت الحمير، وجمعتْ أهم ما يمتلكون، وانتظرت حضور "كونو".. وفي المساء شاع أن الكهنة برئاسة "دِبْحِن" عيَّنوا "وان" بديلاً من "كونو" لقيادة المائة.. وشاع -كذلك- أن "كونو" قُبِض عليه وحُبِس في المعبد.

في الصباح دُقَّت الطبول المقدَّسة من جديد، واجتمع الناس في الساحة، بأمر من المبجَّل "دِبْحِن" كاهن عين شمس، لإعلان حكم الكهنة الذي أوحى به الإله "تحوت".. دقت الطبول دقات سريعة، وظهر "دِبْحِن" على مصطبة المعبد ليعلن في الجميع: "إن الكهنة المبجَّلين، بعد أن أكلوا "وجبة الشهادة" من ثور التقدمة.. ضربوا جثة المبجَّل "موبي" ببقايا ذيل الثور؛ فعادت "الكا" إلى جسد موبي فاهتز وبدأ يتحرك، ثم ضربوه الضربة الثانية؛ فعادت إليه "البا" [1] فنطق وقال للجمع المقدَّس إنه تسلَّل خلف كونو، الذي تعوَّد أن يتلصص على المستحمات في البركة، ولمَّا اكتشف كونو أن المبجَّل "موبي" قد رآه، أسرع بسكينه النحاسية فذبح موبي، وكلكم يعلم أنه لا توجد سكين نحاسية إلا مع

كونو ومعي ومع "وان"... إن حكم الكهنة المبجّلين معروف، إنه شرع "تحوت": موتًا بموت كونو، وتُلْقَى جثته للسلالة المقدّسة للتمساح الإله "سوبك" في مياه النيل... وبحسب شريعة تحوت فإن "أوزير" ابن القاتل "كونو" يصبح من عبيد خدمة المعبد، كما تصير زوجته "تانا" الأتريبية جارية وخادمة للكهنة المبجّلين...".

وانشغل الكهنة، وانشغل معهم رئيسهم "دِبْحِن" بمراسم صرف الكا والبا، ومراسم تحنيط وتجهيز جسد "موبي" للدفن... وأسرعت جبتانا، فأمرت زوجة ابنها "تانا" الاتريبية، فهربت بحميرها وابنها "أوزير" بالطريق البرِّي إلى "منف".

الإصحاح الثاني

وصلت الأنباء إلى منف؛ إذ إن الطوّافات والأرماث صاعدة وهابطة في النيل والمستنقعات، تحمل الناس وتحمل الأخبار. كذلك فإن الطرق والمدقّات صارت تعجُّ بالمسافرين على الحمير من هنا وهناك، وكل يخبر مَنْ يلقاه بأهم أخبار المدينتين المقدَّستين... وعلم "دان" بما حدث فحزن لمصرع كونو بن جبتو الذي هو من نسل الآلهة، وحزن أكثر لأن كونو قد فقد اسمه كما فقد حياته السماوية في جنة الآلهة؛ لأن جثته، أطعم بها الإله "سوبك" نسله من التماسيح... قال المبجَّل "ساكبو" الكاهن الأول لمنف يحدِّث "دان": "ألم أقل لك إن "دِبنْحِن" يريد فرض سلطانه على كل السلالة الجبتية؟! إنه قتل "كونو" مخلصًا من نسل الآلهة... وسبق أن أخبرتك بسعيه لفرض سلطانه على الجامع المقدّسة والمجمَّع العام الذي يضمُّ كهنة الأرضين [٢]. إنه حين كان يتكلم بحرارة، في المجمَّع العام، حول اللسان المصري وضرورة أن تكون الصلوات كلها بلسان جبتو مصرايم. لم يكن هدفه وحدة اللسان ووحدة المصريين، بل كان هدفه السيطرة من خلال سيادة لغة واحدة"... وردّ "دان": "بصرف النظر عن أغراض "دِبنْحِن" المشبوهة، فإن اللسان الواحد أمر عظيم يوحِّد السلالة المصرية في الأرضين".

قُطِع الحديث بين "دان" و"ساكبو" بإعلان قدوم "تانا" الأتريبية وابنها الصغير "أوزير". وهمّ دان وساكبو فاستقبلا "تانا" وابنها "أوزير" الذي هو من نسل الآلهة... وسَعِد دان لنجاة "أوزير" الصغير؛ لأن وجوده في كنفه، سيدعم مركزه في مواجهة "دِبنْحِن" الذي يطمع في السيادة على الأرضين، من خلال السيادة على عين شمس ومنف...

وبحسب عوائد ذلك الزمان، أُعِيدَ تثبيت وتعميد بيت دان... بُنِي بيت جديد وأُلْحِق على بيت دان، بيت تقيم فيه تانا أم أوزير، وأسرع "ساكبو" بإجراءات التعميد والتثبيت الجديد لبيت دان، وذلك في معبد منف؛ فصارت تانا الأتريبية فارعة الطول زوجة ثانية لدان، وصار "أوزير" ابنًا ثانيًا لدان بالعماد، وأخًا لست وإيزي ونفتي... ولم يكن هناك فرق في ذلك الزمان بين أبناء الصلب وأبناء العماد.. وهكذا صار "دان" أبًا للطفلتين إيزي ونفتي والطفل ست والطفل "أوزير" الذي هو من نسل الآلهة.

بعد انتهاء مراسم دفن "موبي" التقى "دِبْحِن" سيد عين شمس الحالي وكاهنها الأكبر بدان سيد منف الذي كان يرافقه "ساكبو" كاهن منف الأكبر.. قال "دِبْحِن" لدان: "سمعتم في منف عن حكم محكمة تحوت.. لقد نفّذنا نحن في عين شمس الجزء الأهم من الحكم وهو إعدام كونو وإطعام التماسيح المقدّسة بجثته.. وعليكم -أنتم- في منف أن تسلمونا تانا الأتريبية والصغير "أوزير" للخدمة في المعبد المقدّس".

ردّ دان: "... أخبرتني تانا الأتريبية -زوجة كونو ابن الآلهة- بأن الذي اعتاد التلصص على المستحمات هو "موبي" لا "كونو".

ردّ "دِبْحِن": "ليس من الإنصاف أن نترك كلام المجمّع المقدّس، كلام التسعة الذين صاروا ثمانية، ونأخذ بكلام امرأة أتريبية.. هذا خروج على الأعراف والشرع": فتدخل المبجّل ساكبو كاهن منف قائلاً: "من العرف والشرع - أيضًا -أيها المبجّل "دِبْحِن" أنه طالما وصل الاتهام إلى أحد التسعة في مجمعكم، فالمفروض شرعًا أن يجتمع مجمّع منف مع مجمّع عين شمس لتقرير الحكم.. إننا في منف نعتبركم قد بعُدتم عن الماعت [٢] أو العدالة، ونعتبر حكمكم كأن لم يكن، ونعتبركم أنتم الثمانية مسئولين عن قتل كونو ابن الآلهة".

احمرّ وجه "دِبْحِن" غيظًا وقال: "إنكم في منف لا تريدون الإقرار بجناية كونو، وتريدون الاحتفاظ بالصغير أوزير ابنه لتدعيم مركز "دان"، والإعلان عن بنوة "أوزير" بالعماد والتثبيت لأبيه بالعماد "دان".

صاح دان: "نعم.. صار أوزير ابنًا لي في العماد، وصار أخًا لابني ست وابنتيّ إيزي ونفتي، وصارت تانا الأتريبية زوجة ثانية لي".

ونزل "دان" و"ساكبو" ومَنْ معهما من الجنود الصيادين إلى مرفأ عين شمس، حيث كانت في انتظارهم ثلاث طوّافات مصنوعة من خشب السنط، وعليها البحارة والجدّفون ومستخدمو المذراة.. ركب الجميع في صمت... وصعدوا في اتجاه منف...

انحسر الفيضان في العام العشرين من تأسيس عين شمس، وتوقّف الإله حابي عن العمل بشادوفه لنقل المياه الحمراء من أنهار جنة الآلهة إلى النيل...

وظهر الطمي وأصدر "دان" أوامره بطلاء جميع البيوت والمعبد ومحكمة تحوت بالطمي..

تحدّث مرن "قائد المائة". وميدوم قائد الأرمات والطوّافات إلى "دان" و"ساكبو" محذّرين من انتشار ظاهرة "النار الخاصة" والحظيرة الخاصة لكل أسرة في منف... وردّ دان على مرن وميدوم قائلاً: سبق أن ناقشنا هذا الأمر في الاحتفال بيوم النقطة، نقطة الخميرة، ليلة الحادي عشر من بؤونة [٤] واتفق معي المبجّل "ساكبو" على ترك الحرية لكل أسرة في منف في أن يكون لها نارها الخاصة وحظيرتها الخاصة وطعامها الخاص... وحدّدنا أعداد الصيادين المقاتلين من كل أسرة، الذين يجمعون لحظة الاستغاثة عند مصطبة المعبد [٥]... كما أن "أوزير" ابن الآلهة سجل بإشارات الإله "بتاح" [٦] أسماء الشباب و الفتيان في كل أسرة على قطع الأستراكا [٧] تحسبًا لأي طارئ... انتبهنا يا "مرن" من هذا الأمر ليلة النقطة.. وترتّب على ترك الحرية للناس أن ازدهرت منف، وصارت مرهوبة الجانب...".

صنع أوزير -كثير الحيل- بوحي من "بتاح" سفينة من خشب السنط، وترك الحواف الخارجية للمجدفين بالجاديف، والدافعين بالمذراة وسارية الشراع ونوتي القيادة... وجعل في وسط السفينة أقفاصًا لحيوانات وطيور الصيد، ومخازن لِمَا يُلْتَقَط من ثمار... وأبدع أوزير في استخدام الشراع، وتوجيهه بالحبال، حتى أنه لم يكن في حاجة إلى معاونين غير أمه تانا... وبرع أوزير كذلك في صنع الشباك والخيّات والشصوص... ولهذا كان أوزير وأمه يعودان بالخير الكثير من رحلاتهم في مستنقعات النيل... وامتلأت حظيرة أوزير بكافة فصائل الحيوان، كما امتلأت أقفاص بيته بالطيور...

كان دان سعيدًا بابنه أوزير، خصوصًا وأن أوزير كان دائمًا يحاول الاستعانة بأخيه ست وأختيه إيزي ونفتي؛ بهدف تدريبهم على كافة الأعمال...

قال "دان" لصديقه "ساكبو" كاهن منف: "أشعر بأن الآلهة تبارك "أوزير"؛ فقد خرجت معه بالأمس في رحلة صيد بدلاً من أمه "تانا"، فكان صيده أكثر مني، لقد ملأ أقفاص السفينة بالحيوانات والطيور، وجمع الكثير من الثمار والفواكه... إنه يلقي بالكثير من اللحم لنسل الإله "سوبك" من التماسيح، حتى تعوّدت عليه التماسيح وصارت تنتظر سفينته، كذلك فإنه يلقي بالإغصان

المورقة لأفراس النهر حتى ألفته فأصبحت تهوى رفقة سفينته... إنه كريم ويفوق أقرانه. حتى أن الكبار يحترمونه ويجتمعون على مائدته، ويأخذون رأيه في الأمور".

قال "ساكبو" ردًا على "دان": "لا جدال في أن الآلهة تباركه. إن أوزير ابنك بالعماد. هو من نسل "جبتو مصرايم". والمعروف أن الآلهة لمَّا هجرت الأرض إلى السماء، جعلته نائبًا عنها؛ إذ إنه ابن أتوم.. وإن سليله أوزير قد ورث الكثير عن الآلهة التي ترشد قلبه ويديه ولسانه".

الإصحاح الثالث

صارت السيادة في "حكا عز" أي عين شمس للمبجّل "دِبـْحِـن". صحيح أن "دان" هو قائد المائة. كما أن "لابانو" صار زعيمًا بالاسم لمنف بحكم صلته القديمة لجبتو. إلا أن السلطة الفعلية كلها بيد "دِبـْحِـن" رئيس التاسوع المقدس لإيون الشمالية التي هي عين شمس أيضًا.

زادت مخاوف "دِبـْحِـن" من قوة منف بزعامة دان. وخصوصًا بعد أن صار أوزير ابن كونو. ابنًا بالعماد لدان... كذلك زادت كراهية أهل عين شمس لـ "دِبـْحِـن". حتى أن أعدادًا من أسر عين شمس. كوّنوا قرية جديدة شمال عين شمس وجنوب أتريب. في منطقة المستنقعات التي تقع عند التقاء نهر أرض البوصة بفروع أرض النّحلة [٩]؛ وذلك بدعوى تجفيف المستنقعات لزراعة القمح و البقول [٧].

ذات مرة قال "لابانو" لـ "دِبـْحِـن": "... علينا أن نترك للناس الحرية في أن تكون لكل أسرة نارها الخاصة وحظيرتها الخاصة وطعامها الخاص. مثلما فعلوا في منف..."

ردّ "دِبـْحِـن": "إن عين شمس هي مدينة الآلهة. وهي سيدة أرض الآلهة. أرض مصر. أرض جبتانا؛ لهذا سوف تظل عين شمس أسرة واحدة. ذات مائدة واحدة. وحظائر واحدة. وجيش واحد... وإن هذا التجمُّع هو الذي يؤدي إلى قوة عين شمس.

سكت "لابانو" الذي يعلم أن منف بزعامة دان المتسامح. أقوى بكثير من عين شمس التي تعاني من تسلُّط "دِبـْحِـن" ومعاونيه.

شعر "كوفو" ابن "لابانو" بتدهور الحال في عين شمس. خصوصًا بعد أن تأكّد له أن الأتريبيين وأقاربهم الشماليين من أهل إقليم النحلة في "سايس" صاروا على علاقة وثيقة بمنف، وأن المراكب. صاعدة وهابطة في النيل وفروعه بين منف و سايس. تؤكّد على العلاقات الوثيقة والتحالف بين منف والشماليين... كما أن "سايكا" زعيم "سايس" يكثر من تبادل الزيارات مع "دان"... كذلك تأكّد

لكوفو أن "النحاس" قد حلَّ محل الحجر في صناعة معظم أسلحة المنفيين وأدواتهم، كما هو الحال في أرض النحلة في الشمال؛ لهذا استأذن "كوفو" أباه "لابانو" وأخذ زوجته المنفية "يارا" وركب طوّافته، مستغلاً مياه أواخر الفيضان، ورحل إلى سايس؛ حيث رحبوا به باعتباره من الجيل المقدَّس، الذي سمع الحكمة من لسان "جبتو" بن "جبتو مصرايم" ابن الآلهة.

سألت "هاجال" زعيمة أتريب الفتاة "ساسا" المتزوجة في عين شمس: "كيف الحال في عين شمس؟ وما رأيك في زعامة المبجل دِبْحِن ؟".

ردَّت ساسا: "الأوضاع سيئة في عين شمس... المبجَّل "دِبْحِن" بعيد عن "الماعت" والعدل في توزيع الحبوب والفرائس والثمار، وبعيد عن العدل أيضًا في التسخير لما تطلبه الآلهة من شقِّ الترع والقنوات والمصارف وتجفيف المستنقعات.. صار الشباب يسرقون الحبوب من شونة الآلهة، ويستولون على البقر والغنم المنذور للتضحية كقرابين للتاسوع.

سألت "هاجال" "نارمر" زوج "ساسا" الذي نزح من عين شمس إلى "أتريب" عن الأوضاع في عين شمس، فقال: "زاد الاحتجاج والكلام في عين شمس بالرغم من تسلُّط "دِبْحِن" وبقية المبجَّلين... كانوا يحاكمون فتى سرق كبشًا من حظيرة النذور؛ فإذا بالشاب يجيب على الكاهن القاضي: إن شريعة تحوت لا تسمح بالسرقة من حظيرة النذور، إلا أنني قد رأيت المبجَّل "دِبْحِن" وجنوده يأخذون الكباش من حظيرة النذور لأنفسهم، لا للذبح والحرق على الأنصاب... بل رأيت "دِبْحِن" يعطي كبشًا لواحدة من الفتيات التي تعرف كل الرجال" [11].

سأل أحد كهنة عين شمس فتى من الرعاة: "لماذا لم تقدِّم للآلهة باكورة شياهك كما تقضي شريعة رع وتحوت؟" فإذا بذلك الفتى المهرطق [12] يقول للكاهن: "لو عرفت أين يوجد الله، لقدَّمت إليه باكورة شياهي، حتى لا تضل شياهي طريقها إلى السماء فيأخذها الكهنة".

علا صوت شاب آخر يقول لأحد الكهنة: "لم نرَ نار الآلهة تهبط من السماء لتلتهم القرابين.. وكل ما رأيناه أن نار الكهنة هي التي تأكل القرابين، لا نار التاسوع المقدَّس".

وشاركت امرأة في هذا الاحتجاج والتمرُّد قائلة: "تعوَّد كهنتنا المبجَّلون أن يرفعوا أثواب الصبية، ليروا إن كانوا مختونين أم لا. ليس حبًا في الطهارة وتنفيذًا لشرع الآلهة، بل طمعًا في إوزات الفقير الثلاث التي تُدفَع للختان، أو طمعًا في كبش الغنيّ".

باركت الآلهة "سايكا" زعيم سايس [١٣] باعتباره بطل "أرض النحلة" تلك الأرض التي "تفيض لبنًا وعسلاً" وهي أرض الشمال؛ وذلك بعد انتشار أخبار سحق "سايكا" للمتسللين البدو، الذين يفدون من الصحراء الشرقية وسيناي للإغارة على أطراف أرض النحلة، لسلب ما تصل إليه أيديهم من نساء وأطفال وماشية....

انتهى فيضان هذا العام، الثالث بعد رحيل "تانا" وابنها أوزير لمنف، والثالث والعشرون منذ تأسيس عين شمس... وجفَّ الطمي في المستنقعات والأراضي المنخفضة حول منف، وبدأ المنفيون في استخدام فئوسهم لحفر الأرض استعدادًا للبذر... فوجىء المزارعون بابتكار جديد للفتى أوزير؛ فقد طور فأسًا، وجعل له سلاحًا مستطيلاً من النحاس، وركَّب نيرًا [١٤] للفأس بحيث يجُرّه ثور أو ثوران، وتبيَّن أن "المحراث" الجديد، يستطيع باستخدام الثيران حرائة "الأرورا" أو "الإستات" [١٥] في ربع نهار... حين وفَّقت الآلهة "أوزير" فعرَّفته المحراث، وظهر أثر استخدامه... زادت حماسة أهل منف للعمل؛ إذ باتوا يشعرون بأن الآلهة معهم وبأن الآلهة وهبتهم أوزير، الذي هو من نسل الآلهة، لمباركة سعيهم وكدّهم... فالزُّرّاع الآن أكثر حماسًا في عملهم، والرعاة يبذلون أقصى الجهد في تسمين قطعانهم، والصيادون في النيل والأحراش والمستنقعات يثابرون للحصول على صيد وفير، والحظائر الخاصة، وحظائر المعبد والنذور تحظى بالرعاية من الجميع... وتضخَّمت "شوَن" القمح والحبوب في منف، وصارت منف قادرة على شراء "النحاس" من الشرق والشمال؛ ومن ثَمَّ طوَّرت منف أدواتها.

(أثبت... -أنا مانيتون السمنودي- أن بعض المنسوخات البردية، والمتون القديمة تروي أن الآلهة قد وفَّقت الفتى أوزير -أثناء صهره وسبكه لسكين نحاسية- إلى صنع سكين جديدة من النحاس والقصدير، أكثر صلابة وقوة من السكين النحاسية؛ ومن ثَمَّ تحوَّلت آلات وأدوات منف إلى المعدن الجديد) [١٦].

فكّر "دان" في عمل إحصاء عام لأهل منف.. وقرّر أن يكون هذا الإحصاء كلَّ عامين. وشاركه الرأي الكهنة المبجَّلون وعلى رأسهم "ساكبو" الذي أوصى بإحصاء عام لأهل منف [١٧] كلّ عامين. كما أوصى بحصر الأرض الزراعية وأسماء المالكين لها، وحصر الأراضي الجديدة التي تُضَمُّ بعد تجفيفها واقتطاعها من المستنقعات، أو تلك التي تُشَقُّ فيها الترع فتصل إليها المياه فتحييها.

قالت "تونا" -الزوجة الأولى لدان- لابنها ست: "عليك أن تبذل قصارى جهدك: فالآلهة يباركون مَنْ يعرق ويتعب، عليك أن تشارك في حفر الترع والقنوات، وأن تسهم بنتاج قلبك وعمل يدك وقول لسانك، حتى ترضى عنك الآلهة فيباركوك، وحتى تصبح مثل أخيك بالعماد أوزير ابن "تانا" الأتريبية... سمعنا أن الآلهة وفّقت "أوزير" إلى صنع ألواح بردية من سيقان البردي، قدّمها للمبجَّلين في المعبد ليثبتوا عليها إحصاء الناس والأراضي.. أريدك يا بني أن يكون قلبك مفكرًا [١٨] كقلب أوزير، وأن تكون يدك ماهرة مثله، ولسانك كلسانه...".

ولم يكن ست مرتاحًا لكلام أمه "تونا"، كما أنه لم يكن مرتاحًا للعلاقة الطيبة بين أمه وأم أخيه في العماد أوزير، كذلك كان يأسف؛ لأن أباه كان أقرب إلى أوزير منه، كذلك أختاه إيزي ونفتي، كانتا أقرب إلى أوزير المحبوب من الجميع.

الإصحاح الرابع

كما توثّقت العلاقة بين منف وأتريب وكافة مقاطعات أرض الشمال، أي أرض النحلة "التي تفيض لبنًا وعسلاً"، توثّقت علاقتها -أيضًا- بأرض الجنوب، أي أرض إقليم البوصة (ما بين جنوب منف وأسيوط) وإقليم الثعبان (ما بين أسيوط وقفطو) وإقليم النسر (ما بين قفطو والفونتين)...

في العام الرابع من رحيل أوزير إلى منف، الرابع والعشرون من تأسيس عين شمس، جهّز المنفيون بعثة صداقة وسلام تتّجه إلى الجنوب، بقيادة "دان" ومعه المبجّل "ساكبو" كبير كهنة منف، و"مِرِن" قائد المائة زوج هاجار الميدومية، وعدد من الجنود الصيادين حُمّلت السفن والطوّافات بالكثير من الهدايا... نزلوا بميدوم أولاً، حيث التقوا بالزعيم "باي"، وقُدّمت الهدايا لباي والميدوميين، وكان أهمها بعض السكاكين والسيوف والأدوات النحاسية وكميات من الملح والنطرون، ومائة ثوب من الكتّان.

في اجتماع المعبد بين الميدوميين والمنفيين، وبحضور كاهن ميدوم واللاهون المبجّل "زِناو"، وقائد المائة "هَريدو"، اتفق الجميع على توحيد اللسان في المعبد والصلاة في كل من منف وميدوم واللاهون... خصوصًا وأنه قد ثبتت للجميع حقيقة أن ألسنتهم ذات صلة وثيقة باللسان المقدّس لجبتو بن "جبتو مصرايم" الذي هو من نسل الآلهة.

تحدّث "دان" والمبجّل "ساكبو" عن الغزاة من الشرق، وأن أهل سايس بزعامة "سايكا"، يقومون بجهد كبير للتصدي للشاسو والعمو والبدو الذين يحاولون التسرّب إلى خيرات أرض النحلة، ومعهم شعارات آلهة أخرى... وأعلن "باي" أنه سوف يقدّم عددًا من الجنود لمؤازرة "سايكا" وأهل سايس، ودفاعًا عن التاسوع الجبتي المقدس.

غادر المنفيون ميدوم، ومعهم سفينة عليها ممثلون لميدوم واللاهون، وصل الجميع إلى الأشمونين، ثم تركوها إلى ميروقوص، ثم إلى "شاس حُتِب"، ثم إلى بطلمية، ثم إلى طينة... ولمّا وصلوا إلى طيبة، كانوا على هيئة أسطول من السفن به عدد كبير من الزعماء والكهنة وقوّاد المائة والجنود... اجتمعوا في

الساحة الخارجية للمعبد المقدس في طيبة. وكان الجميع سعداء؛ فقد اكتشفوا أنهم أقارب باللسان، مثلما أنهم أقارب بالقلب والتاسوع المقدس. فإن لسان "جبتو مصرايم" ابن الآلهة، لا يزال ساريًا، حتى في الجنوب. إذ ليس من الصعب أن يحادث رجل من منف رجلاً من طينة أو طيبة؛ بالرغم من اختلاف اللهجات.

جُهِّزت سفن من طيبة، وحُمِّلت بالخبز والحبوب والجعة؛ لتكون مع المسافرين جنوبًا... واستمرت البعثة في صعودها في النيل، مارة بأرمنتو ثم أدفو ثم كوم امبو ثم الفونتين فأسوان... وحين وصلت قرب الشلال الأول بدأ الفيضان وزادت المياه... فنزل الجميع عند الشلال الأول، وتركوا جنودًا عند السفن، وحدث اشتباك مع قبائل النوبة، الذين يختلفون بالقلب واللسان عن الجبتيين... واستطاع جنود بعثة "القلب واللسان الواحد" أن يغيروا على قبائل "النَّحْسو" في أرض النوبة، أرض الذهب، وأن يجمعوا الكثير من ذهبهم وأبقارهم ومواشيهم وعددٍ من إناثهم وذكورهم...

ثم انحدرت البعثة بأحمالها وأثقالها من الجنوب إلى الشمال مستغلَّةً مياه الفيضان السريعة، التي جعلت البعثة البحرية تسبق بعثة الطريق البري التي تسير بالأبقار والمواشي والحمير، ولهذا كانت البعثة البحرية تتريَّث عند كل مدينة، حتى تلحق بها البعثة البرِّية، ثم يتركون هدايا للمدينة التي وقفوا عندها، حتى وصلوا أخيرًا إلى منف، في يوم النقطة، نقطة الخميرة؛ أي اليوم الحادي عشر من بؤونة[١٩].

طبول ودفوف وأعلام ملونة، ونيران موقدة، وأعداد كبيرة من المنفيين خرجت لاستقبال بعثة الإله "بتاح" التي يقودها "دان" ومعه المبجَّل "ساكبو" و"مِرِن" والجنود والصيادون، وكان على رأس المستقبلين "أوزير" ابن دان وابن الآلهة... في نفس الوقت وصلت الحملة البرية بما معها من المغانم، ولفت نظر المنفيين الوجوه الصغيرة السمراء للأسرى النوبيين ذكورًا وإناثًا.

أصرَّ "ميدوم" على أن يكون "أوزير" في طليعة المستقبلين للبعثة، وفي طليعة المستقبلين لدان والد أوزير بالعماد؛ وذلك حتى يظهر "أوزير" في صورة النائب عن والده "دان"... وتحدَّث "بيبي" زوج "كونا" عمة أوزير، أمام الجميع، عن إنجازات أوزير وتوفيق الآلهة له، ورعايته لمنف في غيبة زعيمها، وأنه نظَّم عملية طلاء البيوت والمعبد بطمي الفيضان، كما نظَّم الصيد وجمع الثمار، وشيَّد

مع عمَّاله المدرّبين عددًا إضافيًا من السفن الكبيرة باستخدام خشب السنط والكافور، كذلك طوَّر مسبك النحاس وأضاف القصدير إلى النحاس؛ فصنع أسلحة وأدوات أكثر صلابة... وأمَّن الحضور من أهل منف على حسن رعاية أوزير للجميع، وعلى أن "بتاح" وبقية التاسوع يباركون أوزير ويلهمون قلبه ولسانه ويده.

الإصحاح الخامس

تفرّس "دان" في وجوه المستقبلين عند مرفأ عين شمس. عسى أن يرى ابنه ست مع الواقفين. ولمّا لم يجده مع المستقبلين شعر بالاستياء والضيق. وزاد ضيقه واستياؤه من ست لمّا علم أنه تحرّش بأخيه أوزير عدّة مرات. كما زاد تعلّقه وحبه لأوزير؛ لأنه كتم مضايقات ست ولم يصرّح بها... وتعجّب دان من علاقة جديدة مشبوهة بين ابنه ست والمبجّل "دِبُحِن" كاهن عين شمس. خصوصًا وأن "جبجا" شرير عين شمس، قيل إنه صار من أصدقاء ست.. و"جبجا" مشهور بتربُّصه للنساء اللاتي يخرجن للصيد والتقاط الثمار فُرَادى واعتدائه عليهن. بل لا يزال دان يذكر واقعة اعتداء "جبجا" على واحدة من نساء منف ضلّت الطريق إلى الشمال قرب عين شمس. حيث اضطر دان لخداع جبجا. فأرسل واحدة أخرى إلى نفس المكان في اليوم التالي. ولمّا همّ "جبجا" بالاعتداء عليها. خرج إليه كمين المنفيين وأوسعوه ضربًا وسَمَلوا إحدى عينيه [٢٠].

في اليوم الثاني من عودة البعثة. دقت طبول المعبد قبل الغروب. واجتمع أهل منف. بحضور "دان" و"ساكبو" و"مِرن" و"أوزير" و"ست" والجميع... عرض دان الأسرى من إناث النوبة على الجميع... رفض الفتى أوزير أن يأخذ لنفسه إحدى الإناث؛ إذ كان متعلقًا بأخته في العماد إيزي بنت دان. وكان قد أضمر في نفسه الزواج منها... وفضّل أوزير أن يضمّ إليه مجموعة كبيرة من فتيان وصبية النوبة؛ بهدف أن يكونوا جنوده. كما أنه استهدف أن يدرِّبهم على صناعاته واكتشافاته.

أمَّا ست. فإنه اختار أجمل بنات النوبة الأسرى لتكون جارية له [٢١].

في العام الخامس من انتقال أوزير لمنف. الخامس والعشرين من تأسيس عين شمس. أُحْتُفِل بيوم النقطة في موعده المقرَّر الحادي عشر من بؤونة (وأَثْبِت – أنا مانيتون– متنًا قديمًا يقول: ... وأُحْتُفِل في اليوم التاسع عشر ببلوغ "حابي" قمة جهده بشادوفه المقدَّس الذي ينقل به المياه من جنة الآلهة في السماء إلى جنة المصريين على الأرض [٢٢] فيفيض النيل؛ وأُعِدّت العروس المنحوتة من خشب الجميز المقدِّس. وزُيِّنَت بالنحاس والذهب والفضة. وامتلأ نيل منف بالأرماث والطوَّافات... وتقدّمت طوّافة الكهنة المبجّلين تحمل العروس ومعها إيزي البِكر؛ حيث إن الطقوس تقضي بأن التي تَدْفَع العروس للنيل. يجب أن تكون بكرًا لم

تعرف الرجال بعد... وألقت إيزي بالعروس إلى النيل... وضجّت الطبول والدفوف وسط هتاف الجميع...).

في اليوم العشرين من أبيب تمّ الزواج المقدس بين أوزير وأخته في العماد إيزي. وانتقلت القداسة من أوزير ابن الآلهة إلى إيزي أخت أوزير وزوجته (... وفي ليلة ذلك الزواج المقدس. ملأت الآلهة سماء الأرضين بالنجوم. كذلك رأى الناس الآلهة المقدّسين رع وبتاح وأتوم ونوت وتحوت. وبقية التاسوع. وهم يهبطون من السماء بأجنحتهم المصوغة من الذهب والزمرد والياقوت. لكي يباركوا زواج أوزير ابن الآلهة من إيزي...).

جُهِّزَت بعثة صداقة منفية للاتجاه للأقاليم الشمالية. أقاليم أرض النحلة... تحرّكت البعثة مستغلّة مياه أواخر الفيضان في أوائل مسرى. بقيادة "دان" ومعه مِرِن وميدوم... كذلك كان معه أوزير وعروسه إيزي... وكان أوزير قد صمّم سفينة ضخمة من خشب السنط ذات دورين. بناها هو ومعاونوه من الجنود الجبتيين والنوبيين. وجعل لنفسه ولإيزي مقصورة خاصة في مقدّمة السفينة. وجعل على مؤخّرة السفينة شعار النحلة. وعلى مقدّمتها شارات رع وأتوم وبتاح وأبيس.

لم تقف البعثة عند عين شمس، وتجاوزتها إلى "أتريب"... وردّت الزعيمة هاجال على هدايا منف: فقدمت للبعثة مائة جرة من جرار الجعة. وعدة آلاف من خبز "البتّاو" المجفف وعددٍ من الحملان والخنازير.. ثم زارت البعثة "بوبا سطا". وبعدها زارت "سايس" ثم "تانيس" ومنها إلى "منديس" حيث احتفل أهلها ببعثة منف. وأجريت طقوس احتفالية خاصة في معبد "منديس" ابتهاجًا بأن وطئت أقدام أوزير الذي هو من نسل الآلهة. أرض منديس... وأقام كهنة منديس في المساء حفل إكليل خاص بزواج أوزير من إيزي؛ وذلك ليحظى معبدهم بشرف إجراء هذا الإكليل المقدّس. بالرغم من علمهم أن معبد منف قد سبق وأجرى طقوس الإكليل لزواج إيزي من أوزير ابن الآلهة... واشترك أهل منديس في طقوس هذا الإكليل المقدّس. وامتلأت شواطئ منديس بالناس والأعلام والطبول والموسيقا [٢٣]

في هذا الاحتفال التكريمي لأوزير وإيزي وبعثة منف. التقى أوزير بعدد من كبار تجارة ببلوس وفينيقيا من عبدة عشتاروت وأدونيس. وعلم أوزير أن هؤلاء

البحارة تعوَّدوا التجارة مع منديس وتانيس ومدن مصرية أخرى. يقايضون بزيت الزيتون وأخشاب الأرز والسيوف والأدوات النحاسية، الكتّان المصري والقمح والشعير وبضائع أخرى... وذهب أوزير ودان وبعض الجنود والصيادين المنفيين إلى مرفأ منديس، ورأوا سفن الفينيقيين الضخمة... وأعجب الجميع بالسفن الفينيقية، وأصرَّ أوزير وأتباعه من البحارة المصريين والنوبيين على تفقُّد إحدى السفن، بهدف التعرُّف على تصميمها وكيفية بنائها... وتابع البحارة المصريون والفينيقيون أوزير وهو يثبت على أوراق البردي بالإشارات التي تعلَّمها من الإله بتاح والإله تحوت تخطيط السفينة وأبعادها وعدد أشرعتها، وعدد مقاعد المجدِّفين، وتفاصيل أخرى كثيرة.

أعجب كبير بحارة ببلوس بورق البردي وطريقة الكتابة عليه بالريشة المشذَّبة والأحبار، وعرض على أوزير طريقتهم في تدوين البيانات والأعداد على ألواح خشبية باستخدام مسمار من النحاس، وظهر للجميع أن أوراق البردي والأحبار أسرع وأسهل في الاستخدام، حيث تتيح هذه الأوراق المقدَّسة، التي وفَّقت الآلهة أوزير إلى اكتشافها، إثبات بيانات كثيرة في حيِّز محدود من الورق...

عرض الببلوسيون على أوزير مقايضة سفينة ببلوسية كبيرة مصنوعة من خشب الأرز بعدد من أدراج البردي وعدّة أوعية من الأحبار الحمراء والسوداء وكمية من عروق الذهب والإلكتروم [٢٤] وقَبِل أوزير عَرض الببلوسيين.. وعَرَض الببلوسيون على أوزير ابن الآلهة أن يزور ببلوس، هو وزوجته المقدَّسة إيزي؛ ليكونا أول اثنين من أرض الآلهة تطأ أقدامهما أرض ببلوس وفينيقيا.

حينما عرض أوزير على الزعيم "دان" رغبته في المقايضة على السفينة الببلوسية، وافق "دان" على الفور... وحين أعلن أوزير قراره بزيارة ببلوس وساحل فينيقيا، تردَّد "دان" وأبدى مخاوفه من الرحلة إلى تلك الأرض المجهولة التي تخضع لآلهة أخرى غير الآلهة المصرية... لكن دان، في النهاية، وأمام إصرار أوزير، ولعلمه بذكاء أوزير وأن الآلهة معه، وافق على الرحلة.

ترك أوزير سفينته المصنوعة من خشب السنط والكافور والبطم للزعيم "دان" –والذي هو في الوقت نفسه والده بالعماد– ووالد زوجته المقدَّسة إيزي... ونقل إلى السفينة الببلوسية عدَّة آلاف من خبز "البِتَّاو" المختمر بخميرة نقطة بتاح، وعدة مئات من جرار الجعة المختمرة بخميرة بتاح، وكمية من السمك المملح

موضوعة في أكياس من جلد البقر، وعدة عنزات وتيوس وخنازير... وكان مع أوزير عروسه المقدّسة إيزي في المقصورة الخاصة، وعدد من تجارة منف، وبعض تجارة النوبة الذين ارتبطوا بأوزير ابن الآلهة الذي يحسن معاملتهم، كذلك رافقهم اثنان من أهل منديس ينطقون باللسانين المصري والفينيقي، واثنان من أهل ببلوس كرائدين ومرشدين.

عبرت سفينة أوزير، وخلفها ثلاثة السفن الببلوسية منطقة بحيرة البجع [٢٥]، وأثناء العبور، جمعت السفن أعدادًا كبيرة من الطيور، وُضِعت في أقفاص، كما جمعت كمية كبيرة من بيض الطيور... وكان أوزير وإيزي يبتسمان حينما يلاحظان على وجوه الفينيقيين الدهشة، حينما يرون أفراس النهر بحجمها الكبير، والتماسيح وهي مستلقية تستدفئ على رمال الجزر.

قالت إيزي لأوزير: "إن الببلوسيين تعجَّبوا وأنا أجمع البيض من أقفاص الإوز والبط... إنهم في بلادهم لا يعرفون تربية الطيور من أجل الحصول على بيضها... إن آلهتنا أفضل من آلهتهم... لأن آلهتنا قد علّمتنا الكثير".

هوامش سِفْر "المتحدون بالقلب واللسان"

١- "الكا" هي الأخت أو القرين أو رمز الصورة الحية عند المصريين، ويُفْتَرض أنها تحوم حول جسد الميت، أمّا "البا" فهي الروح المفارقة التي تعود إلى الكا والجسد في يوم الحساب.

٢- كهنة الأرضين: أرض الشمال والجنوب.. وحدة الآلهة ووحدة المجامع المقدَّسة من عوامل الوحدة السياسية والثقافية لمصر القديمة.

٣- "الماعت" كلمة مصرية تعني الحق والعدل والخير.

٤- يوم النقطة -١١ من شهر بؤونة... الإله بتاح محبٌّ للجعة، ولا جعة إلا بالخميرة، كما أنه لا خبز إلا بالخميرة؛ لهذا وضع الإله بتاح نقطة الخميرة في شادوف حابي لتصل إلى كل مياه النيل ليلة الحادي عشر من بؤونة، ولا يزال أهل الريف في مصر إلى اليوم يجدّدون خميرتهم كل عام يوم ١١ بؤونة دون استخدام خميرة قديمة؛ اعتمادًا على نقطة بتاح.

٥- "الاجتماع لحظة الاستغاثة عند المعبد": الوثائق المصرية تثبت ألوانًا قديمة للخدمة العامة والتجنيد الإجباري للحرب أو مواجهة الفيضان... وهي أمور ترتبط بقدم الدولة والنظام الإداري المصري.

٦- إشارات بتاح: يُقْصَد منها "الكتابة"، ولم يصل المصري القديم لشيء إلا اعتمادًا على الآلهة.

٧- "الأستراكا" قطع من الخزف كانوا يسجِّلون عليها بالإشارات، قبل أن يعرفوا أوراق البردي والأحبار.

٨- حكا عِزْ: هي بالمصرية ايون الشمالية أي عين شمس أو هليوبوليس باليونانية.

٩- أرض النحلة: أرض الشمال، ثم أرض البوصة فأرض الثعبان، وأرض النسر، هذا هو التقسيم الإداري لمصر في عصر ما قبل التاريخ من الشمال إلى الجنوب (سليم حسن ــ مصر القديمة).

١٠- تجفيف المستنقعات للزراعة؛ ذلك لأن المستنقعات أراضٍ منخفضة تصلها المياه بسهولة.

١١- "فتاة تعرف رجلها فقط" أي فتاة شريفة، "فتاة تعرف كل الرجال" يقصدون بائعــات الهوى، وهو أمر مستهجن منذ القديم.

١٢- المهرطق: الذي يقول كلامًا لا يتفق مع ظاهر الدين والاعتقاد العام.

١٣- سايس: عاصمة مقاطعات الدلتا، جهة الشرق (صا الحجر الحالية؟!) أرض النحلــة أرض الدلتا الخصبة المليئة بالماني (أي عسل النحل) والكاني أي الزبد أو اللـــبن، ونعتقد أن وصف الكتاب المقدّس لفلسطين بأنها أرض "تفيض لبنًا وعسلاً" مــأخوذ عن الأدبيــات المصريــة القديمة.

١٤- نير: ما يــوضَع على رقبة الثور أو الثورين لجرّ المحــراث، وهــو "نــاف" فــي المصرية القديمة، ولا يزال "الناف" مستخدمًا بلفظه المصري إلى اليوم.

١٥- أرورا = إستات: وحدة مساحة مصرية قديمة (٣/٢ من الفدان) ويعتقد أستاذنا لويس عوض أن "الاستاد" كوحدة مساحة إغريقية منقول عن المصرية.

١٦- إشارة للقصدير والتحوُّل من النحاس (وهو طريّ نوعًا ما) إلى البرونز وهو أكثــر قوة من النحاس.

١٧- "إحصاء عام" (راجع سليم حسن ــ مصر القديمة) يبدو أن حاجتهم للأعداد من أجل الخدمة العامة (الجيش –تجفيف المستنقعات ــ التصدي للفيضانات العالية) فرضت عليهم هذا السبق القديم للإحصاء العام.

١٨- "قلبك مفكرًا" القلب هو أداة التفكير في لغتهم.

١٩- يوم النقطة: ١١ من بؤونة.

٢٠- "سملوا إحدى عينيه" أمر غير مقبول منا نحن أبناء اليوم.. لكن العالم القــديم كــان يتعامل بقطع الألسن والآذان والأنوف والأيدي وسمل العيون؛ فالعقوبــات البدنيــة وبتر الأعضاء، كانت أمورًا عادية في القديم.

٢١- "جارية له" الانتقال من عصر المشاع والالتقاط، إلى عصر الإقطاع والتسخير فــي الزراعة ارتبط به نظام الرق والاستحواذ على جهد الآخرين، والغريب أن جميــع الأديان اعترفت بالرق كنظام اقتصادي.

٢٢- يقصد "وفاء النيل" حين يصل "حابي" إلى قمة نزحه بالشادوف السماوي.

٢٣- الإكليل وإعلان الزواج المقدَّس في المعبد، مسألة مصرية قديمة.

٢٤- الإلكتروم سبيكة من الذهب والفضة، كانت عروقها توجد في صخور سيناء والصحراء الشرقية المصرية.

٢٥- بحيرة البجع... وأحيانًا بحيرة الإوز والبجع، يُقْصَد بها بحيرة المنزلة الحالية، ويبدو أنها في القديم كانت ملاذًا لأعداد لا حصر لها من الطيور المائية.

سِـفْـرُ رُسُل من أرض الآلـهة

الإصحاح الأول

نزل أوزير وجميع الرجال من السفن الأربع. على آخر جزيرة مصرية من جُزر بحيرة البجع [1] ونزلت إيزي. مصحوبةً بعدد من البحارة النوبيين. ولمَّا كان رع في طريقه إلى الغرب. لوَّنت أشعته الذهبية ثوب إيزي المصنوع من كتان تانيس الرقيق. فلمَّا وطئت أقدامها رمال الشاطئ، انحنى لها الجبتيون والنوبيون؛ إذ رأوها تمثيلاً حيًا للإلهات المصريات: "نوت" و"حتحور" و"قمة الغرب". وركع لها البيلوسيون والفينيقيون معتقدين أنها صورة من ربتهم "عشتار".. وحوَّم في سماء الجزيرة تاسوع الآلهة المصريين في صورة نسور نشرت أجنحتها الذهبية لوداع أوزير وإيزي.

أشْعِلت النيران على الجزيرة، وبدأ بعض الجنود يعدون لوجبة المساء. في حين انشغل بعض الجنود النوبيين في إعداد خص من البوص لأوزير وإيزي؛ الذين قطعا الجزيرة الصغيرة سيرًا على الأقدام. واكتشفا أن الشاطئ الجنوبي من الجزيرة يُطل على مياه النيل الحمراء. في حين أن الشاطئ الشمالي يطل على المياه الزرقاء الصافية للبحر الأخضر [2].

بعد العشاء تحلَّق الجميع حول النار. وقصَّ عليهم أوزير قصصًا كثيرة عن جده جبتو. وجده البعيد جبتو مصرايم الذي هو في الحقيقة ابن من أبناء الآلهة. كما قصَّ عليهم ما سمعه من جده جبتو عن المسوخ والتنانين وشياطين الظلام. وكيف استطاعت السلالة الجبتية أن تقضي على هذه المسوخ بمعونة الآلهة. التي أرادت للمصريين أن يكون لهم النيل ووادي النيل.

ومع الصباح. بدأت الرحلة إلى بيلوس في البحر الأخضر. بحذاء الشواطئ المصرية. وشواطئ أرض النحلة [3]... وكانت السفن الأربع تبحر باستخدام الأشرعة. وعيون البحارة تتابع الشواطئ المصرية... كانت الرحلة في أوائل أيام النسيء [4]. حيث كانت طيور السماني المهاجرة إلى أرض النحلة ترتطم أحيانًا بالأشرعة؛ فيمسك بها الجنود. ويضعونها في أقفاص خاصة.

ومثلما كان البيلوسيون يندهشون حين يرون أفراس النهر والتماسيح في مياه النيل وجزره. كذلك كان الجبتيون يندهشون لرؤية الدرافيل تسبح حول

السفن الأربع، تقفز وتلعب، وتبدو وكأنها تضحك، وترحِّب بالسفن التي تُقِلُّ مع البشر اثنين من أبناء الآلهة.

مرَّ يوم، وانتهت الألسنة المختلطة من مياه النيل الحمراء ومياه البحر الأخضر، وصار الماء أزرق صافيًا.. ولا تزال السفن الأربع تسير في خط موازٍ للشاطئ...

وفي الليلة الثالثة، تشكَّك البحارة الفينيقيون في موقعهم، فاستشاروا "أوزير" ابن الآلهة، فنصحهم بإلقاء المراسي وانتظار الشروق... وفي الصباح أشرق رع من يمينهم؛ فعرفوا أنهم في الطريق الصحيح، وأنهم الآن على بُعْد يومين أو ثلاثة من بيلوس... ورأى أوزير أعالي أشجار النخيل تبدو من خلف تلال الشاطئ الصخرية؛ فأمرهم أوزير بالاتجاه إلى الشاطئ.

رست السفن الأربع في منطقة عميقة بجوار الصخور، وتراصَّتْ السفن الأربع بحيث تكون أخفها أقرب إلى الشاطئ، وسفينة أوزير، وهي أثقل السفن، كانت في اتجاه البحر. وبدأ الجميع في النزول إلى البر، بينما كان أوزير مشغولاً بمراقبة أعداد من النسور المجنَّحة تحوم في سماء المنطقة، وحصر أوزير النسور، فاكتشف أنها تسعة؛ فأيقن أوزير أن رع وبتاح وأتوم وبقية التاسوع المصري يتابعون رحلته ويشملونه برعايتهم المقدَّسة... وهمس أوزير لإيزي بذلك، فنظرت إلى السماء فتأكَّد لها ما قاله أوزير، وهمست إيزي لأتباع أوزير من البحارة النوبيين؛ فرأوا التاسوع المقدَّس رأي العين...

نزل الجميع إلى ذلك الشاطئ الصخري، فوجدوا خلف الصخور جنة خضراء خالية من البشر: أشجار النخيل محمَّلة بالبلح والرّطب بألوان مختلفة، وأشجار التين والرمان تلمع ثمارها في شمس الصباح، وتضيء عناقيد العنب من غصونٍ متدلية بين الأشجار.. كذلك رأوا أشجارًا أخرى كثيرة يعرفون بعضها، ويجهلون بعضها الآخر، وكذلك كانت أرض المنطقة مفروشة بخضرة يانعة مليئة بثمار البطيخ والشمام والفاقوس... وكان الماء البارد يتدفَّق من عين صخرية، فيسيل في نهير صغير، ثم يتفرّع إلى قنوات صغيرة تلمع مياهها في جنبات تلك الجنة.

وتوغّل جنود أوزير النوبيون فاصطادوا عددًا من الظباء والتيوس والخنازير.. وأُشعِلَت النيران وأُقيمَت وليمة كبيرة... ولم ينس أوزير حق الآلهة المصريين، وحتى آلهة ببلوس وفينيقيا. وقدَّم الرءوس والأرجل محرّقات من أجل رع وبتاح وأتوم وبقية تاسوع آلهة مصر. ومن أجل "عشتار" و"ديموزي" و"مردوك" وبقية آلهة مرتفعات ببلوس وفينيقيا.

سأل أوزير أحد الروّاد الببلوسيين: "كيف حال الأمن على الشواطئ وفي البحر؟" فأجاب الرائد: "لا مخاطر على الشواطئ.. في بعض الأحيان، نلمح بدوًا يركبون حمار الجبل [٥] ينتظرون رحيلنا إلى السفن. فيتقدّمون ليأخذوا البقايا التي نتركها حول النيران... وهناك خطر يسير في البحر. ففي بعض الأحيان يحاول قراصنة يركبون زوارق خفيفة مهاجمتنا... لكن سرعة سفننا وارتفاع حوافها لا تمكّنهم منا؛ والأمر لا يخلو -في بعض الأحيان -من مناوشات بيننا وبينهم".

أمر أوزير بقضاء بقية النهار والليل في هذه الجنة. وكلّف الجميع بجمع ما يمكن جمعه من ليف النخيل والحشائش والنباتات الجافة... وفي المساء، وقريبًا من النار، اشترك الجميع، بأمرٍ من أوزير، في تحويل الليف والحشائش والنباتات الجافة إلى كُوَر. ووُضِعَت هذه الكور الجافة على جوانب السفن الأربع.

في صبيحة اليوم التالي، حملت كل سفينة نصيبها من الفرائس المشوية، ومن الرّطب والعنب والتين والرمان... ورحلت السفن... وكان البدو يقفون على مرمى البصر. وبمجرد تحرُّك السفن، نزل البدو يفتشون المكان.. وكان أوزير قد أمر بترك بعض الفرائس المشوية، وعدة مئات من أرغفة البتّاو، وعددٍ من جرار الجعة... ورأى أوزير ومَنْ معه البدو يلوّحون لهم من بعيد.

كانت السفن الأربع على مسيرة يوم من ببلوس، وبعد أن ودّع أوزير رع بقدّاس المساء، أُشعِلت فتائل قناديل الزيت المثبتة على مقدّمات السفن ومؤخّراتها، وردّد المصريون ترنيمة "نوت" للنار المقدّسة، وردّد الفينيقيون ترنيمة لعشتار وديموزي ومردوك... وما إن تكاثف الظلام حتى فوجئ أوزير ورجال السفن الأربع، بعدد كبير من زوارق القراصنة، يظهر فجأةً وكأن البحر قد انشق عنهم... وعلى الفور أمر أوزير بأن تتجه السفن الأربع غربًا إلى المياه العميقة... وأثناء ذلك أُعِدّت كور الليف والأعشاب ونُدّيت بقليل من زيت السراج... أُنزِلت أشرعة السفن الأربع فتوقّفت وصارت في وضع القتال، وتقدّم القراصنة بزوارقهم

محاولين الوصول إلى السفينتين الأماميتين، وبمجرّد أن أصبحت الزوارق على مرمى حجر من السفينتين، انهالت كور النار على الزوارق؛ فاشتعلت بعض الزوارق، ولاذت بقية الزوارق بالفرار.

بعد أن فرّ القراصنة، تلاصقت السفن الأربع، احتفالاً بقهر القراصنة واستعدادًا لعشاء جماعي... وتصادف أن وقف أوزير وإيزي قريبين من نار قنديل الدفّة، ولمع وجه أوزير وإيزي، وبدا أن وجهيهما كوجوه الآلهة... ساعتئذٍ انحنى المصريون تحية لأوزير الذي يثبت "بفكر قلبه، وصنع يده، وحكمة لسانه" أنه ابن من أبناء آلهة مصر. وانحنى البيبلوسيون الفينيقيون لأوزير "الذي يثبت كل يوم أنه ابن عشتار ومردوك" [1]. وكذلك انحنوا للزوجة المقدّسة إيزي... إذ لا يقترن أبناء الآلهة إلا ببنات الآلهة.

واصلت السفن الأربع الرحلة، ملتزمة خطًّا موازيًا للشاطئ، وفي الليلة الأخيرة اقتربوا من بيبلوس... وجاء زورقان، وتحادث الجنود فيهما مع البحارة البيبلوسيين، وما لبث الزورقان أن رحلا مع مشرق الشمس... وما إن اقتربت السفن الأربع من مرفأ بيبلوس حتى جاءت عدّة سفن وزوارق عليها أعلام ملوّنة، وتقدّم حاكم بيبلوس لاستقبال أول رحلة مصرية، يقودها "أوزير" ابن الآلهة المصرية والذي لا يتكبّر عن أن يكون ابنًا لعشتار ومردوك".

الإصحاح الثاني

أُعْجِبت إيزي بقصر الأميرة الجميلة "تازي" زوجة "هاداد" أمير ببلوس. وعرفت الربَّة إيزي --كما كان البيلوسيون ينادونها –أن النساء يسمين القصر بقصر "عشتار"، بينما الرجال يسمُّونه بقصر "مردوك". و"مردوك" هو أحد آلهة المرتفعات...

أمرت إيزي عبيدها النوبيين فجاءوها بالصناديق التي أُهْدِيَت لها من أتريب وتانيس وسايس وبقية مدن أرض النحلة... فتحت إيزي الصناديق. وأهدت "تازي" عدة أثواب رقيقة من الكتان. كما أهدتها عددًا كبيرًا من الأواني الفخاريَّة من مختلف الأنواع والأحجام. كذلك أهدتها كمية من القلائد والأقراط والأساور الذهبية والفضية، والكثير من الجعارين والتمائم الحارسة.

أُعْجِب أوزير بقصر "مردوك" المبني بالحجر، ورافقه الأمير "هاداد" وهو يتفحص جوانب القصر المختلفة، مبديًا إعجابه بعمارة القصر وأثاثه المصنوع من أخشاب الأرز، وأُقِيمَت ولائم عظيمة للقادمين من أرض الآلهة [(٧)] وتذوّق الضيوف النبيذ البيلوسي وأبدوا إعجابهم به... وكان أوزير يتفحَّص وجوه الحاضرين في الولائم، وعرف من المترجمين أن بعض الحاضرين من أرض بابل، وبعضهم من جزر البحر الأخضر، وبعضهم من الحيثيين والكريتيين وغيرهم، كذلك كان أوزير يتفحَّص الرجال والنساء وملابسهم المختلفة.

بعد وليمة، من تلك الولائم، قدَّم الأمير "هاداد" أوزير للجميع باعتباره "أحد أبناء آلهة مصر"؛ فانحنى لأوزير جميع الحضور، وبخاصة كهنة المرتفعات وكهنة صور وببلوس الذين يقدِّسون الإلهين المصريين "رع" و"أتوم" مع آلهتهم المحلية... وقال "هاداد": "إن ضيفنا المقدَّس أتاحت له الآلهة اكتشاف أشياء كثيرة مفيدة سوف يُطْلِعكم الآن على بعضٍ منها". ووقف أوزير وعرض عليهم لفائف البردي، وأُعجب الجميع بهذه اللفائف والأدراج، وعرضوا على أوزير أن يشتروا كميات كبيرة منها للكتابة عليها في المعابد والإدارات الحكومية... واتفقوا على أن تصل لفائف البردي إلى ببلوس [(٨)]. ثم يشترونها من البيلوسيين.

ثم وقف كاهن ببلوس يعلن على الحضور: ".. إن المقدّس أوزير، سوف يبيّن لكم كيفية الكتابة على لفائف البردي. وفي الوقت نفسه سوف يبيّن لنا طريقة المصريين في الكتابة الهجائية وكتابة الأرقام".

وقف أوزير أمام الجميع. وقد ثبّت على الحائط ورقة كبيرة من أوراق البردي ومعه وعاءان صغيران. أحدهما فيه مداد أسود وريشة مشذّبة. والآخر فيه مداد أحمر وريشة أخرى. ثم رسم تخطيطًا بيضاويًا لوجه ثور ذي قرنين وقال: "هذا هو الرمز الأول في كلامنا وكتابتنا وهو الرمز "أ" ونسميه "ألفا". والألفا عندنا هو ثور القطيع. وهو الأول من كل شيء" ثم رسم خُصا أو بيتًا مبسطًا وقال: "الرمز الثاني من كتابتنا وفي كلامنا هو "با" ونسميه "بيتا". "ثم رسم عنق ورأس جمل وقال: "الرمز الثالث من كتابتنا وفي كلامنا هو "جا" ونسميه "جيميل" ونرمز إليه برأس ورقبة الجمل..." واستمر أوزير يوضّح للحضور كتابة الرموز المصرية [٩] وكتابة الأرقام... وكانت أغلب تعليقات الحضور: "حقًا إن المصريين قد سبقوا في كل شيء... حقًا إن أوزير ابن الآلهة. قد تعلّم على أيدي الآلهة...".

أصرّ الأمير "هاداد" والأميرة "تازي" على أن يُستَضاف أوزير وإيزي ومَنْ معهما. حتى يحضروا أعياد عشتار وديموزي أو تموز. في شهر نيسان الفينيقي: أي شهر برمودة المصري. ولمّا حاول أوزير الاعتراض. قال له "هاداد" من خلال المترجمين: "تظل معنا لثلاثة أسباب: أوّلها انتظار الرياح المواتية. وثانيها لنتعلّم منك ما تعلّمت من الآلهة. وثالثها لكي تتعلّم شيئًا من ببلوس والمدن الفينيقية. وحتى ترى أعياد عشتار وديموزي وأدونيس" وما كان لأوزير إلا أن يستجيب لكرم أمير ببلوس وزوجته الجميلة.

قدّمت إيزي عيّنات من بذور القمح والشعير والبصل والعدس والحمص والباميا والفاقوس والبطيخ والخس والثوم والكمون. للأميرة "تازي" لكي تُستَزرَع في حدائق القصر.. كذلك قدّمت لها بذور بعض النباتات الطبية مشيرة لفائدة كلٍ منها وخصوصًا "الكراوية. واليانسون. والحلبة" وعلّقت إيزي على نبات الحلبة قائلة لتازي: "إن الربّة حتحور. معينة المرضعات والوالدات. أوصت فقالت: "إنني أنا حتحور التي طلبت من بتاح المسئول عن خلق النباتات الطبية. أن يبتكر نباتًا من أجل الوالدات والمرضعات: فكان نبات الحلبة الذي يقوّي الوالدات ويزيد من

حليبهن"[١٠] وعلّقت "تازي" فقالت: "إن الربّة حتحور عندكم، هي الربّة عشتار عندنا".

أعطت تازي لإيزي عدّة مرايات مصقولة مصنوعة من الفضة، واثنتين مصنوعتين من الذهب. كما أعطتها عدّة أثواب بابلية ملونة في ببلوس في مصابغ القصر الملكي[١١].

علّم أوزير البيلوسيين طرقًا جديدة في تلوين الفخار وطلائه بالمينا وبطبقات لامعة من مسحوق المايكا... كذلك علّمهم كيفية صناعة سلاح المحراث وتركيبه، وحرث الأرض باستخدام الثيران. كما علّمهم حفظ الأسماك بتمليحها، وعزل مساحات من مياه البحر للحصول على ملح الطعام.

قال أحد كهنة المرتفعات في ببلوس عن أوزير: "حقًا إنه ابن الآلهة". فردّ عليه كاهن من معبد عشتار: "لقد علّم البيلوسيين الكثير، إنه بالفعل يستحق اسمه "كثير الحيل" ألم تر إلى محراثه وكيف ينجز حرث الأرض باستخدام الثيران؟ ألم يعلّمنا الكتابة بالحروف والأرقام على ورق البردي؟ ذلك الورق المقدّس الذي وهبت الآلهة أوزير طريقة صناعته؟!"[١٢].

في برمهات من التقويم المصري، توفّي "هيروم" والد الأميرة "تازي" وعم الأمير "هاداد". ولمّا سأل أوزير الكهنة عن مراسم الدفن، أجابوه من خلال المترجمين "علينا أن نحتفظ بالجثة سليمة وبعيدة عن تمزيق والتهام دببة الجبال... نضع الجثة في كهف نغلقه بكميات كبيرة من الصخور الضخمة؛ حتى لا يقوى الدب الجبلي على انتزاعها... وذلك أنه طالما أن الهيكل العظمي للجثة سليم، فإن روح الميت تظل تحوم بحرية وسعادة حول المستنقعات والخلجان والأنهار والقنوات...".

وردّ أوزير: "إن رع وتحوت وأتوم وبتاح وبقية تاسوع الآلهة، قد ضمنوا للميت الطيب حياة "رغدة" مع الآلهة في جناتهم، بشرط أن يظل الجسد كله سليمًا، وليس فقط هيكله العظمي، حيث تستطيع "الكا" وهي قرين الميت أو أخته في الصورة، أن تتعرّف على صورته المشابهة لها، فإذا تعرّفت عليه الكا، استطاعت "البا" أي الروح النورانية الإلهية أن تعود إليه: فيقوم من الأموات، ويصعد إلى جنات الآلهة فيكون كأحدهم... وحتى يظل الجسد كله سليمًا نقوم بتحنيطه".

طلبت "تازي" و"هاداد" من أوزير ابن الآلهة، أن يقوم بإجراءات تحنيط جسد "هيروم"... وصنع أوزير تابوتًا من خشب الأرز، وضع فيه الجسد بعد تحنيطه، ووضع مع الجسد تعاويذ الحفظ والإحياء وتماثيل صغيرة للجعارين والمردِّدين [١٣] ثم أدخل التابوت في كهف عميق، وسَدّ المدخل بكميات كبيرة من الأحجار... وشعر أهل ببلوس، وخصوصًا الأمير "هاداد" والأميرة "تازي" بالأمن على المصير الأخروي لهيروم... وبدأت طقوس مصر وآلهتها تتسرّب إلى ببلوس والساحل الفينيقي.

الإصحاح الثالث

في منف عانى دان كثيرًا من ابنه ست؛ فقد رفض أن يحلَّ محلَّ أوزير في متابعة أعمال ما بعد الفيضانات، من شق للترع، وتجفيف للمستنقعات، وحرث الأرض وبذر البذور وإعادة طلاء المعبد والبيوت بطمي الفيضان... كذلك فإنه أساء معاملة جاريته النوبية، حتى هربت إلى بيت والده، ثم حدث تحرُّش بين ست وبعض الجنود النوبيين الذين توعَّدوا ست.

ذات يوم، فوجيء دان بابنته الصغيرة "نفتي" وأمها "تونا" تبكيان... ولمَّا استوضح دان الأمر، قالت تونا لنفتي: "قُصِّي على أبيك ما حدث"؛ فقالت نفتي وهي تغالب عبراتها: "كنت مع بعض البنات نجمع بيض الطيور من الأحراش القريبة من النيل، فرآني أخي ست وهو على طوَّافته في الماء، وطلب مني أن أركب معه لنصطاد الإوز والبط من أحراش الجزر، فركبْتُ معه... ولمَّا ابتعدنا وصرنا بين الأحراش، أمسك بي، وألقاني على أرض الطوَّافة، وتوسَّلتُ إليه أن يتركني، ورجوته بحق الأخوة وبحق الماعت والآلهة، ثم عرضتُ عليه موافقتي أن أكلَّل زوجةً له في معبد حتحور؛ فرفض كل توسلاتي، ولم يأبه بدموعي وبكائي واغتصبني..."

رفع دان الأمر أمام المبجَّلين في قاعة تحوت وحتحور؛ حتى تلزم المحكمة ست بأن يُكلِّل هو ونفتي المعتدى عليها بزواج مقدَّس؛ وقبل صدور الحكم، هرب ست ولجأ إلى عصابات "الرمال الحمراء" في صحراء شرق النيل... وبدأ أهل منف وعين شمس يتحدَّثون عن علاقة مشبوهة بين "ست" و"جبجا" والمبجَّل "دِبْحِن" في عين شمس.

في فجر أحد الأيام، نبحت الكلاب، ودقت طبول الجنود الصيادين في منف، واستيقظ دان، والمقدَّس ساكبو كاهن منف، كما أسرع مرن قائد المائة بجنوده، وكذلك ميدوم بطوَّافاته وأرماثه السريعة وبحارته... وتبيَّن أن مجموعة من لصوص البدو، قَدِموا بأرماث وطوَّافات عبر النيل، وأنهم حاولوا نهب حظيرة نذور المعبد... وبدأت المطاردة عبر النيل، وأسر المنفيون بعض الأرماث والطوَّافات، وكُبِّل الأسرى بسلاسل النحاس ليصيروا عبيدًا لمعبد منف... وحزن دان كثيرًا؛ حيث تواترت شائعات بأن ابنه ست كان مع هؤلاء (الأشرار) بل كان قائدًا لهم... واستاء دان ذات يوم في المعبد، حين تحدَّث أحد الكهنة المبجَّلين عن نبي من الغابرين، وأنه

بالرغم مما كان مشهورًا عنه من الحكمة وحسن الخلق، إلا أنه أنجبَ ابنًا لم ترضَ عنه الآلهة؛ وأن الآلهة في النهاية حرّضت عليه الأفعى المقدّسة فلدغته فمات.

قال أحد التسعة المبجّلين في عين شمس، للمبجّل آسو: "... لقد شممت رائحة السمك تفوح من فم المبجّل "دِبحْن" داخل معبد الآلهة [١٤]... إن مجمّع الآلهة التسعة لا يرضى عن ذلك"؛ فردّ "بيبي": "سمعتُ من خادمات حوض الطهارة المزدوج أن المبجّل "دِبحْن" لا يتطهّر بانتظام قبل دخول المعبد، أو دخول محكمة تحوت. وقال "باورعا" أحد المبجّلين: "إن جارية المعبد الحامل، تقول إنها حملت من المبجّل "دِبحْن"... كذلك فإن "وان" قائد المائة، و"نوتي" قائد الأرماث والطوّافات يقولان إن المبجّل "دِبحن" على علاقة ببدو شرق النيل الأشرار، الذين يستضيفون ست، الذي يتحدث الجميع عن شروره.

أصر وان، بحضور نوتي وبيبي، أن يُجْرِي تحقيقات بنفسه مع جنود الحراسة المكلّفين بمراقبة المرفأ ومسطّحات النهر في عين شمس، والمكلّفين بحراسة الحظيرة العامة وحظيرة النذور... وتبيّن للجميع، من خلال التحقيقات، أن تدبير المقدّس "دِبحْن" كان يقف وراء غيبة هؤلاء الجنود عن مواقعهم، الأمر الذي مكّن لصوص الصحراء الشرقية، أتباع ست، من سرقة بعض حيوانات الحظائر، وكميات من الحبوب من الشونة العامة... قال أحد الجنود الذين اشتركوا في مطاردة أرماث وطوّافات عصابة "الرمال الحمراء": "أعتقد أن ست بن دان كان يقود هؤلاء الأشرار، كما أظن أنني رأيت الشرير "جبجا" يسرع برمثه مع هؤلاء الأشرار"

(أثبت -أنا مانيتون- حكمة قديمة تقول: إذا زادت شرور الإنسان فاشتهر بها زال عنه حياؤه، وزاد تبجّحه)... خلع ست ثوب الحياء، وصار -بصلفه المعهود- يتردد نهارًا على المبجّل "دِبحْن" في عين شمس، بل كان لا يبالي بأحد، حتى أنه كان يزور بيت جبجا الشرير في وضح النهار... وكان ست يعود بطوّافته ومعاونيه شرقًا، وقد حمّله "دِبحْن" بأرغفة الخبز وجرار الجعة وبعض الحيوانات وكميات من الحبوب والفواكه والأسماك المملّحة...

قالت صبية صغيرة من المستحمات في بركة النساء في عين شمس: "هل صحيح أنهم حنطوا المقدّس "دِبحْن"، وصنعوا له تابوتًا ودفنوه في الجبانة الغربية، تمامًا مثل جبتو ابن الآلهة؟!" فردّت امرأة من المستحمّات: "نعم، لا بد من هذا، فهو رئيس مجمع التسعة، ورئيس محكمة تحوت، كما أنه كان طبيب عين

شمس وعرّافها" وردت فتاة ضاحكة: "لقد وجدوه مقتولاً بحجر. في نفس المكان الذي عثروا فيه على جثة المبجّل "موبي"... عجبًا لهؤلاء المبجّلين. إنهم يهوون تأمّل أجساد النساء العاريات". وقالت امرأة متينة البنيان: ".. إن بعض الرجال يزعمون أن امرأة قوية قتلت "دِبنْحِن" لاعتدائه على ابنتها... ورجال آخرون يقسمون إن الآلهة أخرجت "كونو" من الأموات فقتل "دِبنْحِن"... وآخرون يؤكّدون أن جبتو، الذي يقيم في السماء مع الآلهة، قد أرسل "آلهة الانتقام" فانتقمت من "دِبنْحِن" الذي "فعل الشر مع الآلهة، ولم يحترم شريعة تحوت".

قضى "دان" و"ساكبو" و"مِرِن" وبقية وفد العزاء المنفي يومين في عين شمس بعد انتهاء مراسم جنازة "دِبنْحِن". وعلم وفد منف أن التحقيقات في مقتل "دِبنْحِن" أثبتت أنه قُتِل في نفس المكان الذي سبق أن قُتِل فيه موبي؛ حيث كان يتلصص ليرى أجساد النساء العاريات... وبالرغم من وجود جثة "دِبنْحِن" وتقديم الكهنة لثور ذُبِح، وأكل المبجّلين لطعام الشهادة، وضربهم الجثة ببقايا ذيل الثور، وعودة الكا والبا والحياة لـ "دِبنْحِن" [١٥] إلا أن الكهنة قالوا إن "دِبنْحِن" لم ينطق بشيء وعجز عن تحديد قاتله (وأثبت -أنا مانيتون- أمرين يتعلقان بمثل هذه الحالة: أحيانًا يخشى الكهنة بأس القاتل فينكرون شهادة القتيل... وأحيانًا أخرى لا يكون الكهنة مؤهّلين لاستخدام التعاويذ والسحر؛ وبالتالي يعجزون عن استدعاء الكا والبا، فلا يحصلون من القتيل على شهادة).

في اليوم الثالث من دفن "دِبنْحِن" اجتمع كهنة معبدي منف وعين شمس برئاسة "باورعا" الذي صار كاهنًا أكبر لاتحاد المجمعين.. وحضر الاجتماع "دان" سيد منف، وصديقه "لابانو" سيد عين شمس، كما حضره قوّاد المائة وقوّاد الطوّافات والجنود الكبار من منف وعين شمس... وقرّر المجتمعون أن يكون لمنف وعين شمس مجمّع مقدّس واحد برئاسة "ساكبو"، كما تكون قيادة الأرضين [١٦] لدان، على أن يكون "لابانو" نائبًا عنه في عين شمس. كذلك قرر المجتمعون أن يكون أوزير ابن الآلهة، والذي يحمل دمًا مقدسًا من جدّه جبتو مصرايم، وريثًا شرعيًا لدان. كما قرّر المجتمعون فتح الباب لاتحاد جميع قرى الأرضين، حتى يصبح (جميع المتشابهين في القلب واللسان كأنهم قبيلة واحدة) [١٧].

زادت شرور ست، وصار زعيمًا لسكان الرمال الحمراء [١٨] في شرق النيل، والذين تعدّدت إغاراتهم على أطراف المدينتين والقرى الصغيرة التي أنشأها بعض

الزُّراع والصيادين. ومنذ عدّة أيام أغاروا على مستعمرة صغيرة وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال وسلبوا الحيوانات والأقوات (أثبت -أنا مانيتون- جزءًا من بردية من برديات المراسلات بين منف وأهناسيا أثناء بدايات التوحيد الأول... تقول البردية: قد يجني الإنسان من بعض الضرر نفعًا. فهؤلاء الأشرار من سكان الرمال الحمراء. تسبَّبوا -بإغاراتهم- في توحيد معظم الأرضين. وبسريان روح الوحدة بين جميع المصريين. إن تانيس وسايس وبوتو وأتريب ومدن وقرى أرض النحلة. صار يسودها شعور بالوحدة والتناصر... إن مدن وقرى أرض البوصة والثعبان والنسر تحتاج منا مساعدات لردِّ عادية عصابات الرمال الحمراء. وسوف نرسل جنودًا ورماة بالنبال لتقوية هذه المدن... وعلينا استضافة كهنة المدن الجنوبية من الشباب؛ ليتعلموا في عين شمس. وليدرسوا الأسرار المقدّسة للتاسوع... وحين يعود أوزير فإنه سوف يعلِّمهم المزيد من الأسرار المقدّسة التي ألهمته بها (الآلهة) كذلك فإنه سوف يعلِّمهم ما علَّمَه بتاح، من القدرة على إثبات أفكار قلبه. على ألواح البردي باستخدام الرموز المقدّسة).

الإصحاح الرابع

طاف أوزير ابن الآلهة، ومعه الزوجة المقدَّسة إيزي، على معظم مدن وقرى الساحل الفينيقي، بل وطوَّفا على الجزر التابعة لفينيقيا، يرافقهما الوفد المصري وبعض الجنود وكبار البحارة الببلوسيين.

زاروا "بيروتا"[١٩] ومعبدها الشهير للإله "إلّ" وزوجته الإلهة "إيلات". كذلك زاروا صور وصيدا والمدينة المثلثة[٢٠] إرْوَاد: فهناك إرْوَاد الجبل ذات الثمار الكثيرة، وإرْوَاد الشاطئ بجناتها المعروشة وصناعاتها وتجاراتها، وإرْوَاد الجزيرة بأسطولها التجاري وقراصنتها البحريين...

وفي معبد تموز في "إرْوَاد"، أُغمي على إيزي، حين رأت الكهنة يخنقون الأطفال حتى الموت، وحين أفاقت أُغمي عليها مرة ثانية، حين رأت جثث الأطفال تُحرَّق على مذابح الآلهة، وبخاصة الإله العظيم مولوخ[٢١].

وحضر الجميع حفل الاعتدال الربيعي في منتصف نيسان في ببلوس، ووفدت جموع غفيرة من المدن الفينيقية والسواحل القريبة لحضور الاحتفالات والمهرجانات المقدَّسة... نظر أوزير والوفد المصري باندهاش، إلى الببلوسيين والفينيقيين وهم يؤذون أنفسهم كمظهر من مظاهر التقوى والخضوع لرغبات الآلهة... ففي معبد عشتار كانت العذارى يُقدمن شعورهن لتُحرَّقَ على الأنصاب... بل كانت بعض العذارى يضحين ببكارتهن[٢٢] للعبيد والأسرى من أجل عشتار. وفي معبد سيدة ببلوس الإلهة "إيلات"، والتي تُنَادى أحيانًا "عشيرة"، يوجد مكان للبغاء المقدَّس: تضحية للإلهة الأم، وكذلك تتقبَّل الإلهة غدائر البنات، كما تتقبَّل خصَى الذكور خصوصًا من الشباب والغلمان الطامعين في وظائف الكهنوت.

وفي نهاية الاحتفال عند معبد أدونيس، تقدَّم الكاهن الأعظم إلى قبر رمزي لأدونيس، وأعلن عن قيام أدونيس من قبره، وأعلن كذلك عن "وعد الإله أدونيس" بأن الحضور جميعًا "سوف يقومون من الأموات، ليحيوا حياةً ثانية، مثلما حدث لأدونيس" وفي الختام بلّل الكهنة والشمامسة شِفاه وأفواه الحضور بخمور المعبد المعتَّقة[٢٣].

أعِدّت ثلاث سفن ببلوسية كبيرة، من ذوات الأشرعة السبعة، وكذلك أعِدّت سفينة أوزير لرحلة العودة لأرض الآلهة [٢٤]. حُمِّلت السفن بالطعام والشراب وأهدى الأمير "هاداد" أوزير عددًا من الأسرى والعبيد الشباب، ليكونوا تحت إمرة أوزير، كذلك أُلحِقَتْ بالسفن طوّافة ضخمة عبارة عن كُتل متراصة من جذوع الأرز.

قال أوزير وهو يودّع "هاداد" و"تازي": "كيف نرد أثمان هذه السفن وهؤلاء العبيد وتلك الأخشاب والبضائع الكثيرة؟!" فرد هاداد: "يعود دخل التجارة كلها لي وللمعبد المقدّس والآلهة، وسوف يكون بيننا تبادل تجاري ضخم، ترسلون إلينا بضائعكم من أرض الآلهة، وسوف نرسل إليكم في مقابلها بضائع أخرى من بيلوس وبقية مدن فينيقيا، بل وبضائع بابل وسكان الجبال والبحار القريبة والبعيدة".

في بشنس من تقويمنا، وأيار بتقويم الحُمر، تم الوداع في مرفأ بيلوس، حيث خرج جمع كبير من البيلوسيين لتوديع أوزير ابن الآلهة، وزوجته المقدّسة إيزي، وبكت تازي وهي تودّع إيزي، واحتضن "هاداد" "أوزير" مودّعًا، وامتلأت أشرعة السفن بهواء "تشو"... ورحلت السفن إلى أرض الآلهة، متبعةً نفس الطريق الموازي للشواطئ الفينيقية، ثم الشواطئ المصرية.

في مساء اليوم الثالث، وبمجرّد أن أُشعِلَت قناديل السفن، هاجمت زوارق القراصنة السفن الأربع، لكن ما إن بدأ جنود أوزير يطلقون الكرات المشتعلة حتى سارعت زوارق القراصنة بالفرار... وأحسّ أوزير أنه قريب من تلك المنطقة المليئة بالخيرات، والتي عسكروا فيها ليلةً في طريق الذهاب؛ لهذا أمر أوزير فأرست السفن في المياه العميقة حتى الصباح.

صَدَق حدس أوزير ابن الآلهة، فبمجرّد شروق الشمس، تبيَّن للجميع أنها نفس المنطقة ذات النخيل والأعناب والتين ونبع الماء الجاري، وعلى الفور تحرّكت السفن في اتجاه الشاطئ... ونزل الجميع على الشاطئ مع نسمات الصباح الرقيقة، وأكل الجميع من الرُّطب المتساقط تحت النخيل ومن شجيرات التين والعنب، ومن البطيخ والشمام، وطارد الجنود الصيادون والبحارة عددًا من الظباء والتيوس والبقر الوحشي، وأُشعِلَت النيران، وجلس الجميع لوجبة الظهيرة.

أثناء الطعام، فوجيء أوزير والجميع، بأحد البدو يتقدّم راكبًا "حمار الجبل" [٤٦] ويقوم بحركات غريبة، فسّرها أحد العبيد البيلوسيين بأن البدوي يريد عقد صفقة تجارية... ولمّا توقّف البدوي عن السير، أشار إليه أوزير بالأمان وبأن يتقدّم، فهم أوزير من حركات البدوي، ومن تفسيرات العبد البيلوسي، أنه يريد المقايضة على عدد من "حمار الجبل" وزقاق الخمر، والتين المجفف، بكمية مناسبة من خبز "البتّاو" والجعة وزيت الزيتون والسمك المملح...

تمّت المقايضة، وحصل أوزير على عدد كافٍ من ذكور وإناث "حمار الجبل" وُضِعَت على طوّافة كُتَل خشب الأرز، كذلك حصل أوزير على عدد من زقاق الخمر وكمية من التين المجفف والتمر، وأخذ البدو ما أرادوا في مقابل ذلك، كما وُعِدُوا بأخذ ما يتبقى من طعام المعسكر بعد الرحيل...

اُضطُرّت الحملة أن ترسو عند منطقة شرق الفرع البلوزيومي للنيل؛ حيث توجد منطقة بحيرات وجنّات خضراء... أنزلوا "حمير الجبل" بصعوبة حتى ترعى الأعشاب، ذلك لأن الأغصان المورقة التي وضعوها لها فوق طوّافة أخشاب الأرز لم تكن كافية... واستطاع الجنود والعبيد جمع كميات كبيرة من الأسماك والأرز والبجع وبعض الخنازير، وعددًا كبيرًا من الحمير البرّيّة.

بسبب عدم مواتاة الريح اُضطُرّت هذه الرحلة البحرية أن تقضي فترة من الوقت شرق الفرع البلوزيومي من النيل... وكانت إيزي أكثر الجميع سعادة بالرحلة والرفقة الطيبة لأوزير... وحيث إن القطعان قد كثرت، فقد أمر أوزير بعض الجنود والعبيد أن يسيروا بها في الطريق البري، وأن يستعينوا بحكام المقاطعات في طريقهم في أرض النحلة... وبدأت مياه حابي الحمراء تصل إلى تلك المناطق، فسارت السفن الأربع وطوّافة خشب الأرز بالأشرعة في الفرع البلوزيومي... وكانت الحملة تتوقّف عند كل مدينة تمرّ بها؛ حتى يقابل أوزير حكام المقاطعات، ويعطيهم بعض الهدايا البيلوسية... وعلم أوزير من حكام مقاطعات أرض النحلة، أخبار منف وعين شمس، ورغبة الجميع في توحيد "جميع المتفقين بالقلب واللسان".

الإصحاح الخامس

أُسْتُقْبِلَ أوزير وبحارته وجنوده وعبيده استقبالاً حافلاً في عين شمس. وبعد أن قدّم الهدايا "للابانو" و"وان" والكهنة المبجّلين، قام بتقديم القرابين لمعبد عين شمس...

رحلت سفن الحملة إلى منف، ووصلت في نفس الوقت الذي وصلت فيه الحملة البرية بما معها من قطعان المواشي والدواب... وخرج جميع المنفيين لاستقبال أوزير وحملته، وكان على رأس المستقبلين دان والد أوزير بالعماد، وساكبو كاهن منف وعين شمس، وأمه تانا، وأمه الثانية "تونا" زوجة دان وأم إيزي، وكذلك أخته بالعماد نفتي...

حزن أوزير كثيرًا لمّا سمع أخبار ست؛ فهو الآن عدو لوالده، وزعيم لعصابات أشرار الرمال الحمراء، شرقيّ النيل. وشعر أوزير بالأسى لما فعله ست بأخته الشقيقة نفتي؛ إذ هي الآن حامل منه بغير زواج مقدّس في معبد حتحور. ولمّا علمت إيزي بما حدث لأختها لم تستطع منع نفسها من البكاء.

زادت مياه الفيضانات، وامتلأت الخلجان والمستنقعات والأحراش والبحيرات بالمياه الحمراء التي ينقلها حابي بشادوفه المقدّس، من جنات الآلهة في السماء إلى جنة المصريين في وادي النيل... وتحوّل الناس إلى الصيد والالتقاط، حيث غطّت المياه الأراضي الزراعية، ونظّم أوزير الجنود والصيادين والعبيد لصيد الطيور والحيوانات التي ألجأتها مياه الفيضان إلى جزر النيل وأدغال الشاطئين.

وبناءً على رأي دان وساكبو، قام أوزير ابن الآلهة، تصحبه زوجته المقدّسة إيزي، برحلة مقدّسة إلى مدن الجنوب؛ بهدف تأكيد الوحدة الأولى بين المنتمين "للقلب الواحد واللسان الواحد". وكان مع أوزير وجوه من منف وعين شمس وبعض جنوده وعبيده النوبيون، تحملهم ثلاث سفن ببلوسية، كما تحمل هدايا قيمة من ببلوس وفينيقيا، وفي الطريق البري حملة من الجنود والعبيد، تقود قطعانًا من الماشية والحمير وحمار الجبل والأبقار والوعول والماعز والتيوس والخنازير؛ لتقديمها هدايا لحكام مدن ومقاطعات الجنوب.

نزل بإقليم البوصة وأشهر مدنه: داشور، اللشت، ميدوم، اللاهون، امسوحا [٢٧]، خوس، مير، وحوت نوب.

ونزل بإقليم الثعبان وأشهر مدنه: شاس حتب، ليكو [٢٨] بانو، سوهاج، وطينا.

ونزل بإقليم النسر وأهم مدنه: أبيدوس، داندارا، قفطو، أسبوس، ناكادا، طيبا، أرمنتو، طولو، إسنا، إدفو، بيجا، آبو [٢٩] وأسوان.

ونظرًا للعلاقة التي توثَّقت بين أوزير وجنوده وعبيده من النوبيين، ترك السفن عند الشلال الأول، وجاوز -ومعه جنوده وعبيده النوبيون- منطقة الشلال واتَّصل بأهل النوبة، الذين عقدوا معه معاهدة، لمَّا علموا من مرافقيه النوبيين أنه ابن الآلهة، وبأنه يوحِّد الأرضين ليحمي المصريين من أشرار الرمال الحمراء، وعصابات بدو الصحراء.

ترك أوزير ما بقي مع الحملة البرية من بقر وماعز وحمير وحيوانات أخرى لأهل النوبة، بعد أن عقدوا معه المعاهدة والحلف.. وأمدَّ النوبيون أوزير بكمِّيَّة من ذهب النوبة، كما وهبوه ثلاث سفن من خشب السنط... وعاد أوزير والحملة مع مياه الفيضان إلى الشمال.

قبل أن يصل أوزير إلى منف وصلته أخبار عن مصادمات قادها دان بنفسه ومعه مِرِن وميدوم ضد عصابات الرمال الحمراء... وكان أوزير يشعر بالقلق وبأن الجنود يخفون شيئًا ما عنه وعن إيزي... وما إن وصل أوزير إلى مرفأ منف حتى علم بالفاجعة التي آلمته وآلمت "إيزي"، وهي مصرع "دان" في معركة بين الجبتيين وبين عصابات الرمال الحمراء والبدو... وأبلغ ساكبو ومِرِن وميدوم ووجوه منف أوزير، بأن "دان" قد استخلفه على كلِّ جبتانا، أي على منف وعين شمس وبقية مدن الشمال والجنوب، حاكمًا عامًا على "كل المتحدين بالقلب واللسان" كذلك أبلغوه، أن "دان" أباه بالعماد كلَّفه بتطهير الصحراء الشرقية من عصابات البدو والرمال الحمراء، التي يتزَّعمها "ست" أخوه بالعماد والأخ الشقيق لإيزي ونفتي... كذلك كلَّفه "دان" بأن تكون عين شمس عاصمة الأرضين.

في اليوم الثاني من انتقال أوزير إلى عين شمس، أُعِدّت حملة برية ضخمة لتطهير دروب الصحراء شرق النيل من عصابات البدو وعصابات الرمال الحمراء. قامت مجموعة من السفن والطوّافات بنقل جنوده وحميره إلى الشاطئ الشرقي للنيل عند اللاهون، وقسّم الجنود إلى مئات، جاعلاً على كل مائة أحد قواده في المدينتين ومن أشهرهم: "نوتي"، و"وان"، و"ببي" من عين شمس، و"مِرن" و"ميدوم" من منف، و"باي" و"هريدو" من ميدوم... كذلك استعان أوزير بجنود وبحارة من بَحْدَت وبوباسطا وسايس وتانيس ومنديس وآسيوم... وأصرّت هاجال زعيمة أتريب، أن تمدّ أوزير بعدّة زوارق سريعة من خشب الجميز المحفور، وعلى كل زورق مجموعة من النساء المشهود لهنّ بالرمي بالنبال.

رسا الأسطول شرق اللاهون، ونزلت مجموعات الجنود، كلُّ مجموعة اتّجهت بقائدها إلى درب من دروب الصحراء الشرقية... وبعد رحيل مجموعات الجنود، حاولت مجموعة من عصابات الرمال الحمراء إشعال النار في السفن، إلا أن نساء أتريب الراميات بالنبال، انهلن عليهم بسهامهن، فقُتِل مَنْ قُتِل وفرّ مَنْ فرّ... وتعقّبتْ المجموعات العسكرية عصابات البدو، وعصابات الرمال الحمراء، وخرّبت قراهم، وسِيقت دوابهم وحيواناتهم، وأُخِذَ أطفالهم عبيدًا.

أُسَر "باي" "ست" الذي كان جريحًا يعاني منذ الحملة التي قادها والده دان، وما إن رأى أوزير ست حتى بكى وقبّله ونظّف جراحه وضمّدها... وعادت الحملة ظافرةً إلى عين شمس.

قدّم أوزير قرابين كثيرة من بقر وغنم وماعز على مذابح الآلهة في عين شمس... كذلك قدّم رؤساء المئات قرابين أخرى عنهم وعن جنودهم كما تقضي شريعة تحوت.

وُضِع ست في "بيت الشفاء" المُلْحَق بالمعبد الكبير في عين شمس، وكان أوزير يشرف بنفسه على علاج ست هو وتونا أمه... رفضت نفتي الزواج من ست بالرغم من أنها قد أنجبت طفلة منه؛ وذلك لأنه سبق أن أذلّها واغتصبها، وأيّدها في رفضها مجمّع الكهنة المبجّلين (حيث شُرِع زواج الأخوات لتأكيد أحقية الابن في وراثة سلطة الأب؛ بأن يكون الابن مرشحًا لوراثة أبيه فيعضده زواجه من أخته الشقيقة) [٣٠]... فلمّا أوصى دان بالسلطة لأوزير، لم يعد ثمة مبرر

لزواج ست من أخته نفتي... هذا فضلاً عن أن الاغتصاب والإذلال في شريعة تحوت يحول دون الزواج المقدّس وإكليل المعبد.

بعد الفيضان، برزت الأراضي مكسوةً بالطمي الذي يتركه النيل، ونُزِحَت المياه من المستنقعات الضحلة، ووُزِّعت أسماكها على الناس، وبعد أن جفَّت بدأت حراثتها استعدادًا لبذر البذور.. وشعر الجبتيون في الأرضين أن أوزير حقًا ابن الآلهة؛ إذ إن الشادوف الذي ألهمه بصناعته الإله بتاح، والذي شاع استعماله في الري ونزح المياه، سهَّل للناس مسألة التعامل مع المياه.. كذلك نُفِّذت تعليمات أوزير فأُنشِئت إدارة "للمياه والترع" [٣١] وإدارة للبذور والشون والحبوب في كل مقاطعة في الشمال والجنوب... كذلك نظَّم أوزير جميع المعابد في المدن والمقاطعات، وألحق بها "دورًا للشفاء" ودورًا للأطباء والكهنة والسحرة والتلاميذ الكتبة والشمامسة... وكان أوزير أول معلِّم على أوراق البردي.

عَلِمَتْ تانا أم أوزير بشفاء ست، فقالت لأوزير: "حكى السابقون أن أفعى الكوبرا، هاجمها نسر كبير فجرحها، وعانت كثيرًا من النمل والحشرات التي هاجمت جراحها، فمرَّ عليها رجل طيب، فطلبت منه مساعدتها حتى تشفى... وبالفعل غسلها الرجل الطيب وعالجها حتى شفيت من جراحها... وبعد شفائها وُجِدَ الرجل الطيب صريعًا؛ فقد لدغته الأفعى التي سبق أن عالجها". ابتسم أوزير لأمه وقال لها: "لا تنسي يا أماه أنني ابن الآلهة، وأن الآلهة ترعاني".

هوامش سِفْر "رسل من أرض الآلهة"

١- بحيرة البجع: بحيرة المنزلة، وكانت ملاذًا آمنًا لأسراب البجع والطيور المائية.

٢- البحر الأخضر: هو البحر الأبيض المتوسط في الكتابات المصرية القديمة.

٣- أرض النحلة: تسمية مصرية قديمة لأرض الدلتا التي تفيض لبنًا وعسلاً، ويبدو أن الدلتا في القديم كانت تمتلئ بنحل العسل؛ بسبب كثرة زهور اللوتس والبردي والسوسن..

٤- أيام النسيء الخمسة أو الستة في آخر السنة الشمسية المصرية (القبطية) وُضعت في نهاية التقويم الشمسي لضبط التقويم مع الفصول والزراعة (يبدو أن المصريين اعتمدوا قديمًا على تقويم قمري، ثم ثبت لهم عدم توافقه مع الزراعة؛ فاستبدلوا به التقويم الشمسي).

٥- "حمار الجبل" "هُور أو حُور آس" باللغة المختلطة بين المصريين والآسيويين، وانتقل الاسم "هور آس" إلى الإغريقية ثم اللاتينية فاللغات الأحدث (الحصان).

٦- تبنّى ساحلُ الشام الفينيقي بعض آلهة مصر كأثر من آثار الاتصال الحضاري.

٧- أرض الآلهة ــ أرض مصر في أدبيات الشعوب المجاورة.

٨- بالفعل كانت ببلوس مركز تسويق البردي المصري، بل يرى اللغويون أن اسمها منحوت من "البيروس" المصرية المعبِّرة عن ورق البردي، والتي أثَّرت في اسم الورق في كافة اللغات، بل إن "البيروس" المصرية هي جزر bible الكتاب المقدس.

٩- الكتابة المصرية تصويرية وصوتية أثَّرت في لغات البحر الأبيض والمنطقة السامية، ولا يزال الحرف الأول العبراني متأثّرًا بوجه الثور البيضاوي ذي القرنين في الرسم المصري.

١٠- راجع: سليم حسن -مصر القديمة- عدة أجزاء طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب -١٩٩٢.

١١- راجع: نجيب ميخائيل إبراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم -عدة أجزاء- دار المعارف -الطبعة الثالثة ١٩٦٦.

١٢- نجيب ميخائيل، وكذلك في العهد القديم: ملوك أول ــ أرميا ــ هوشع.

١٣- الموت والحياة أمران يهتمّ بهما الإنسان منذ القديم، ويرفض الإنسان فكرة الفناء الأبدي؛ فجاءت الأديان وأيّدت ذلك الرفض، وتحدّثتْ عن عالم آخر... واستمرّت فكرة "البعث والثواب والعقاب" ليس لمجرّد أن الناس يؤمنون بها، بل للقيمة الأخلاقية والاجتماعية لها... وقد سبق المصريون إلى الإيمان بالبعث والثواب والعقاب، وتثبت الاكتشافات تأثُّر حضارات البحر الأبيض والهلال الخصيب باللاهوت المصري، بل وُجِدَت تعاويذ الحفظ والإحياء المصرية في مساحات شاسعة في الشرق الأدنى... والمردِّدون "الشوباش" تماثيل مصرية صغيرة يفترض أنها تردِّد الدعاء من أجل الميت.. ولا تزال كلمة "شوباش" على ألسنة العامة في مصر تذكِّرنا بتماثيل المردّدين القديمة أو "الشوباش".

١٤- راجع: نجيب ميخائيل وسليم حسن حول الدين، والعبادات، والطهارة، وماء الوضوء، وتحريم أكل السمك والخنزير على الكهنة.

١٥- كان المجمع المقدس ومحكمة تحوت مسئولين عن الجنايات وبخاصة القتل، وكان أهل القتيل يهبون المعبد ثورًا يأكل منه الكهنة ويضربون ببعضه جثة القتيل فتعود إليها الروح وتخبر الكهنة بالقاتل.. وأخذ بنو إسرائيل ذلك عن المصريين (وقصّتْ ذلك سورة البقرة في القرآن الكريم).

١٦- أرض الشمال وأرض الجنوب.

١٧- "القلب" في المدوّنات المصرية إشارة للفكر الواحد والانتماء لتاسوع إلهي واحد، واللسان إشارة لوحدة اللغة، وهي من أهم عوامل وحدة مصر القديمة.

١٨- بقيت عبارة "سكان الرمال الحمراء" في العصور التاريخية المصرية، كأثر من آثار الإشارة إلى بدو الصحراء الشرقية وسيناي الذين تعوّدوا -في عصور ما قبل التاريخ- الإغارة على وادي النيل.

١٩- بيروت، بائيروت -وتعني "الآبار" في اللغة الفينيقية القديمة، وهي لغة سامية.

٢٠- "إرواد" مدينة مثلثة، وربما كانت أصل طرابلس الحالية؛ حيث إن "ترى بولس" في الإغريقية تعني المدينة المثلثة.

٢١- الإله "مولوخ" (أو مالك؟!) كانت تـقـدّم له تضحيات من الأطفال والغلمان (أحـرق على مذبحه مائتا غلام أثناء حصار قرطاج سنة ٣٠٧ ق.م ــ راجع نجيب ميخائيل).

٢٢- البغاء المقدّس، والتضحية بالبكارة بالنسبة للبنات، والخصي بالنسبة للذكور والرهبان أمور مشهورة عن ببلوس والساحل الفينيقي في العصر السحيق (نجيب ميخائيل).

٢٣- راجع نجيب ميخائيل –مصر والشرق الأدنى القديم.

٢٤- أرض الآلهة: أرض مصر.

٢٥- الحمر: لفظ أطلقه المصريون على الفينيقين (نجيب ميخائيل).

٢٦- حمار الجبل "هور آس" في المصرية القديمة والسامية القديمة وهو الحصان.

٢٧- "إمسوحا" منطقة التماسيح، وهي الفيوم حيث تمتلئ بحيراتها بالتماسيح في ذلك الزمان... "إمسوح" هو التمساح في اللغة المصرية، وحيث إن العرب لا تماسيح في أرضهم، فإنهم استخدموا اللفظ المصري مع تحريفه بتجميد "تا" التعريف المصرية في اللفظ فصار "تمساح" (راجع لويس عوض ــ مقدمة في فقه اللغة العربية).

٢٨- ليكو: أسيوط الحالية؛ وهذه هي تقسيمات ما قبل الأسرات؛ واستمرت بعد ذلك، وأشار إليها: ديودورو الصقلي، وبلوتارخ، وهيرودوت، ومانيتون وجوزيفوس (جون ويلسون ــ جيمس هنري برستد).

٢٩- آبو أو أمبوس هي الفنتين بالتسمية البطلمية الإغريقية، والتسمية المصرية والإغريقية مشتقة من الفيل في اللغتين.

٣٠- ٣١- راجع الشرائع المصرية وتنظيم الإدارات في الدولة القديمة (كأثر من آثار عصر ما قبل الأسرات) عند سليم حسن (مصر القديمة) جيمس هنري برستد (فجر الضمير) نجيب ميخائيل (مصر والشرق الأدنى القديم) فوستيل دي كولنج (مصر في العصر العتيق).

سِفْر أوزيريس

الإصحاح الأول

"إن أوزير هو ابن الآلهة حقًا، إنه سليل رع ربّ الأرباب، وسليل بتاح الإله الخالق الصانع، وسليل أتوم الذي هو رع، والذي خلق نفسه بنفسه، إن أوزير هو ابن تحوت؛ ولهذا ينطق بحكمته". هذا ما قاله "ساكبو" أمام "باورعا" و"بيبي" وجميع المبجَّلين في معبد عين شمس، الذي صار (معبد كل الآلهة ومعبد كل الجبتيين).
ورد "باورعا": "إن أوزير ليس فقط ابن الآلهة، بل إنه أيضًا تلميذ الآلهة، إن "جبَّار" رسول جنة الآلهة، ذا الأجنحة الذهبية، يهبط في أوقات محددة بأمر من الآلهة فيرقى إلى جنة الآلهة ومعه أوزير، فيجلس أوزير مع الآلهة ويتعلَّم منهم، ويتعلَّم من معاونيهم من الملائكة، تعلَّم من الإله بتاح ومعاونيه صناعة ورق البردي والأحبار، وتعلَّم من إله "القدر والحظ" ومعاونيه طريقة الكتابة وحروفها. وتعلَّم الحكمة من مجلس تحوت وملائكته، وتعلَّم البناء بالأحجار من الإلهين "جب" و"بتاح".. ومعاونيهم من الملائكة بناة قصور الآلهة من الأحجار الكريمة في الفردوس؛ ومنهم أيضًا تعلَّم قَدّ المسلات؛ إذ إن كل إله له مسلة قُدّت من حجر واحد من أحجار الجنة، لتقف كرمزٍ لكل واحد من التاسوع؛ مسلة من حجر الماس، مكلَّلة بهرم صغير من الذهب لرب الأرباب رع، تقف شاهدًا للطريق المؤدي إلى فردوسه، ومسلة من الياقوت ذات بِنْبِنٍ [1] أو هرم صغير من الذهب، تلمع في مطلع طريق النور المؤدي إلى فردوس أتوم... لقد تعلَّم أوزير في الفردوس كل أسرار الآلهة... تمامًا كما تعلَّم جده "جبتو مصرايم" في بداية التكوين، أسرار القلب واللسان [2] من آبائه الآلهة".

وعقَّب "بيبي" قائلاً: "مَنْ كان يتصوَّر أنه في الإمكان بناء المعابد ومحاكم تحوت وحتحور من صخور الجبل؟! إنها بنايات لا تستطيع الأيام أن تؤثِّر فيها" [3].

وقال أحد المبجَّلين: "إن المسلة التي قُدّت من صخرة واحدة، لتدل على عظمة أوزير، الذي علَّمته الآلهة، وإن البِنْبِن الذهبي في أعلى المسلة، يستقبل أول سهام رع الذهبية التي يرسلها إلى معبده، ويرسل معها بركته وبركة التاسوع الإلهي إلى "جبتانا" أرض المصريين... إن بركة التاسوع تحلُّ علينا بفضل أوزير العظيم".

صمَّم أوزير أول مقبرة حجرية في عين شمس. وأشرف هو ومعاونوه على بناء تلك المقبرة، وألحق بها مائدة قربان، ومذبحًا للأضاحي، وبابين وهميين مقدَّسين لدخول "الكا" و"البا" [٤].

وبوحي من التاسوع، وسَّع أوزير "دار المرضى" وألحق بها عددًا كبيرًا من الكهنة والأطباء والمساعدين والسحرة القادرين على التعامل مع الأرواح الشريرة [٥]... كذلك أُقيمَت مدرسة "التاسوع المقدَّس" لتعليم القراءة والكتابة، وتدريس وحي الآلهة وأفكارهم والأقوال الحكيمة التي صدرت عنهم... وألحق بهذه المدرسة أروقة وبيوتًا لسكنى التلاميذ والشمامسة وصغار الكهنة [٦].

أُعيدَ بناء محكمة تحوت بالأحجار المنحوتة، كذلك أعاد الناس بناء بيوتهم بالأحجار أو اللبن، ولم يعد أحد يقيم في تلك الكهوف، التي كانت في القديم مأوى لمسوخ أبي الهول والأوثان وبقية شياطين الظلام... واهتمامًا بالتبادل التجاري بين مصر وببلوس، أقام أوزير دارًا ضخمة لاستضافة التجار والزائرين قريبًا من مرفأ عين شمس.

مع آخر أيام مسرى، رحلت أول بعثة تجارية إلى ببلوس وفينيقيا... سبعة سفن ضخمة من ذوات الأشرعة السبعة، تتبعها عدة زوارق خفيفة مدججة بالجنود للحراسة... والسفن السبعة محمَّلة بأدراج البردي، وجرار الأحبار السوداء والحمراء، وعدة آلاف من غرارات القمح، وكمية من ذهب النوبة، وكميات من جرار الجعة والعسل ونبيذ البلح، وغرارات الملح والنطرون، وأعداد كبيرة من تماثيل الشوباشي [٧] والجعارين الحافظة والتعاويذ المقاومة للشرور والأعداء.

مع أول أيام تحوت (توت) بدأت مراسم إعادة دفن "دان" و"جبتو" في المقبرة الحجرية الجديدة في عين شمس... أمر أوزير باستخراج جثة دان من قبره في منف... وجثة جده "جبتو" بن "جبتو مصرايم" الذي هو من نسل الآلهة... وأُعيدَ تحنيط الجثتين... وفي حفل جنائزي ضخم، وبحضور ممثِّلين من كل المقاطعات ومن معابد الشمال والجنوب، وباشتراك جميع المبجَّلين والقوَّاد والوجوه... جَرَتْ -في البداية- مراسم فتح الفم، ثم مراسم الخلود في التابوت، ومراسم تعريف الكا والبا بالجثة المحنَّطة... وحُمل التابوتان على زحافتين تجرُّهما الثيران... وفي المقبرة الحجرية قام باورعا بتلقين [٨] دان قبل أن يُوارى في القبر فقال: "... سوف تُشدُّ لك "الصراطا" بين الجبلين في الغرب... فلو كان قلبك مليئًا بحبِّ الناس فسوف يكون مصيرك

"بارادويس". التي هي بيت النعمة. ولو كان قلبك بعيدًا عن حبِّ الناس فسوف يكون مصيرك "جي هنوم" التي هي وادي العذاب... قل لتحوت وبقية الآلهة المشرفين على الحكمة: إنك تحبُّ الناس. وتحمل عنهم أحمالهم. ولم تؤذِ أحدًا. ولم تأخذ شيئًا عنوة من أحد. قل لتحوت وبقية التاسوع إنك تستحق جنة الآلهة. بل جدير بأن تكون واحدًا من الآلهة الخالدين فتأكل من طعامهم وتشرب من شرابهم". وأعقب ذلك ترنيمات مقدّسة ردّدها كورال المنشدين والمنشدات من الشمامسة وبنات المعبد[٩].

ثم وقف ساكبو. يلقّن جثة جبتو بن جبتو مصرايم. الذي هو من نسل الآلهة ويقول له: "قل يا جبتو [قل لتحوت رئيس محكمة التسعة. وقل للتنين المقدّس. وآكل القلوب والأكباد. وقل لسامل العيون. وقاطع الألسنة وباقر البطون. قل لهؤلاء جميعًا: لقد كنت راعيًا صالحًا لعشيرتي. وطّدت العلاقة بين عشيرتي والآلهة. ونظّمتُ قرابين الآلهة. وأقمت النصب والمذابح من أجل الآلهة. وحاربت مع عشيرتي لصوص الرمال الحمراء. الذين لا يعترفون بالتاسوع الإلهي. ويغتصبون النساء. ويسرقون الأطفال من آبائهم...] [١٠].

وتردّدت روايات كثيرة عن معجزات وكرامات حدثت حين إعادة دفن "دان" و"جبتو"... فنُقِل عن الكهنة المبجّلين أن جرح "دان" كان لا يزال ينزف حين أُخْرِجَ من تابوته القديم المصنوع من الجميز. فرُدّتْ إليه الكا والبا. وأعادت إليه الآلهة الحياة للحظات. أكّد فيها الوصية المقدّسة لأوزير. كما صبَّ لعناته على ولده "ست".. ويؤكد شهود العيان أن "دان". الذي أحيته الآلهة قال: إن "ست" (أو ستِن كما تعوّد أن يناديه وهو صغير) هو رسول آلهة الغرب والظلام والعواصف...." كما يُقْسِم أهل منف وعين شمس أن دان بمجرّد أن انتهى من وصاياه. خرجت من صدره لمعة من نور. ومن رأسه خرج ما يشبه البرق. ثم تمدّد في تابوته بعد [أن فارقته لمعةُ الكا وبرقة البا].

ويؤكّد الجميع أنهم حين فتحوا تابوت جبتو بن جبتو مصرايم. وجدوا الجثة سليمة كأنها محنّطة في نفس اليوم. وبعد أن تلا المبجّلون مراسم فتح الفم. انتبه جبتو وكلّم الجميع من خلف شرائط الكتان التي تدور حول جسده ورأسه. وقال لهم: "إن حفيدي أوزير. وحفيدي حور سيصلحان السفينة التي يفسدها

ست". وقال أيضًا: "ثم يأتي رجل من ثينا فيتم إصلاح السفينة". ثم خرجت من جبتو لمعة الكا وبرقةُ البا، وتمدّد في تابوت الأرز الجديد.

ولَدَت إيزي ابنها حور مع بداية هاتور، بعد أقل من سنة من رحلة "ببلوس" الأولى، وبعد ذلك بأشهر ولدت نفتي ابنتها نيت... وفي اليوم الثامن من هاتور تم ختان حور على يد الطبيب الكاهن "باورعا"، وقُدِّمت القرابين لرع وحتحور وتوت وبقية التاسوع الإلهي.

كان ست في رحلة صيد شمال عين شمس، وتوغَّل بحصانه إلى تخوم مناطق صيد أتريب، وكان ست يقول في نفسه: "لولا الحصان ما استطعت أن أصل إلى حدود أتريب، وإنها لفرصة أن أقتنص واحدة من الفتيات الأتريبيات الجميلات" وربط ست حصانه في شجرة، وظل يسير متخفيًا بين الأدغال ويتتبع أصوات بنات أتريب... ورأى واحدة منهن تطارد خنزيرًا بريًّا فألقى بنفسه عليها، ثم أمسك بها واقتادها إلى حيث ربط حصانه، لكنه ما إن وصل إلى حصانه حتى فوجيء بشبكة تُرْمَى عليه وتقيِّد حركته، كما فوجيء بعدد كبير من الفتيات الأتريبيات حاملات النبال والسهام... وما كان لسِت إلا أن يستسلم لهن: فاقتدنه على حصانه مكبَّلاً إلى أتريب.

وصلت العدّاءة "نيما" (التي لا يستطيع النمر اللحاق بها) [11] إلى عين شمس، لتبلِّغ رسالة "هاجال" الشفوية إلى أوزير ابن الآلهة... وشعر أوزير بالضيق والحرج مما فعله أخوه، وأيقن أوزير من خلال أقوال عدّاءة البريد "نيما"، أن "هاجال" لن تطلق سراح "ست" إلا إذا حضر أوزير بنفسه واعتذر عن أخيه.

حضر أوزير قبل الغروب ممتطيًا حصانًا أبلق، ومعه كبير كهنة عين شمس، وهو المقدّس "باورعا"، ومعه أيضًا "وان" قائد المائة، وعدد من الجنود والعبيد يركبون حميرهم ويقودون هدايا من المواشي، ويحملون هدايا من الذهب وجرار الجعة لسيدة "أتريب"... وانحنت "هاجال" لأوزير ابن الآلهة، وأحسنت استقبال وفد عين شمس، وذُبِحَت الذبائح وأكرم الأتريبيون أوزير والقادمين معه... بل وقدّموا لأوزير عدّة أثواب من كتان تانيس، وعدّة جرار من العسل... وأخيرًا فكّوا قيود "ست" وسلّموه إلى أخيه أوزير... وأُشْعِلَتْ المشاعل، وودّعت هاجال أوزير ووفد عين شمس حتى نهاية مناطق الصيد الأتريبية.

قالت "نيما" عدّاءة المراسلات لهاجال زعيمة أتريب: "إن أوزير ابن الآلهة حقًا؛ فقد رأيت النور يشعُّ من وجهه، بل إن وجهه هو وجه الإله رع... وكذلك ابنه حور، فقد رأيته على كتف أمه إيزي، ورأيت النور ينبعث من رأسه، كما رأيت أجنحة الملائكة مثبّتةً على كتفيه الصغيرين."

فردّت عليها الزعيمة "هاجال" "إنه حقًا ابن الآلهة، لا بل إنه واحد من الآلهة... (ما الفرق بين الإله والإنسان؟ إن الإنسان يفكّر في أشياء ويستحيل عليه إيجادها، أمّا الآلهة فإن أي واحد منهم إذا فكّر في شيء، فإنه يُوجدُ ويصبح حقيقة واقعة) [١٢] إن أوزير فكّر بقلبه في المحراث؛ فكان المحراث، وفكّر بقلبه في الشادوف؛ فكان الشادوف... وفكّر بقلبه في النحاس؛ فعرف النحاس، وفكّر في القصدير؛ فكان القصدير... وفكّر بقلبه في الاتصال بالحمر في ببلوس وفينيقيا؛ فبدأت الرحلات والتجارة مع أمم تعبد آلهةً أخرى [إن بتاح الذي خلق العالم وكل الأشياء، قد خلق كلَّ شيء بقلبه ولسانه؛ لذلك فهو سيد الصُّناع... إن "نون" سطح المحيط الأزلي قد طفتْ عليه بيضة عظيمة خرج منها "أتوم" الذي تحوّل إلى رع، والذي خلق نفسه بنفسه... فكّر أتوم فعطس ففاض عنه "شو" إله الفضاء، وبصق فوُجِدَتْ "تفنت" إلهة الندى، وزوّج "شو" من "تفنت" فأنجبا "جب" إله الأرض، و"نوت" إله السماء] [١٣]... أنا هاجال مسئولة أتريب أقول: إن أوزير هو حقًا واحد من الآلهة."

الإصحاح الثاني

أقام ست مع أمه تونا، بعد أن أفرجت عنه "هاجال" الأتربية، وعلى الفور، تركت نفتي بيت أمها لتعيش مع ابنتها نِبت في بيت أخيها أوزير وأختها إيزي...

بالرغم من المشكلات الكثيرة التي أثارها ست، فإنه أصر على أن يكون قائد مائة، وعارض "وان" ذلك، إلا أن أوزير استجاب لرغبة أخيه "ست" وعيَّنه بالفعل قائد مائة... وأصرَّ ست -مرة أخرى- على أن يختار جنوده ومعاونيه، وعلى أن ينعزل بهم في جنوب عين شمس قرب المرفأ، الأمر الذي لم يرضِ عنه بقية قوَّاد المائة.

صارت عين شمس، بزعامة أوزير، عاصمة للأرضين: أرض الشمال وأرض الجنوب... وتحوَّلت عين شمس إلى عاصمة كبيرة يقصدها الناس من الشمال والجنوب... مئات السفن والطوَّافات تفد إليها كل يوم، ومن الطرق البرية يصلها الكثيرون على حميرهم أو سيرًا على الأقدام... معابدها تعجُّ بالمصريين في كافة المناسبات، ومدارسها الكهنوتية تضمُّ الآلاف الذين يتعلَّمون الكهانة والطب والكتابة والقراءة والسحر... بل وتوجد أروقة لإقامة طلاب الشمال والجنوب من المغتربين...

جمع أوزير كلّ من له خبرة بالطب والسحر والجراحة في معابد عين شمس، فكوَّن أول مجموعة من "السناتوريا"، أو الدور العلاجية الملحقة بالمعابد [١٤] الأمر الذي أدى إلى اجتذاب المرضى والمؤمنين للمعابد، وابتعادهم عن مقاصير السحرة الزائفين الذين تعوَّدوا على ابتزاز المرضى.

قويت المدن في الشمال والجنوب واتسعت الرقعة الزراعية، وانتشرت الحرف والصناعات، وزادت أعداد الناس... ونظَّم أوزير المقاطعات، فجعل "امسوحا" [١٥] عاصمةً لإقليم "البوصة" وهو الإقليم الشمالي من أرض الجنوب، وأهم مدنه "داشور"، "اللشت"، "ميدوم"، "امسوحا"، "خوس"، "مير" و"حوت نوب"... وجعل "طينًا" أو ثينا عاصمة للإقليم المتوسط، إقليمّ الثعبان، وجعل "طيبا" عاصمة إقليم النسر، والذي يضمُّ مدنًا مثل "أبيدوس"، "داندارا"، "قفطو"، "أسبوس"، "نكّادا"، "طيبا"، "أرمنتو"، "طولو"، "إسنا"، "أدفو"، "بيجا"، "أسوان"، و"فونتينا".

كذلك جعل تانيس عاصمة لأرض النحلة، أرض الشمال... وفرض أوزير على كلِّ مقاطعة إعداد جيش خاص بها للتصدِّي لبدو الصحراء الشرقية، وأعطى حكام المقاطعات حرية في التعامل مع البدو، سواء بالحرب والقهر، أو بالسيطرة والاحتواء والولاء، كما نظم أوزير أول نظام للبريد، يعتمد على العدائين أو راكبي الحمير الذين ينقلون الرسائل الحكومية عبر المدن والمقاطعات.

[أثبت -أنا مانيتون- جزءًا من بردية قديمة تسير مع سياق هذا الإصحاح. تقول سطور هذه البردية: استغلَّت المدن والمقاطعات زيادة أعداد الناس، فنظّمت عمليات التسخير[١٦] وجمع الناسُ للعمل في تجفيف المستنقعات، وتقطيع الغابات والأحراش، لتوسيع مساحة الأرض المزروعة، وكذلك سُخِّرت أعداد كبيرة لشق الترع والقنوات والمصارف... وأصبحت الحبوب المصرية تغزو أسواق بيلوس وفينيقيا، بالإضافة إلى أوراق البردي وثياب تانيس الكتانية والملح والنطرون والتعاويذ وتماثيل المردِّين والأسماك المملحة والحلي الذهبية والفضية والنحاسية والثوم والبصل].

كذلك، فإن الأسواق المصرية امتلأت ببضائع من بيلوس وفينيقيا ومدن البحار والجزائر، من ثياب ملوَّنة، وحلي صِيغَت من الأحجار الكريمة، وزيت زيتون، وفواكه مجففة...

في بداية العام، في شهر توت، أُقِيمَت احتفالات في عين شمس بمناسبة مرور خمسة عشر عامًا على ولاية أوزير، وهو ما يُسَمَّى بعيد "نصف سِد"، حيث إن عيد "سِد" يكون بعد ثلاثين عامًا[١٧]... ورأسَ "باورعا" احتفال المعبد، وقُدِّمت القرابين والسكائب، وفاض منها ما أُعطِي لطلاب المعابد والمدارس والمرضى في "السانوريا" الملحقة بالمعابد... وحضر ممثلون عن المدن والمقاطعات، وأشاد الحضور بأوزير ابن الآلهة... ولم يكن ست حاضرًا، الأمر الذي أثار عدم الارتياح عند أوزير، كما أثار الريبة لدى قواد المئات وإيزي ونفتي ونانا.

جاء عداء من منف يبلغ أوزير أن عدّاء من ميدوم، حضر إلى منف ليبلغ رسالة بأن ست وجنوده، قد أغاروا على قرية للبدو في شرق النيل، وأن هذه القرية متحالفة مع "ياي" ومدينة ميدوم، الأمر الذي أثار غضب "ياي" وأهل ميدوم... وفي اليوم التالي وصل الكاهن "زناو" وقائد المائة "هريدو" ليوضحا ما فعله ست وجنوده، وفي نهاية اللقاء، قال هريدو لأوزير: "أيها المبجَّل أوزير، إن ست وجنوده

الأشرار، حينما يهاجمون قرية البدو بأعلام رع وبتاح، فإنهم يعطون البدو الحق في مهاجمتنا في ميدوم، حيث إننا نرفع نفس أعلام جبتانا.. إن ست لا يقصد إلا الفتنة وإشعال نار الحرب. إن الآلهة لا ترضى عما يفعله ست".

استاء أوزير، وأرسل بعثة استرضاء لياي وأهل منف أولاً. كما أن هذه البعثة استعانت بالمقدّس زناو وقائد المائة هريدو، وذهبوا إلى قرية البدو للاسترضاء ودفع التعويضات المناسبة.

لبّى أوزير دعوة "دِمُو"، أمير طينا ومقاطعة الثعبان، لزيارة طينا. واستغل أوزير مياه ما قبل الجفاف، ورحل في شهر هاتور بسفينته البلوسية، إلى الجنوب ومعه أمه تانا وزوجته وأخته إيزي وأخته نفتي، ونيت وحور وبعض الجنود والعبيد والأتباع.. وكانت جموع المؤمنين بالإله أوزير ابن الآلهة، تراقب مجرى النيل، عسى أن تحظى بإلقاء نظرة على سفينة الإله ابن الآلهة.. وحدثت معجزات كثيرة، رواها كثيرون من الذين قضوا ليالي على شواطئ النيل يتابعون أخبار الإله أوزير.. تؤكّد روايات متواترة أن الإله حابي إله النيل، كان يحيط سفينة أوزير برعايته، فقد كان يدفع بالمياه بشادوفه المقدّس فيمتلئ المكان الذي تسير فيه السفينة المقدّسة بالمياه.. وتؤكّد روايات أخرى أن السفينة المقدّسة كانت، إذا ما أشرق القمر، تطير فوق سطح المياه، وكأنها فراشة من فراشات جنة الآلهة التي يتحدّث عنها الكهنة والعالمون بالأسرار.. وروايات أخرى تؤكّد أن تاسوع الآلهة كان يرافق السفينة المقدّسة.. حيث ظهر الآلهة في صورة طيور من الذهب والياقوت والزمرد والعقيق، تحيط بهم هالة دائمة من النور في الليل، وغمامة ممطرة من السحاب بالنهار(١٨).

اُسْتُقْبِل أوزير استقبال الآلهة في طينا، فقد خرج لاستقباله جموع حاشدة من السلالة الجبتية المصرية.. وكان على رأس المستقبلين في مرفأ طينًا الأمير "دِمو" وزوجته الأميرة "نِفَر" وابنهما الأمير مينا، وقائد المائة ساميدو، والكاهن الأكبر "سبهو".

[وأثبت -أنا مانيتون- كاتب أسفار التكوين المصرية، أجزاءً من بردية قديمة منقولة عن نقوش حجرية من عصر الإله أوزير، تستقيم مع السياق.. تقول سطور البردية: ... بعد أن أُسْتُقْبِل أوزير في معبد طينا وفي القصر الملكي، خرج، تحفّ موكبه هالة من الآلهة في صورة طيور من الذهب والزمرد والياقوت

والعقيق، مغلّفة بغمامة ممطرة... زار أوزير وموكبه الجبانات الغربية، في طينا وأبيدوس وسوهاج وبانابوليس، وأفصح أوزير عن إعجاب الآلهة بالمقابر الحجرية الجديدة المبنية من مصطبة واحدة أو مصطبتين.. وعبّر عن وعد الآلهة بحفظ الكا والبا للمدفونين في هذه المقابر[١٩] بشرط أن يتمّ التحنيط وكافة الطقوس بحسب الشرع المقدّس... كذلك أفصح أوزير عن إعجاب الآلهة بالمسلات التذكارية وبالأهرامات الصغيرة (البِنْبِن) الذهبية في أعلى تلك المسلات...]

اضطر أوزير إلى الرحيل على عجل إلى عين شمس، تاركًا أسرته المقدسة تقضي الشتاء في طينا، في رعاية الأمير دِمو وزوجته الأميرة "نِفَر"... إذ جاء العدّاءون من الشمال، بأنباءٍ عن مشاكل كثيرة أثارها "ست" مع أهل تانيس، وسايس وأتريب وسبينيتوس.. وعن مشاكل أخرى افتعلها مع قواد المائة وخصوصًا "وان".

وصل أوزير، وعُقد اجتماع في مبنى محكمة تحوت، حضره الكهنة المبجّلون والوجوه وقواد المائة وبعض الجنود والأتباع والنوبيون... وقال "وان": "إن ست يحاول إثارة الفرقة والإساءة إلى وحدة الأرضين ووحدة كل الجبتيين..." وقال "باورعا": "إن ست يسيء إلى التاسوع المقدس، ويسيء إلى روح والده دان، ويشكك في اختيار الآلهة لابنها المقدس أوزير." وتدخّل أحد الأنصار القدامى لـ "دِبْحِن" وموبي فقال: "لا ننسى أن السيد ست هو ابن السيد دان، وأنه -مثلنا- حريص على وحدة الأرضين، ووحدة كل الجبتيين": فردّ باورعا على "زندر" الذي هو من بقايا عصر دِبْحِن: "أيها المبجّل زندر، إننا نتحدّث عن الأفعال، لا عن النيات؛ وإن السيد ست قد أساء بأفعاله إلى العلاقات بين المقاطعات، كما أنه يتعمّد الإساءة إلى قدسية أخيه أوزير".

وانتهى الاجتماع بنزع كل سلطات ست العسكرية، ووضع كل السلطات في يد أوزير وقواد المئات.

كان الفيضان في العام السادس عشر من حكم أوزير وتوحيده للأرضين عارمًا، حتى أن سفينة أوزير البيلوسية، والتي عليها آل بيته، قد عادت من طينا في خمسة عشر يومًا من شهر أبيب... وبعد أن وصلت السفينة بعدّة أيام، توفيت تونا زوجة دان الأولى وأم ست.. وبعد مراسم الدفن، قالت تانا أم أوزير لولدها المقدّس: "لازلت أذكّرك بالاحتراس من ست وأتباعه الأشرار والضالعين

معه من أمثال جبجا وزِندر... يا بني إن الروح إذا كانت مريضة فسوف تدمِّر صاحبها، بل وتدمِّر ما حوله... إنّ مَنْ تغضب عليه الآلهة يصبح لعنةً على نفسه وعلى غيره". ورد أوزير على نصيحة أمه بابتسامة تعبِّر عن الكثير من المرارة والحزن.

بعد توزيع هدايا "دِمـُو" على الكهنة المبجَّلين وقواد المئات والوجوه. قالت إيزي لأوزير: "إن الأمير دِمـُو والأميرة نِفـُر، وكلّ أهل طيبنا. قد أكرمونا غاية الإكرام، ليس فقط بالمعاملة الطيبة وحسن الاستضافة والهدايا، بل إن الجميع هناك يثقون في بنوّتك للآلهة، وفي المعجزات الكثيرة التي تمّت على يديك... إن المبجَّل سِبْهو الكاهن الأعظم لطيبا، قد جعلك في الصلوات الجماعية واحدًا من الناسوع المقدس... إن المبجَّل سبهو يؤكِّد أن أحد الذين عادت لهم البا [20] بعد الوفاة، والذي استحياه الكهنة للشهادة في جناية قتله، قد ذكر للمبجَّل سبهو وكهنة الشهادة، أنه رأى أوزير إلهًا مع الآلهة، في محكمة تحوت السماوية، يأكل ما يأكلون، ويشرب ما يشربون.."

الإصحاح الثالث

في العام السابع عشر من ولاية أوزير، تأكّدت سيطرة الإله أوزير على الشمال والجنوب، وصار أوزير ملكًا وإلهًا لكل الجبنيين. وفي يوم منتصف مسرى، احتُفِل في المعبد بتكريس أوزير إلهًا، وملكًا وضع الكهنة على رأسه المقدّس التاج المزدوج لأرض الشمال والجنوب، وصاروا ينادونه باسمه المقدّس أوزيريس [21].

وفي نفس اليوم، منتصف مسرى، أُقيمَ الاحتفال السنوي بعيد "وفاء حابي" [22] حيث قُدِّمت القرابين والمحرّقات على مذابح جميع المعابد، وخصوصًا معبد العاصمة في عين شمس... وكان الإله أوزيريس في أوج سعادته؛ حيث كان يستضيف "دمو" أمير طينا وإقليم الثعبان، ترافقه زوجته "نِفَر" وابنه الصغير "مينا" و"سامبدو" قائد المائة... زُيِّنت المراكب البيلوسية المصنوعة من أرز لبنان، والمراكب المصرية المصنوعة من السنط المصري، وامتلأ النيل عند عين شمس بالأرماث والطوّافات والسفن. كما امتلأ جو المكان بروائح زهور اللوتس وسيقان الريحان، فضلاً عن البخور الذي يتصاعد دخانه من مجامر الكهنة ليصعد إلى الآلهة في الأعالي... وسكرت الرءوس والآذان بترنيمات الكهنة وكورال الشمامسة، والأصوات الحالمة الصادرة عن عازفات الناي.

اختار الكهنة الأميرة "نيت" ابنة "نفتي" (التي صاروا ينادونها نفتيس)؛ حيث إن "نيت" لا تزال بكرًا لم تعرف الرجال. اختاروها لإلقاء عروس النيل... ركبت "نيت" سفينة الكهنة، بعد أن تطهّرت في بيت التطهير المزدوج، وركبت معها الضاربات بالدفوف وعازفات الناي... وفي منتصف المسافة بين الشاطئين، قدّم الكهنة عروسًا نُحِتت من خشب الجميز [23] بملابسها الكتانية الزاهية، وحُليها الذهبية والفضية والنحاسية اللامعة، وعلى رأسها التاج المزدوج للأرضين... وما إن أوقف الكهنة عروس النيل على حافة السفينة حتى ضج المحتفلون على الشاطئين وفي السفن والطوّافات والأرماث بالهتاف والتهليل... ثم تقدّمت نيت، وقبّلت عروس النيل ودفعتها لتسقط في المياه الحمراء المتدفقة؛ فازداد الهتاف والتهليل، مختلطًا بدقات الطبول والدفوف وترنيمات الكهنة المرتلين.

في المساء، وفي شرفة قصر أوزيريس العلوية، جلس أوزيريس وإيزيس ونيت ونفتيس وحوريس وتانا، وجلس معهم "دمو" أمير طينا وإقليم الثعبان، وزوجته

الأميرة "نِفُر" وابنهما "مينا". وعدد من الأتباع والعبيد والخدم من طينا وعين شمس... وبعد أن أكل الجميع وشربوا... انتحى "دمو" جانبًا بأوزوريس، وطلب منه توثيق علاقة الجنوب بالشمال، بأن يقترن الأمير "مينا" بالأميرة "نيت" ابنة أوزيريس في العماد؛ فابتسم أوزيريس مجاملاً لدمو، واستمهله حتى الصباح.

تردّد أوزيريس في قبول عرض "دمو"، وبعد أن تطهّر، صلى صلاة المساء ثم استلقى في معتكفه في جانب من الشرفة العلوية.. وزاره تاسوع الآلهة، وعلى رأسهم رع وأتوم وتحوت... وناب تحوت عن التاسوع السماوي وقال لأوزيريس: "عليك أن تزوّج ابنتك نيت بنت نفتيس من "مينا" بن "دمو"، ولا يكن في قلبك حرج من جهة ولدك حورس؛ لأن آلهة القدر لم تجعل نيت من نصيبه... إن تاسوع الآلهة، وآلهة القدر، جعلت لحورس مصيرًا آخر... وإن الفتى "مينا" سوف يشترك مع حورس وآخرين في إصلاح السفينة التي سوف يُعطِبها ست...".

استيقظ أوزير في صباح ذلك اليوم من مسرى مبكرًا، حيث كان الضباب مخيّمًا على المدينة المقدسة، وكان أوزير مشغولاً بالرؤية التي رآها في منامه، ويقول تحوت عن مينا: "إنه سوف يصلح السفينة التي أعطبها ست، وبأن حورس قد أعدّت له آلهة القدر والتاسوع المقدس مستقبلاً آخر، كما أنه لا يريد أن يقترن بنيت".

انتبه أوزير لدخول أمه تانا، وزوجته إيزي، وأختها نفتي، وبنت أختها نيت، التي هي ابنته في العماد. فقال لهن أوزير ابن الآلهة: "أشكر الآلهة على حضوركن مبكرات، فقد شغلني أمر خطير" وسكت لحظةً فرأى الاستطلاع يطل من وجوههن. فأكمل: "طلب الأمير دمو، أن يُوَثق اتحاد الجنوب مع الشمال بزواج ابنه الصغير مينا من المقدسة نيت... ولمّا كنت معتقدًا أن نيت من نصيب حور، أمهلتُ دمو في الردّ حتى الصباح..".

قالت تانا: "إن الأميرة نِفُر طلبتْ مِني ومن إيزي نفس الطلب؛ ولمّا كنا نعتقد أن حور يريد نيت لنفسه، أجّلنا الرد عليها حتى نلقاك، وحتى نستطلع رأي حور" وأشارت تانا لإيزي أن تكمل. فقالت إيزي: "استيقظت قبل شقشقة الطيور، واتجهت إلى حيث يرقد حور، لأتحدث معه في الأمر، فوجدته مقبلاً للحديث معي، وكان مما قاله لي: "زارني في النوم تاسوع الآلهة، وتكلّم تحوت بلسانهم، وأفهمني أن الآلهة أعدّت لي قدرًا خاصًا، وأن نيت لن تكون امرأة لي، بل ستكون

امرأة لصديقي الأمير نارمر مينا. وفي نهاية الحُلم ألبسني جبار خادم الآلهة أجنحة ذهبية وأطعمني وسقاني من طعام وشراب الآلهة".

قال أوزير لأسرته المقدسة: "إذا كانت جبتانا أي أرض مصر، هي أرض الآلهة، فإن بيتنا، بيت جبتو مصرايم، هو وريث حكم الآلهة، الذين سبق أن حكموا الأرضين. لقد زارني التاسوع المقدس أمس، وأمرني تحوت، نائبًا عن الآلهة، بأن أزوّج نيت ابنتي في العماد، وابنة نفتي من الأمير نارمر مينا. وأخبرني بأن ولدي حور، قد أعدت له الآلهة قدرًا خاصًا... بل وأخبرني تحوت أن الفتى مينا، بعد اتصاله بالدم الإلهي بالزواج من نيت، سوف يصير مقدسًا، ويعيش خمسة أعمار، ويُصلح السفينة التي يعطبها ست".

دُعِي وجوه عين شمس للإفطار مع عائلة عين شمس المقدسة. حضر الإفطار المقدس "باورعا" و"وان" وعدد من قواد المائة. كما حضر ست في معية المقدس "زِنْدَر" (آخر بقايا دِبنْحِن وموبي)... وحضر الإفطار وفد طينا بزعامة دِمُو، والأميرة نِفَر وابنهما نارمر مينا، وقائد المائة ساميدو، والكاهن الأكبر سبهو... وبعد الإفطار، جلس الجميع يتحادثون... وكان أوزير -باعتباره إلهًا أو ابنًا للآلهة -لا يميل إلى كثرة الحديث؛ ولهذا قال دمو موجهًا الكلام لأوزير: "أيها المقدّس أوزير، يا مَنْ تجري في عروقك دماء ملكية إلهية، ويا مَنْ تأكّدت قداستك بزواجك من المقدّسة إيزي، وهي أختك التي تجري في عروقها نفس الدماء الملكية الإلهية، يأيها الإله الذي يسير بيننا ويوحّد أرضنا: إن الآلهة وأبناء الآلهة لا يحتاجون - مثلنا نحن البشر- لوقت طويل للتفكير... إن الآلهة، وأبناء الآلهة، تنطق ألسنتهم مباشرة بما يدور في الصدور...".

فردّ المقدّس أوزير: "نطقتَ بالحق، أيها الأمير دمو، فالآلهة لا تحتاج لوقت للتفكير، فإن ما يفكّر فيه الإله بقلبه ينطق به لسانه، بل أحيانًا يخلُق الإله مخلوقاتٍ بعينها بمجرد تفكير القلب فيها، ونطق اللسان بأسمائها... لكنْ، بالنسبة لي، فقد تعوّدت أن أستشير الآلهة في كل أموري؛ ذلك لأن بيت جبتو مصرايم من نسل الآلهة، الذين سبق أن عاشوا وحكموا أرض مصر... لقد زارني التسعة المقدسون، وتحدث تحوت بلسانهم، وبارك زواج نيت بالأمير نارمر مينا، واعتبره زواجًا بين الأرضين، بل ورفع التسعة من شأن الأمير نارمر مينا بهذا الزواج

من بيت الآلهة، ووعد التسعة الأمير نارمر بخمسة أعمار من أعمار البشر؛ وذلك لأنه بزواجه هذا يصير نصف إله".

ابتهج الحضور بإعلان أوزير عن رغبة الآلهة، وظهر السرور على وجوه الجميع، خصوصًا "دمو" أمير طينا، الذي ضمن بهذا الزواج صعودًا لبيته إلى مصاف بيت الآلهة في عين شمس.. إلا تانا والدة أوزير، فقد بدا على وجهها شيء من التفكير العميق ممزوجًا بالضيق، فقد نظرت في وجه ست، فوجدت عدم الارتياح مرسومًا عليه، ولمحته يتبادل نظرة مريبة مع المبجَّل "زندر"، آخر أنصار "دِبْحِن" و"موبي".

طار العداءون على أرجلهم، وناقلو الرسائل على الحمير من مدينة لأخرى؛ لكي يصل الخبر إلى جميع مدن الأرضين، وجميع حكام الأقاليم، بأن الزواج المقدس بين أميرة بيت عين شمس والأمير الشاب نارمر مينا، قد وثَّق العلاقة بين أرض الشمال وأرض الجنوب [وأسجّل أنا مانيتون من المتون المصرية القديمة ما يتفق مع السياق: قويت مصر بوحدتها، وصار النوبيون والأثيوبيون يخشونها، كما صار سكان الرمال الحمراء لا يفكِّرون في الإغارة على الجبتيين، كذلك صار الحوريون والقادمون من البحر الأخضر يخشونها ويدينون لها بالولاء.. وصار التجار من كل لون، يفدون إلى مدن الشمال، بل وإلى عين شمس.. وتعدَّدت أشكال السيوف والدروع التي يستخدمها المصريون].

بعد رئاسة ست لإدارة القوافل والعشور [١٤] زادت أمواله وكثر عبيده وجنوده والمسخرون في مزارعه ومراعيه وحظائره، وبنى لنفسه قصرًا من الحجر يفوق قصر أوزير ومعبد عين شمس.. وذات مساء قالت تانا لأوزير: "يا ولدي مَنْ يغضب لسبب ما، يزول غضبه بزوال السبب، ولكن القلب المريض المليء بالضغينة والحقد الذي لا سبب له، لا يمكن أن يُشْفَى.. احترس يا أوزيريس من ست فإن قلبه مليء بالضغينة والحقد... إنه عدوك مثلما يعادي الشر الخير، ومثلما يعادي الظلام النور.." وبالرغم من تأثُّر أوزير بكلام أمه، إلا أنه لم يأخذ بتحذيراتها، ولم يأخذ أيضًا بتحذيرات "وان" قائد المائة... كذلك حذَّره المبجَّل "باورعا" كاهن عين شمس من عصابة "ست" و"زندر"، وذكَّره بما قاله تحوت في الرؤيا عن "ست وإعطاب السفينة"، إلا أن أوزير ظل يعامل ست معاملة الأخ لأخيه؛ ثقةً في وعد الآلهة.

في أيام النسيء من آخر السنة الجبتية [١٥] وقبل شهر الآله تحوت [٢٦] تمت الاحتفالات في عين شمس، وكُلِّلت نيت في المعبد زوجةً للأمير "مينا نارمر"، ابن الأمير "دمو" أمير طينا، وذلك بحضور ممثلين عن المدن وعن الأقاليم، بل وبحضور عدد من أتباع آلهة ببلوس والساحل الفينيقي، وبعض تجار الجزر في البحر الأخضر...

في السفينة البلوسية ذات الأشرعة السبعة، والتي أهداها أوزيريس (الذي هو أوزير) للأمير الصغير نارمر مينا، رحل "دمو" أمير طينا وأمير مقاطعة الثعبان وابنه وزوجته و"نيت" والوجوه والجنود والعبيد والخدم في اتجاه أرض الجنوب... وقد زادت ثقة الأمير دمو في نفسه، وفي سيطرته على جميع أقاليم الجنوب؛ فقد صار ابنه مقدَّسًا بزواجه من بيت الآلهة في عين شمس، وظل "دمو" يردد بينه وبين نفسه أن ابنه صار من أنصاف الآلهة، وأن تحوت، حكيم الآلهة والمتحدث باسمها، وَعَدَه بخمسة أعمار من أعمار الفانين؛ أي أن "دمو"، ضمن أن يستمرَّ حكم ابنه قرابة ثلاثة قرون. [٢٧]

الإصحاح الرابع

في صباح يوم من أيام توت، صعدت إيزي إلى شرفة القصر لتطمئن على أوزير، فوجدته قد انتهى من قداس مشرق رع، ثم ما لبث أن رفع يديه في اتجاه رع فوق الأفق الشرقي، مرددًا سورتا [٢٨] جده جبتو سليل الآلهة، فرددت هي نفسها تلك السورتا التي يحفظها الجميع: [أثبت أنا -مانيتون- تلك السورتا المسجَّلة في البرديات، وفي متون الأهرام ومتون التوابيت، وعلى قطع الأوستراكا، التي كان التلاميذ يتدرَّبون على الكتابة عليها.. تقول السورتا: أي رع العظيم الذي أخفتك أمك حتحور في الأفق الغربي، لتولد من جديد مع مشرق كل صباح.. أيتها الآلهة المقدّسة التي هجرت الأرض إلى السماء، لك المجد ولك الحمد؛ فأنت أيتها الآلهة قضيت على التنانين ووحوش أبي الهول والمسوخ وشياطين الظلام.. أنت أيتها الآلهة -أعطيتنا الأمن حتى زاد عددنا فصرنا كنجوم السماء ورمال الصحراء.. وأعطيتنا الطعام فقد عرفنا القمح، وصنعنا منه خبزنا وشرابنا.. أنت وهبتنا الحكمة المقدسة وفاتحة تعاليم آتون والقانون العظيم، حتى تستقيم بنا الأرض، مثلما استقامت الآلهة في السماء.. أيتها الآلهة المقدسة صانعة أقدار الناس، وواهبة الدفء والحرارة، والماء والمطر والقمح والصيد.. لك المجد في الأعالي].

انتبه أوزير لحضور إيزي، وبعد أن ردّ على تحيتها قالت له: "أي أزوريس [٢٨] العظيم، يا ابن الآلهة.. إن ابننا "حورس" في حاجة إلى التريُّض والراحة.. لقد أرهقته معك في متابعة أعمال ما بعد الفيضان، وفي إرساله كعداء بالرسائل إلى مدن وقرى أرض النحلة. إنه سليل الآلهة، ويحتاج إلى الراحة للتأمل والتريض ردّ أوزوريس: "طالما أن حورس سليل بيت الآلهة؛ فعليه أن يعمل ويعطي كما تعطي الآلهة... إنني فخور به فقد نطق بكثير من الحكمة التي لا تصدر إلا عن الآلهة.. أمس وفي اجتماع المشرفين على حفر الترع ونزح المياه بالشادوف، كان في حكمة تحوت، وفي مهارة بتاح، إذن عليه أن يعمل ويعمل... ومع هذا فليخرج اليوم مع معاونيه وعبيده وخدمه، في رحلة صيد للشواطئ الشرقية من منف".

في آخر النهار دُعِي أوزيريس إلى قاعة تحوت، التي هي قاعة القضاء في المعبد الكبير في عين شمس؛ فقد حدث اشتباك بين ابنه حورس وأتباعه من جهة، وبين أخيه ست وأتباعه من جهة أخرى.. وفهم أوزيريس أن الصدفة هي التي

جمعت بين أخيه ستن وابنه حورس وأتباعهما في الصيد من الشاطئ الشرقي لنف... إلا أن حورس قال بعد أن سمح له المقدَّس باورعا بالحديث: "لم يكن الوجود في نفس الأحراش صدفة. فقد رأيت عمي ستن يحرِّض جارته على اللحاق بنا... ولم يكن هناك مبرِّر للخلاف. فالخنزير البري الذي ادعى عمي أن أتباعه أولى به. هو في الحقيقة من حقي أنا وأتباعي... ومع هذا. فبمجرَّد أن صاح أتباع عمي ستن يريدون الخنزير وبه سهم من سهامي. أمرت أتباعي بتركه لهم. إلا أن عمي ستن. الذي سارع بنزع السهم. أصرَّ على الاشتباك والعدوان هو وعبيده على أتباعي.. فاضطررنا للدفاع عن أنفسنا... ولولا أن لعمي ستن حق الأبوة..." وسكت حورس حينما أشار إليه والده أوزيريس بالسكوت... وقال باورعا الحكيم الكاهن وكأنه يشير إلى ستن: "ليس هناك ما يمكن عمله حيال مَنْ لا يوثق بكلمته... [مَنْ يغضب لسبب ما يزول غضبه بزوال السبب. ولكن القلب المريض بالضغينة والحقد لا يمكن أن يشفى]".

وأضاف الحكيم باورعا موجِّهًا الحديث إلى حورس وأوزيريس: "[الفضائل لا تعد فضائل عند مَنْ لا يقدِّرونها. وعندما يلمسها مَنْ يفتقر إلى الفضيلة تصبح رذائل. ومائة فضل تضيع بين اللئام... الهبة تضيع عندما تُقدَّم لمَنْ لا يستحقها. والخير يضيع عند رجل لا ينطوي قلبه على خير... وجدير بمَنْ يطمئن إلى بيت رأى فيه ثعبانًا. أن يلدغه ذلك الثعبان]" (٢٩)

كان أوزيريس يسمع تلميحات باورعا وهو واجم صامت؛ إذ كان متيقنًا من صدق ولده حورس. بقدر ما هو متيقن من كذب ستن وميله إلى الشر وكراهيته لولده حورس... بل إن ست سارع بصفع أحد أتباعه؛ لأنه أيَّد صدق كلام حورس... وفي النهاية سوَّى باورعا الأمور. واستجاب حورس لطلب أبيه واسترضى عمه ستن.

في المساء جلست إيزيس مع ولدها حورس. في شرفة القصر ومعهما تانا جدة حورس. وقالت إيزيس لولدها: "أي حورس المقدَّس. يا مَنْ تسري في عروقك دماء الآلهة. يا ابن أوزيريس سليل آلهة السماء... احترس يا ولدي من عمك ست. إن ما فعله اليوم يكشف عن حقد وضغينة تملأ قلبه... إنه يبغضك ويبغض أباك.... داوم يا ولدي على تدريب بتاح وباورعا لك [إن الإله بتاح هو الذي صنع لك ولأوزوريس صفائح برونزية درعًا للصدر. وصفائح فضية للسيقان وتروسًا

مجدولة... إن نصوص ما قبل الطوفان تقول: عليك بخدمة الآلهة حتى تستحق أن تكون منهم... وخدمة الآلهة تكون بالتصدي للأشرار، ولا تقل إنك خيِّر، فهذا لا يكفي، فما فائدة الخير إذا كان عاجزًا؟ كل الفائدة في الخير حين يكون قادرًا... اجتهد لترتفع منزلتك في عيون الآلهة والناس؛ فالارتفاع في المنزلة يحتاج إلى جهاد، أما الهبوط فلا يحتاج. أرأيت إلى الحجر ترفعه إلى أعلى الجبل بصعوبة، وإذا تركته فإنه يسقط بلا مجهود؟] (٣٠)

وتوجِّه الجدة تانا لحفيدها حورس نصائح مشابهة وتحذره من عمه ست، وتوصيه خيرًا بوالده أوزوريس وتقول لحورس: "لا تكن يا حورس حسن النية كأبيك... على الإنسان يا ولدي ألا يطمئن للأفاعي... وعمك ست أكثر شرًا من الأفاعي والحيات... إن النبوءة تقول إن عمك سوف يخرب السفينة وبأنك سوف تصلحها... إذن لتكن قويًا؛ حتى تتصدَّى لعمك ست، ولتكن كأبيك صاحب حيل..." وتسكت الجدة تانا؛ إذ يعلن الخدم والعبيد عن مقدم المقدَّس "باورعا" الكاهن الأكبر، ومعه "دان" قائد المائة... وتحيي "تانا" التي لا تسري في عروقها دماء ملكية، المقدَّس باورعا فتدقّ الأرض بجبهتها دقتين، وتحيي إيزيس وحورس والمقدَّس باورعا، وقائد المائة دان، ويجلس الجميع.

ويتحدَّث باورعا فيقول: "أيتها المقدسة إيزيس... أيها الابن الألهي حورس... لقد جئت لأنفرد بكم... من أجل النصح، فأنا أعلم أن الابن الإلهي أوزيريس يعتكف بعد قداس المساء... أحذرك يا ولدي من عمك ست... فهو لا يبالي "بالماعت" ولا بتوجُّهات آلهة النور والخير... إنه من أتباع "سخمت" و"أنّوب" وبقية آلهة الشر والظلام... وإنه أيضًا من أتباع "زندر"، ومن أصدقاء "جبجا الصغير"، الذي لم يَحِد عن طريقة أبيه "جبجا الكبير" في الشر والظلم والعدوان، كذلك فمن أصدقائه "تاماتي" قائد المائة الذي لا يعرف إلا الشر، ومن أصدقائه -أيضًا- "كاموس" الذي يتلصص على المنذورات وبنات خدمة المعبد... أحذرك يا ولدي حورس، والمقدَّسة إيزيس شاهدة، من أخطر أعوان ست، وهو الكاهن الطبيب "سِسِنْبِنف.فهو يستخدم طبّه وسحره وكهانته في الشر... إياك وأن تثق في "سسنبنف"، إنه لا ينفذ شرع الآلهة، يأكل لحم الخنزير، وهو محرَّم على الإكليروس، كما يدخل المعبد والهيكل وقدس الأقداس بينما تفوح من فمه رائحة السمك... لقد حوكم "سسنبنف" لاستخدامه سحره وطبّه لأغراضه الدنيئة... ذات مرة أغوى واحدة من جواري المعبد... ومرَّة أخرى، حين استعصت عليه واحدة من

المنذورات [٣١]. أطعمها من اللوتس السحري، بزعم أنه يشفي من الصداع.. فغابت المنذورة عن الوعي، وبعد أن أفاقت شكت من عدوان "سسنبنف" عليها.. احترس يا ولدي من عمك ست، ومن جوقة الأشرار الذين يحيطون به.. ولتحفظك الآلهة.".

الإصحاح الخامس

في شرفة قصر ست، في الليلة السابعة والعشرين من شهر بابه، من العام الثامن عشر من ولاية أوزير، جلس ست ومعه حاشيته التي من أقطابها: الكاهن الطبيب الساحر "سسنبنف"، وقائد المائة المتمرِّد "تاماتي"، والمقدّس زندر "الكاهن العجوز آخر أتباع "دِبْحِن" و"موبي"، و"جبجا" الصغير [الذي لا يقل في شره واندفاعه عن أبيه جبجا الكبير، الذي ارتاح التاسوع المقدس من شروره، فأوكلوا إلى الآله "سوبك" الإله التمساح، أمر تخليص عين شمس من شروره؛ فأكلته سلالة سوبك المقدسة من تماسيح النيل] [٣٢]

انتهى الجميع من الطعام الوفير الذي اشتهرت به مائدة ست، وسارع الخدم والعبيد فقدموا الجعة ونبيذ العنب ونبيذ البلح.. ودخل إلى الشرفة "رنزي" غلام "سسنبنف"، و"مرو" غلام "زندر" يعلنان عن الانتهاء من تقديم الأضحيات كمحرّقات على نصب الآلهة.. وبالفعل بدأت رائحة المحرّقات تصل إلى أنوف الحاضرين، وهي في طريقها إلى السماء، حيث تتنسمها الآلهة.

سأل "جبجا" الصغير باندفاعه المعهود ست قائلاً:

– ألا زلت.. أيها المقدّس ستن تواظب على إرسال الأضاحي والمحرّقات إلى "سخمت" و"أنوب" و"حا" و"وزيت" وبقية أرباب العنف؟

فردّ ست:

– نعم.. لا زلت أضحي بالمحرّقات لآلهة العنف والقوة؛ عسى أن تهبني الولد، مثلما وهب "بتاح" و"رع" و"أتوم" وبقية أخيار التاسوع أوزير ولده حورس.. إنني لا زلت أتوقع نبوءة طيبة من المقدس "سسنبنف".

فرد "سسنبنف":

– سبق أن أخبرتك.. أيها المقدّس ستن [٣٣] أنني سألت آلهة القدر عن نسلك. فقالوا: إنه لن يكون لك نسل إلا من إيزيس، أو من "ستت" ابنة "ساتو" أمير "آبو" (التي هي الفنتين).

قال "زندر":

- طالما أن إيزيس جعلتها آلهة القدر من نصيب أوزوريس منذ أمد طويل، فأرى أن ترحل أيها المقدس ستن، إلى "آبو" في رحلة الشتاء، عسى أن تحظى برضا الأميرة المصارعة ستت "ابنة "ساتو"... وهي فرصة لتقوية مركز "ساتو" في الجنوب، وإضعاف مركز الأمير "دمو" وابنه الأمير "نارمر مينا" اللذين صار بيتهما في طينا بيتا مقدسًا، بعد زواج "مينا" من المقدَّسة "نيت"، بل إنهما صارا مسيطرين وموحدين للجنوب، من "آبو" (التي هي الفنتين) إلى ميدوم وجنوب منف، كذلك فإنهما من أسباب قوة أوزوريس في عين شمس وسيطرته على كل السلالة الجبتية في الشمال والجنوب.

لم يعجب كلام "زندر" تخطيطات "سسنبنف" وتوجُّهاته التي يوحي بها إليه "سخمت" و"إمنتي إلهة الغرب" و"وزيت" و"وبوات" وبقية آلهة الظلام والعنف؛ لهذا بادر بالقول:

- ربما تريد آلهة القدر شيئًا آخر غير الرحلة إلى "آبو"... وللآلهة طرق عجيبة لتحقيق ما تريد.

لم يجد كلام "سسنبنف" وقعًا لدى ست، الذي كان قد استقرَّ قلبه منذ مدة على رحلة الجنوب إلى "آبو"، عسى أن يظفر بالأميرة "ستت". وعسى أن يؤدي وجوده في "آبو" إلى زعزعة بيت "دمو" في "طينا"... وتذكَّر ست الأميرة "نيت" زوجة "مينا" [التي هي في الحقيقة من صلبه هو، منذ أن اغتصب أمها "نفتيس"... ولكنها الآن ابنة أوزوريس في العماد؛ حيث رفضت "نفتيس" الزواج منه بعد اعتدائه عليها]... واستقرَّ رأي ست على رحلة الجنوب، وأيَّده في الرأي "زندر"، و"جِبْجا الصغير"، و"كاموس".

انتشرت في عين شمس شائعة عن استئذان ست للرحيل للجنوب، ومعه حاشيته المشهورة بالشر والفساد... وفي أوائل هاتور تأكَّدت الشائعة؛ حيث بدأ ست وحاشيته وعبيده وخدمه الاستعداد للرحيل، وذهب كل من "وان" و"باورعا" للمقدّس أوزوريس، وقال "باورعا":

– أيها المقدّس أوزيريس... يا ابن الآلهة... إنك تعرف من الرسائل الأخيرة للأمير "دمو" وابنه الأمير المقدّس "نارمر مينا"، صهركم الذي صار من بيت "جبتو"، لزواجه من المقدسة "نيت"، أقول إنك تعرف -مثلنا- الكثير عن القلاقل التي يثيرها "ساتو" أمير "آبو" (الفنتين) وابنته الأميرة "ستت" مصارعة الرجال... إن "ساتو" وابنته يحاولان زعزعة سيطرة بيت "دمو" في طينا على مقاطعات الجنوب، الأمر الذي يسيئ إلى الاتحاد بين الشمال والجنوب... وأنت تعرف -أيها المقدّس أوزوريس- أن "ستن" من أعداء هذا الاتحاد... وأرى منعه من الرحلة إلى الجنوب؛ حتى لا تكتمل النبوءة التي بلّغك بها "توت" عن ست [الذي سيتسبب في إعطاب السفينة]... إن مجمع الكهنة وقواد المئات يرجونكم عدم السماح لست وحاشيته بالرحيل للجنوب؛ حتى لا يقوى شأن "ساتو" وابنته في "آبو"، الأمر الذي يسيئ إلى طينا والأميرين "دمو" و"مينا" وابنتك في العماد المقدّسة "نيت".

أضاءت وجه أوزوريس ابتسامة إلهية، ثم ربّت على كتف المقدّس "باورعا" وقال:

– أيها المقدّس "باورعا"... يا كبير كهنة عين شمس، والمسئول عن معبد التاسوع المقدّس في عين شمس... إنك تعلم أنني لا أصدر في أفعالي وأقوالي عن نفسي، بل عن وحي الآلهة... إن "جبار" رسول الآلهة نقلني إلى التاسوع في جنة الآلهة، حيث تكلم الإله "توت" باسم الآلهة، وأمرني أن أسمح لست بالرحيل إلى حيث يريد حتى [يستقيم كرّ الزمان مع ما هو مكتوب في ألواح القدر] كما قال الإله "توت"... أيها المقدّس باورعا؛ ربما كان رحيل ستن وأتباعه فرصة لحصر الشر في "آبو"، وحتى ترفرف أرواح آلهة الخير على عين شمس، حيث لن يضحّي أحد لآلهة العنف والشر والمرتفعات، لا تخش شيئًا، أيها المقدّس "باورعا" فإن التاسوع الإلهي يرعى مدينته المقدّسة عين شمس.

وفي طينا، انفعل الأمير "نارمر مينا" وهو يخاطب والده الأمير "دمو" قائلاً:

– نحن نشهد بأن المقدّس أوزيريس إله وابن آلهة، ولقد صار والدًا ثانيًا لي، حيث إنه والد الأميرة "نيت" في العماد... إنني أعجب كيف يسمح للشرير ست بأن يتصل بالأمير "ساتو" في "آبو" وابنته "ستت" مصارعة الرجال... إن عيوننا قد أخبروني عن توثيق العلاقات بين ستن و"ساتو" و"ستت"، بل إن بعض عيوننا يشيرون إلى احتمال زواج "ستن" من "ستت" مع مَقْدِمِ الشتاء.

ردّ "دمو" على ولده المقدّس "نارمر مينا" قائلاً:

- لا تجزع يا ولدي... إنك صرت، بالإصهار إلى بيت الآلهة في عين شمس، من أنصاف الآلهة، وأنت تعلم أن التاسوع المقدّس قد أعلن من خلال الإله "توت" والكهنة المباركين أنك ستعيش خمسة أعمار، وأنك [سوف تُصلح السفينة التي يعطبها ستن]... ولْتعلمْ يا ولدي أن أوزوريس -والدك في العماد- إله وابن إله، وأنه يصدر في أقواله وأفعاله عن توجيهات التاسوع المقدّس.

بعد أن وصل مبعوث من "ستت" إلى أمير "آبو"، في منتصف هاتور من العام الثامن عشر من ولاية أوزيريس، بدأ الاستعداد في "آبو" لاستضافة القادمين من مدينة الآلهة.

كان للأمير "ساتو" وابنته "سِتَتْ" قصران في "آبو": أحدهما من الحجر شرقي النيل، والآخر من طوب اللبن والجذوع والأغصان، في جزيرة "آبو" (الفنتين) التي تقع في وسط مجرى النيل... وفي موسم الفيضان يكون الوصول لقصر الجزيرة باستخدام الطوّافات والأرماث؛ أما في موسم الجفاف في الشتاء، فيكون الوصول بطريق برّي يربط الجزيرة بالشاطئ؛ ويتم كل عام إعداد ذلك الطريق البري، باستخدام كميات كبيرة من الأتربة والرمال وجذوع الأشجار، يتعاون في نقلها العبيد والفلاحون المسخّرون والحمير والفيلة.

جري في هذا العام، الثامن عشر من ولاية أوزير، إعداد ذلك الطريق باشتراك أعداد كبيرة من العبيد والفلاحين المسخّرين، وباستخدام عدة مئات من الفيلة والحمير... وهكذا تم ربط الجزيرة بالشاطئ... كذلك جُهِّز قصر الجزيرة، وأُضِيفَت له حجرات وصالات جديدة واسعة تصلح للاجتماعات والاستقبالات.

كانت الأميرة المصارعة "ستت" وجنودها وعبيدها وخدمها يشرفون على العمل، وعلى إعداد طعام العبيد والمسخّرين وشرابهم... ومن حين لآخر كانت تُقَام حفلات الرقص والمسابقات الرياضية للترفيه عن العاملين.

ذات مساء، وقريبًا من نار إعداد الطعام ونار الأنصاب التي تُقدّم عليها المحرّقات للآلهة، جرى احتفال كبير، تضمّن عدّة مسابقات في رمي السهام والرماح والعَدو ورفع الأثقال والمصارعة... وتحدّى أحد المصارعين من سكان الرمال

الحمراء، أن يصرع اثنين من المصارعين الجنود، وبالفعل تمكّن من التغلب عليهما وسط الضجيج والصياح؛ عندئذ أعلن المنادي عن أن الأميرة المصارعة "سنت"، سوف تتبارى مع المصارع المنتصر.. وصفّق الجميع.. وأُجِّجت النيران.. وتقدّمت الأميرة الشابة في ردائها الكتّاني الأبيض، ألذي يظهر طولها الفارع وعضلاتها المفتولة.. وبعد كرٍ وفرٍّ، تمكّنت الأميرة من شلِّ حركة المصارع، وطرحته أرضًا.. وهلّل الجميع ووُزِّعت الجعة.

همس أحد الفلاحين المسخّرين في العمل لزميل له قبل أن يخلدا للنوم:

- كنت مع مجموعة تقديم العلف للفيلة والحمير.. ولمّا انتهينا من العمل، مررْتُ حلسة من خلف المكان الذي كانت تأكل فيه الأميرة "سِتَتْ".. وأقسم - بكل الآلهة- إنها أكلت بضع سمكات وإوزتين وخنزيرًا مشويًا مع عدد من أرغفة البتّاو، ثم شربت جرتين من جرار الجعة؛ كما شربَتْ زقًا من زقاق نبيذ البلح. ومع هذا لم تترنّح في مشيتها.. إنها أقوى من كل الرجال [٣٣].

هوامش سِفْر أوزيريس

١- بِنْبِن BenBen هرم صغير مقدّس، بل هو أقدس المقدّسات، يكون في قمة الهرم أو المسلة، وقد يكون من الذهب، وربما كان التماع قمته بالضوء إشارة إلى رع... والبِنْبِن ربما يكون من بقايا عبادات وأساطير طوطمية ورثها المصريون عن عصور ما قبل التاريخ.

٢- أسرار القلب واللسان: لقَنَتْ الآلهة المصرية القديمة جبتو مصرايم أسرار القلب؛ أي الفكر والدين والآلهة، وأسرار اللغة، وللغة سحرها وتأثيرها لدى الشعوب القديمة.

٣- هناك فترات قوة في حياة الأمم، وهي الفترات التي يهتم فيها عقل الأمة بالتجريب والابتكار... وتنتقل الأمة بالتجريب من كشف لآخر... ونعتقد أن مصر عاشت فترة التجريب هذه في نهاية العصر الحجري الحديث وبداية العصر التاريخي؛ فانتقلت من البناء بالنباتات والطين إلى البناء بالحجر (وإن ظلّت تحتفظ بالآثار النباتية في صياغة الأعمدة الحجرية) كما عرفت المحراث واستغنت به عن الحرث بالفأس، كما استأنست الحيوان... [ولا نعجب من كثرة مكتشفات الحضارة المصرية، فالإنسان الحديث، انتقل انتقالات نوعية خطيرة في السلاح وحده في القرن العشرين].

٤- الأبواب الوهمية (رموز للأبواب) أساس من أساسات عمارة القبور المصرية، وتسمح هذه الأبواب بدخول وخروج الكا والبا (القرين والروح).

٥- لا نَنْسَ أن الذي يسرد تفاصيل هذه الملحمة هو مانيتون ابن مصر البطلمية (قبل المسيح بحوالي ثلاثة قرون)، حيث كان المرض الذي لا يُعْرَف سببه يُعْزَى إلى الأرواح الشريرة أو غضب الآلهة، وكثيرًا ما عانى المصابون بالصرع، أو حتى بالزائدة الدودية المزمنة، من علاجات بالسحر والضرب والكي لقهر الأرواح التي تسيطر على أجسادهم.

٦- الشمّاس: درجة دنيا من درجات الكهنوت المصري، وأصل الكلمة سرياني (سامي) منحوت من شاماش، إله الشمس السامي (المقابل لرع المصري).

٧- الشوباش أو الشوباشي، تعني "المردِّين" وهي تماثيل صغيرة يُفترض أن تردِّد الدعوات للميت (لاحظ الاهتمام بتأثير الكلمة والدعاء) وتوضع داخل التابوت مع الميت.. وُجِدتْ آلاف كثيرة من هذه التماثيل ومعها تعاويذ وجعارين سحرية تملأ متاحف العالم.

٨- "تلقين الميت" طقس جنائزي مصري، أثَّر في الفكر السامي... كانوا يلقنون الميت حتى يسهل عليه الردّ على محكمة تحوت أو أوزوريس وقت الحساب.

٩- الصراط (صراطا) -الفردوس (بارا دويس)- جهنم (جي هنوم) كلمات مشتركة بين الفكر الديني المصري والسامي، وهذه الكلمات من جذور مصرية.

١٠- التلقينات والصلوات المصرية، وُجِدت ألوف السطور منها في متون الأهرام ومتون التوابيت وأدراج البرديات (بردية جاردنر ــ بردية تورينو ــ جيمس هنري...).

١١- يصرّ كثيرون من الآثاريين على أن نظام الماراثون الإغريقي مأخوذ عن نظام مصري أقدم، كان يعتمد على العدائين والعداءات لنقل البريد الشفوي والمكتوب (سليم حسن ــ عبد العزيز صالح ــ نجيب ميخائيل).

١٢- الكهنوت المصري يقرِّر أن الآلهة قادرون على الخلق بمجرد النطق (كنْ فيكون) فهل أثر هذا في الفكر السامي؟ (تُراجع أصول العقائد المصرية عند الكتّاب الكلاسيكيين من أمثال: هيرودوتس، ديودورو الصقلي، بلوتارخ، هيكاته المالطي، ومانيتون)... وتوجد مقتطفات كافية منها عند: جيمس هنري برستد. جون ولسون. نجيب ميخائيل. سليم حسن. فوستيل دي كولنج وغيرهم.

١٣- نفس المرجع السابق.

١٤- "السناتوريا" ابتكار مصري قديم، حيث أقيمت بجوار المعابد دور علاجية يرعاها الكهنة... ونقل ذلك الإغريق ثم الرومان.

١٥- إمسوحا: أرض التماسيح (امسوح هو التمساح في اللغة المصرية ونُقل إلى العربية مُحرّفًا)... يُقصَد بها الفيوم لكثرة بحيراتها وتماسيحها في القديم.

١٦- يبدو أن كلمة "التسخير" في القديم لم تكن سيئة الدلالة كما هي الآن، بل إنها تحمل إيحاءات تشبه الكيبوتزات والمستعمرات التي يعمل فيها الجميع، كما في المستعمرات الإسرائيلية ومستعمرات العزاقين والمتطهِّرين في بدايات الهجرة لأمريكا.

١٧- عيد سد (Sed) عيد مصري غريب، من بقايا عصور ما قبل الأسرات وعصور التوحُّش (حيث كانوا يتخلَّصون من الزعيم الذي طعن في السن بقتله أو رميه من فوق الجبل، أو تركه وحيدًا للحيوانات المفترسة)، وعيد سد الذي رأيناه في بداية التاريخ والأسرات، هو عيد مرور ثلاثين عامًا على ولاية الزعيم. (وربما يُقْتَل أو يُعْزَل أو يُعَاد تنصيبه) راجع: سليم حسن، جون ولسون، نجيب ميخائيل.

١٨- المصريون من أوائل الشعوب التي حوَّلت الأبطال إلى آلهة (لهذا فتاريخهم الميثولوجي في العصر الحجري الحديث وأوائل الأسرات، تاريخ ملحمي خصب).

١٩- واضح أن فكرة المصطبة والمصطبتين هي الممهِّدة للأهرامات التي سوف تبتكرها الأسرات المصرية الأولى (كلمة مصطبة مصرية قديمة ولا تزال مستخدمة).

٢٠- يضربون القتيل ببقايا ذيل بقرة القربان؛ فيصحو القتيل ويخبر الكهنة عمَّنْ قتله، وأخذ العبريون ذلك عن محكمة تحوت (قصة البقرة في العهد القديم، ثم في القرآن).

٢١- أوزير – أوزيريس: يبدو أن النطق الكامل يشير إلى الاسم المقدس، أو الاسم بعد الرسامة (ومثله إيزي وإيزيس، وست وستن).

٢٢- وفاء حابي هو نفسه ما يُعْرَف بعيد وفاء النيل... ويُنْسَب للإله حابي أنه ينقل بشادوفه (الذي صنعه له الإله بتاح) الماء من جنة الآلهة في السماء إلى النيل الذي يخترق أرض الآلهة، التي هي مصر.

٢٣- لم يحدث أن ألقى المصريون بفتاة بكر إلى النيل، كما تزعم بعض الروايات، لكن من عادة الناس تفضيل الروايات الغريبة والأقرب إلى الوحشية والبدائية.

٢٤- راجع التقسيم الإداري لمصر القديمة عند كلٍ من: سليم حسن ونجيب ميخائيل.

٢٥- السنة الجبتية أو القبطية، هي السنة في التقويم المصري القديم، وأيام النسيء في آخر السنة القبطية (خمسة أو ستة أيام) لضبط التقويم وجعله شمسيًا متفقًا مع مواسم الفيضان والجفاف (ويبدو أن المصريين في ماضيهم السحيق، حين كانوا أقرب إلى الرعاة، اعتمدوا -كغيرهم من الشعوب- تقويمًا قمريًا، لم يتفق مع الزراعة فيما بعد؛ فاضطروا لتغييره).

٢٦- توت أو تحوت، إله الحكمة عند المصريين وهو أول شهور السنة المصرية (توت، بابة، هاتور، كيهك، طوبة، أمشير، برمهات، برمودة، بشنس، بؤونة، أبيب، مسرى، نسيء).

٢٧- "يحكم قرابة ثلاثة قرون" قد يحدث ارتباك في التواريخ، أو تكرار الأسماء متشابهة فيما يكتبه مؤرخون قدامى مثل مانيتون، فيخرجون من هذا الارتباك بافتراضات كانت مقبولة قديمًا (مثل أن الآلهة أعطته خمسة أعمار من أعمار البشر).. وكثيرًا ما يشير العهد القديم إلى أعمار زادت عن المائتين، واقتربت أو زادت عن ثلاثمائة.. مع أن الثقات من الأطباء يقولون إن الجسم البشري لا يحتمل، حتى في الحالات الشاذة، أن يبقى بعد المائة والخمسين).

٢٨- أوزير = أوزيريس، إيزي = إيزيس، حور = حوريس، ست = ستن.. للإعجام (أو الفصاحة) في اللغة المصرية طريقتان: زيادة ES (يس) للاسم ذي المقطعين أو أكثر، وزيادة N (ن) في الاسم ذي المقطع الواحد (مثل اللغة العربية: محمد ومحمدن) ويبدو أن هذا الإعجام كان لونًا من التوقير.

٢٩- مقتبسات من حِكم مصرية قديمة. [عادة نضعها بين هذين القوسين].

٣٠- نفس الكلام السابق.

٣١- ترد كلمة "المنذورات" في المتون المصرية القديمة، وهن البنات اللاتي تنذرهن أسرهن لخدمة المعبد؛ تبركًا أو وفاءً لنذر، وربما كن يترقين في سلك الكهانة.

٣٢- تميل الشعوب القديمة للخيال الأسطوري (فكر ساذج كالأطفال) فربما أكلت التماسيح "جبْجا" الكبير، إلا أنه من المناسب في ذلك الزمان أن تأمر الآلهة الإله "سوبك" التمساح، بأن يحرِّض نسله من التماسيح على أكل "جبجا".

٣٣- انظر هامش ٢٨.

٣٤- يبالغ الناس عادة في وصف أبطالهم، بحيث يخرجون بهم عن نطاق البشر... (ولا يزال شيء من هذا الخيال يلحق أبطال عصورنا الحديثة).

سِفْرآبو